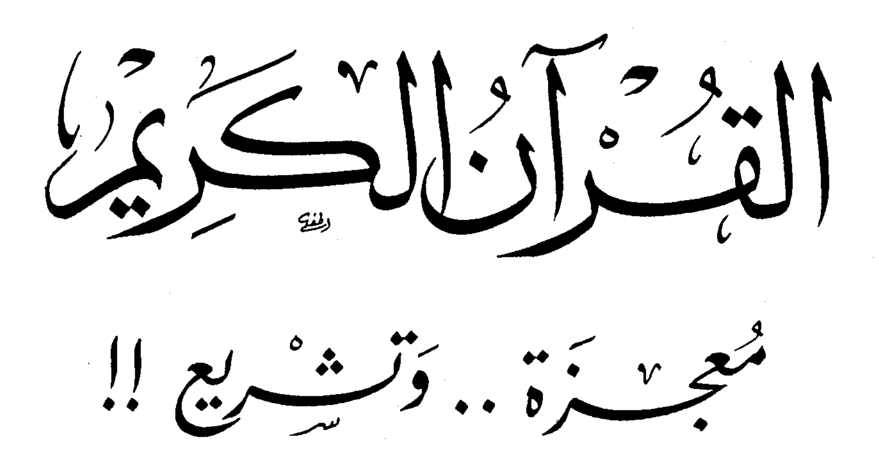




عبد الكريم عبد الله نيازي

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن الكريم

معجزة .. وتشريع !!

الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

الإهداء

قالَ اللّه تعَالى : " إنـمَا يخشى اللّهَ مِن عِبادِهِ العُـلمَاء " .

صدق الله العظيم

وَقـد كَانَ وَالدِي رَحمهُ اللّه مِنَ الذينَ دَرَسوا كِتَاب اللّه ..
وتمسَّكوا بهِ .. وَغرَسَ في نفوسِنَا حُبَّ اللّه وَرَسُوله ..
وَحُبَّ القُـرآن الكَريم !!

وَلقَـد أثـمَرَ الغَـرس ثـمارًا يَانِعَـةً .. نَضَجت وَاستَوَت
وَحَانت لحَظـة القطاف .. وَهو قطَاف أجْمعهُ في بَاقـةِ
عـرْفان وَوَفـاء !!

إلىَ الرّجُل الذي رَبَّاني فأحسَـن التَربيَـة .. وَتولّاني
بالرّعَـاية .. فأحسَـن الولاَيَـة !!

فلعَـلّه يقـرّ عيـنًا .. وَيعَـلم أن الدَّوحَـة لا تـزال
تَـمتَـدّ ظـلالهـا .. وَتعُـطى ثِـمَارهَا !!

عبد الكريم عبد الله نيازي

تقديم

بقلم معالي الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع

وزير الحج والأوقاف بالمملكة العربية السعودية

□ الحمد لله حمداً طيبا، فهو الذي هدانا إلى الإيمان، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.. والصلاة والسلام على الرسول المصطفى، محمد ﷺ.. وبعد:

□ فإن الله سبحانه وتعالى قد أنزل على عبده الكتاب.. ليكون للمسلمين ولكافة الخلق، بشيراً ونذيراً - وداعياً إلى الله - وسراجاً منيراً.

□ وحين نزل به الوحي على رسول الله، اهتدت به القلوب المريضة.. وانصلح حال الدنيا المعوج، واطمأنت - حين صلحت - تلك النفوس الضالة المنحرفة عن طريق الحق، ومنار الهدى.

□ ولقد جعل الله سبحانه من القرآن الكريم الدليل على وحدانيته والمرشد إلى معرفته وطاعته والمفصح عن صفاته وأسمائه، لأنه خاتم الكتب السماوية المنزلة بالوحي من قبل ربّ العزة إلى الأنبياء والمرسلين، ولأنه دستور الاسلام وكتاب المسلمين، إلى حيث يعيشون، فقد تكفل الحق تبارك وتعالى ببيانه وحفظه. ولأنه المهيمن على كل الكتب السماوية السابقة قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (سورة القيامة آية ١٩) وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحنُ نَزَّلنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لهُ لحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر آية ٩).

□ ومعروف في الرسالات السماوية وكتبها، أن كل رسول قد جاء بكتابه إلى أمة بعينها، على حين جاء محمد ﷺ بالقرآن الكريم إلى الناس كافة، وذلك بعد أن تأهلت الانسانية، وأصبحت رشيدة، ذات عقل وإدراك، فأصبحت أهلاً للرسالة العالمية قال تعالى: ﴿يا أَيُّها النَّاسُ اعبُدُوا رَبَّكم الذِي خَلَقَكُم والذِينَ مِنْ قَبْلِكُم لعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾ (سورة البقرة آية ٢١).

□ والقرآن الكريم - كتاب الله - هو المعجزة الخالدة التي خص بها الله سبحانه وتعالى خاتم الأنبياء وأشرفهم محمد ﷺ، فلقد تحدى القرآن - العرب أصحاب البلاغة والقول - أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، وظل معهم يتحداهم ويتدرج إلى الأدنى حتى تحداهم في آية بل وفي لفظ، فحاق بهم العجز، إنه الكتاب المعجز الحق الذي لو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

□ ولم يزل القرآن يقرع العرب - وهو يتوالى على رسول الله وحيا منزلا - ويشعرهم بعجزهم ويكشف عن نقصهم، ويفضح ضلالهم، ويتحداهم في قولهم، حتى أقروا به في النهاية، فاستكانوا وذلوا، ثم اعترفوا بعجزهم أمام هذا الوحي الالهي المعجز. فلقد خلب اللب، وسحر العقل، بلفظه ومعناه وبيانه، وروعة نظمه، وسمو معانيه، ومن ثم جاء الانقياد، وحان ميلاد الاسلام والدخول في الطاعة، وحوزة الدين.

□ وسيظل القرآن الكريم هو المعجزة الباقية الدائمة على مرِّ العصور، وكرِّ الأيام إلى أن يطوي الله الأرض وما عليها. ولقد جاءت معجزات الأنبياء والرسل قبل محمد ﷺ مرتبطة بمجريات العصر والبيئة والمكان.

□ ولقد تفوقت هذه المعجزات على تحديات العصر، ثم انتهت وضاعت معالمها، وأصبحت أموراً تروى في الكتب الدينية وسجلها القرآن

الكريم. أما كتابنا الخالد دستور المسلمين الدائم فقد جاء بمعجزة باقية خالدة، على مدى الزمان، ولا تزال قائمة، تتحدى كل عقل يضل، وكل قلب يطمسه ظلام الرجس. وهذا التفوق الاعجازي انما يرجع إلى تميز القرآن الكريم بالنَّبع الإلهي، الذي يلائم الفطرة ويطابق العقل والعلم؛ وهو بذلك يعلو على كل المذاهب التي وضعها البشر، فما من مذهب خلقه العقل البشري يضاهي أو يماثل أو يشاكل منهج القرآن الكريم من حيث الخلود والإعجاز، والشمول، والاستجابة لكل ما يجد في كل عصر وفي كل بيئة. إنه كتاب الله على مدى الأزمان.

□ وإذا ما ألقينا النظر على المذاهب التي تسيطر على بقاع كثيرة من العالم، وهي مذاهب من وضع البشر، منها ما هو قديم، ومنها ما هو جديد، لرأينا أن هذه المذاهب وما تتضمن من مبادىء وأفكار تتغير وتتبدل، بل وقد تتناقض تماما، لأنها نتاج عقل بشري قاصر وناقص. وكلما تمتد الأزمان وتتغير الظروف، وتتبدل المذاهب، وتتصارع الدول، تصبح الآراء التي تضمنتها هذه المذاهب متخلفة بالية، بل وتصبح المذاهب ذاتها جامدة صلبة، لا حياة فيها، متخلفة عن مجريات الحياة، وعن مدارك العقل البشري.

□ أما القرآن الكريم فإنه ما زال سابقا للزمان والعصر وسيظل متقدما على البيئات والمجتمعات، وسيبقى يتحدى كل العقول، إلى أبد الآبدين.

□ قال تعالى يصف كتابه الكريم: ﴿لا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَينِ يَديهِ وَلاَ مِن خَلفِهِ﴾ (سورة فصلت آية ٤٢) وقال تعالى: ﴿وَلَو كَانَ مِنْ عِندِ غيرِ اللهِ لَوَجَدُوا فيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ (سورة النساء آية ٨٢)

□ ولقد عرف القرآن الكريم باعجازه البياني الذي تحدى به أمة العرب. والعرب فرسان البلاغة وأئمة الفصاحة.

□ ولقد خدم علماء الاسلام في القديم والحديث هذا الجانب الاعجازي

فأوفوه حقه، ولا يزال القرآن يحتاج إلى مزيد من البحث والاستكشاف. وكلما تقدم الانسان في مجالات العلم والمعرفة، كلما أدرك ما في القرآن الكريم من مجالات أخرى معجزة سواء كان ذلك يتصل بخلق الانسان، أو يتصل بعلم الفلك، أو الظواهر الكونية.. وغيرها من المجالات العلمية المعروفة كلقاح النبات وتسيير الرياح المصرف بين السماء والأرض، وحركة الجاذبية، ودوران الأجرام.... إلخ، ويكفي ان نعرف أن كلمة العلم ومادتها واشتقاقاتها ودلالاتها قد وردت في حوالي ٨٧٠ آية ثمانمائة وسبعين آية قرآنية كريمة.

□ والعلم الذي يشير إليه القرآن الكريم هو العلم بمفهومه الشامل الذي ينتظم كل ما يتصل بالحياة ولا يقتصر على علم الشريعة وحدها. فلقد دعا إلى النظر في ظواهر الوجود ودراسة الكائن الانساني، كما أنار الذهن ووجهه إلى دراسة علوم تتصل بمظاهر الحياة على الأرض كالنبات والحيوان وعلم الأجناس وغيرها.

□ ولقد أمر الله المسلمين بالتمسك بكتاب الله والعمل بما جاء به كما حبب إليهم تلاوة القرآن وحثهم على قراءة ما تيسر لهم منه: (إن قرآن الفجر كان مشهودا).. وذلك آناء الليل وأطراف النهار، بل وحضّهم على تدبر معانيه وتفهم مقاصده، وإدراك إشاراته، وتأمل ما ورد فيه عن مظاهر كونه وخلقه. قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ﴾. (سورة محمد آية ٢٤).

□ ولقد دعا القرآن الكريم المسلمين إلى الاهتداء بهديه، والاستضاءة بنوره في سائر مراحل حياتهم وفي مختلف شئون أمورهم لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

□ ولقد نزل القرآن الكريم منجما على سيد الخلق وخاتم الرسل حتى إذا اكتملت الغاية قرر القرآن كما ورد في حجة الوداع على لسان رسوله:

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا﴾.

□ ولا أحسب أن أمة تحتاج إلى وحدة الأفكار والمشاعر والأهداف، مثلما تحتاجه الأمة الاسلامية هذه الأيام. ذلك أن المسلمين باتحادهم يصبحون قوة كبيرة ذات تأثير فعال في مجالات الحياة الفكرية، والثقافية، والاقتصادية، فضلا عن الجانب الديني الروحي السمح الذي يمثله الاسلام.

□ ولن يستعيد العالم الاسلامي مكانته وقوته وتأثيره إلا بتمسكه بكتاب الله، والعمل بسنة رسوله ﷺ.

□ ولن تأتي القوة إلا بالعمل على خدمة القرآن وحفظه ونشره وتلاوته، في الأصقاع الاسلامية وغير الاسلامية حتى تظل راية الاسلام خفاقة.

□ والمملكة العربية السعودية وهي قائدة العالم الاسلامي، وفيها الأماكن المقدسة، وإليها يكون الترحال والمقصد، قد بذلت مجهودات جبارة في خدمة الاسلام، وفي خدمة كتاب الله الكريم فهي - كدولة - قد اتخذت كتاب الله دستوراً، تعتمده في الحياة العامة والخاصة، بحيث يشمل جميع جوانب الحياة، ولقد استمدت المملكة منه القوة فأصبحت قوية بحمد الله.

□ ولقد حرص مؤسس المملكة وموحدها جلالة الملك عبد العزيز رحمه الله، على تجسيد مفهوم التمسك بكتاب الله، فعمل جاهداً على نشره، وحفظه، وتلاوته، ونشر التعليم في البلاد وإقامة المدارس.. حتى أصبحت مناهجنا بحمد الله تنهل من المنهل العذب الكريم. ولقد سار أبناؤه الميامين قادة هذه الأمة وحكامها على هذا المنوال الكريم الذي جسده جلالة الملك عبد العزيز، فهم يحكمون كتاب الله، ويشجعون على حفظه وتلاوته، ويساعدون حفاظه وقراءه وحملته وعلماءه لأنهم نبراس المجد وضياء الأمة.

□ ولقد انتشرت مدارس تحفيظ القرآن الكريم في أنحاء المملكة وكذلك الجمعيات الأهلية الخيرية لتحفيظ القرآن، حتى ينتشر القرآن ويظل موجوداً في الصدور، وفي القراءة، وفي التلاوة والمدارسة، وجوده ككتاب الله وكمنهج للحياة والحكم.

□ ولا شك أن مشروع الملك فهد المعظم في خدمة كتاب الله، والمتمثل في بناء كامل شامخ متكامل الجوانب، وهو مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، لهو دليل واضح ومؤكد على الجهود التي تسعى إلى تحقيقها المملكة بقيادة مليكها المفدى ورجالها المخلصين، لخدمة الاسلام، وكتاب الله. كما أن المسابقات الدينية لتلاوة القرآن الكريم، وتجويده وتفسيره التي تعقد في مكة المكرمة عاما وراء عام، لهي من الأعمال الجليلة التي تعتز بها المملكة، لخدمة القرآن وتشجيع حفظه ونشره وتلاوته، وإذكاء روح المنافسة بين أهله، وناشئته، حتى تظل جذوة الإيمان مشتعلة وراية الاسلام مرفوعة، خفاقة.

وإننا لنرجو الله العلي القدير أن يعزنا بالقرآن وأن يحفظنا به، وأن يلهمنا حسن العمل على خدمة كتابه.. إنه على ما يشاء قدير.

□ وفقنا الله جميعا لما يحبه ويرضاه.. ويسرنا للخير.. ويسره لنا.. وجمعنا على المحجة البيضاء.

□ وسلام عليكم من رب رحيم.

عبدالوهاب أحمد عبدالواسع

القـرآن الكريم !!

بقلم سعادة الأستاذ حسام حسين خاشقجي
وكيل وزارة الحج والأوقاف لشئون الاوقاف
بالمملكة العربية السعودية

□ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا.

والصلاة والسلام على النبي الأمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته وتمسك بسنته إلى يوم الدين.

وبعد.

□ فالقرآن الكريم.. كتاب الله، ووحيه إلى رسوله الكريم، وكلامه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

□ ولقد حفظ الله قرآنه وكفل له حمايته من كل تشويه يلحقه، فأعداء الاسلام كثيرون، ومحاولتهم للاساءة إلى القرآن الكريم محاولات مستميتة ودائمة. ولكن هيهات لهم، فسترتد السهام إلى صدورهم، فالله غالب على أمره.

□ ولم يحظ كتاب على مدار التاريخ منذ أن عرف الانسان القراءة والكتابة، ومنذ أن بدأ يهتم بتراثه وتاريخه، كالقرآن الكريم، كتاب الله، فلقد كثرت العناية به، بسوره، وترتيبها، وآياته بألفاظها وحروفها، وقراءاته بوجوهها وأنواعها، وبرسمه الخاص به، ونقطه، وأجزائه وأعشاره وأحزابه وتجويده، وطباعته ونشره.

□ ولقد خدم القرآن مجموعة من العلوم التي تتناوله من حيث أسباب النزول، حيث كونه مكيا ومدنيا وكذلك ما يتصل بالناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه، وعلم القراءات، فضلا عن رسم القرآن وكتابته وعلم التفسير، وغيرها من أنواع العلوم الكثيرة التي تدور حول القرآن، لفظه، ونظمه، ومعناه، واعجازه وبيانه.. وغير ذلك من وجوه البحث وتنوع الموضوعات.

□ والقرآن الكريم، آخر الكتب السماوية التي نزلت من السماء على خاتم الرسل سيدنا محمد ﷺ. وفيه الهداية للناس كافة.

□ ففي القرآن الكريم كل الحلول لمشاكل البشر، والعلاج الحاسم لمتاعبهم النفسية والقلبية والدينية والمادية أيضا، بل هو شفاء كامل لأمراض النفس والجسد ايضا، فكلما صلح القلب صلح الجسد.. واطمأنت النفس. كما نظم القرآن الكريم حياة البشر، كافة البشر، ففيه الهداية لخلق الله جميعا، لقد اكد مبدأ المساواة بين الناس جميعا، وجعل المفاضلة بينهم عنصر الايمان والتقوى.. وأرسى القرآن الكريم مبادىء العدل الاجتماعي والأخوة الانسانية.

□ من كل هذه المعاني مجتمعة وغيرها تنتشر الطمأنينة والأمن فيما بين الناس. إن القرآن الكريم فيه صلاح الفرد وصلاح المجتمع، وهو الطريق المستقيم الأوحد الذي إن سلكه الناس سعدوا وفازوا بسعادة الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وأَنَّ هَذَا صِراطِي مُستَقِياً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عَن سَبِيلِهِ﴾ (سورة الأنعام آية ١٥٣).

□ وقال ﷺ في مجال بيان أهمية القرآن وفضله وضرورة الاهتمام به وتوقيره: «القرآن أفضل من كل شيء دون الله، وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه، فمن وقّر القرآن فقد وقّر الله، ومن لم يوقّر القرآن لم يوقر الله، وحرمة القرآن عند الله كحرمة الوالد على

ولده » صدق رسول الله.

□ والأمة الاسلامية تحتاج إلى وحدة الأفكار والمشاعر والأهداف حتى تصبح أمة ذات ثقل في مجالات الحياة المختلفة، فضلا عن كونها قدوة لغيرها من الدول ذات الديانات الأخرى.

□ والقرآن الكريم هو أساس الوحدة. ولن يستعيد المسلمون مكانتهم إلا بتمسكهم بكتاب الله وسنة رسوله. فلقد أخرج العرب من ضلالهم وضعفهم وتمزقهم، وحول الفوضى التي سادت حياتهم إلى نظام ومنهج حياة. ومحا منهم الاتصاف بالعبودية والقبلية والوثنية، ورفعهم عليين مسلمين ذوي كرامة، يتحدون على كتاب الله ويرفعون راية الاسلام.

□ والقرآن الكريم هو الذي يهدي في كل معضلة، أو مشكلة، فيه الحلول لكل القضايا، والتوجيه لكل الأمور. قال تعالى في كتابه الحكيم: ﴿مَا فَرَّطنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيءٍ﴾. (سورة الانعام آية ٣٨)

□ وتأثير القرآن في المسلمين تأثير مستمر لا ينقطع لأنه يتضمن بين دفّتيه الشريفتين، الأحكام والمبادىء والحدود والمنهج والشريعة، والدستور الدائم. إنه بذلك ينظم حياة الفرد المسلم والأسرة المسلمة، والمجتمع الاسلامي ككل.

□ كما ينظم حياة المسلمين الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والثقافية والحضارية، وعمارة الأرض، بل والكون أيضا.

□ ولقد ركز القرآن الكريم ضمن ما ركز، وأفاض ضمن ما أفاض على مبادىء ثلاثة، تتمثل في وحدانية الله وتفرده بالخلق، والمسؤولية الفردية والجماعية والالتزام بقيم الأخلاق الاسلامية الثابتة، وضرورة الايمان بالبعث والجزاء.

□ وتلك المبادىء الثلاثة تمثل خطوطا عريضة للمنهج العام الذي يشكل حياة المسلم.

□ والقرآن ليس مجرد كتاب فقط وردت فيه أحكام الصلاة أو أنواع الأدعية، وليس هو غذاء للروح فقط، بل هو فضلا عن ذلك دستور للنظام الاجتماعي الاسلامي وكنز العلوم الذي يحتويها، ومرآة الحياة والآمال، والسعادة دنيا وآخرة لأجيال المسلمين.

□ يقول ابن حزم: (القرآن هو عهد الله إلينا الذي ألزمنا الإقرار به).

□ هدانا الله إلى العمل بالقرآن وبحفظه وبمدارسته ونشره وتلاوته وبالتمسك به.

حسام حسين خاشقجي

مقدمة

□ لقد منّ الله على الأمة العربية بالاسلام، فأخرجها من الظلمات إلى النور وحررها من القيود والوثنيات التي كانت تعرقل خطوتها نحو الله. ووضع أقدامها على الطريق المستقيم، طريق الخير والرشاد والحق. ولا يتأتى ذلك إلا بتحرير العقل والروح. ولقد حرر الاسلام عقل العربي وروحه وانطلق به إلى آفاق الوحدانية الخالصة. فقد حرره من العبودية الاجتماعية، التي كانت طمساً لكرامته وانسانيته، وذاته البشرية التي خلقها الله كريمة مصونة. كما حرره من العبودية الفكرية، التي جعلت من عقله تابعاً، جامداً، متعصباً، وليس أداة للتغير ومرآة تعكس مظاهر قدرة الله في الكون والحياة.

□ إن الاسلام ضد الجمود، كما هو ضد الرهبانية... والاسلام هو أول من علم الانسان، كيف تتفتق حركة الفكر وتعلو، وتسمو، في إطار من استقامة الدين، وصحة العقيدة. فالعقيدة الاسلامية لا تقف عقبة دون انطلاق الفكر إلى آفاقه الرحبة والمتعددة. إن هذه الانطلاقة هي التي تضمن للمسلم صحة العقيدة، وحرية الفكر معا.

□ وإنني لأؤكد أن الاسلام هو معلم البشرية جميعا تلك الجزئية المتكاملة لحركتي الدين والفكر. ومن ثم لم يعرف الصراعات التي عرفتها المذاهب الأخرى، أو المناهج الماديةالتي اتخذتها بعض الدول منهاجا للحياة والحكم.

□ ذلك ان الدين الاسلامي الذي ارتضاه الله لأمة العرب هو دين الوحدة المتكاملة، الوحدة الكلية التي لا انفصام بين جزئياتها، ودقائقها.

□ إنها وحدة الألوهية المتمثلة في العقيدة الداعية إلى الوحدانية وإخلاص العبادة لله ونبذ انواع الضلال والشرك. ووحدة الجنس البشري منذ آدم عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. وهي وحدة ناشئة عن تعمير الكون الذي خلقه الله للانسان ومن ثم يضحى عنصر الاجتماع والمشاركة او المفارقة أهم ملامح هذه الوحدة. وهي وحدة كلية، مخلوقة من الله جل وعلا.. مما يعطي الحق للاسلام ان يكون دينا للبشرية جمعاء بألوانها وأجناسها ولغاتها.

□ ووحدة الخلق والجنس هذه، ذات تاريخ حضاري وثقافي ممتد عبر الأزمان والأجيال، ومنذ أن عرف الانسان كيف يمسك بالقيم ليسجل تاريخه وأيامه وتراثه.. هذا التاريخ هو الذي يعطي لنا الوحدة التالية وهي وحدة الفكر الانساني في التاريخ والحضارة والدين والثقافة.

□ وبالاسلام وصل المسلمون إلى الدرجة العالية من الحضارة والرقي والفكر العالمي الذي لا يدانيه فكر، حيث اخترق علماء الاسلام مجالات العلوم المختلفة، من دينية وطبيعية وكيميائية وعلوم البحار والنبات والانسان وغيرها،.. مع الاحتفاظ الكامل بسلامة العقيدة ونقاء الايمان.

□ والقرآن الكريم هو كتاب الله، وهو دستور المسلمين في حياتهم وعقيدتهم، ولقد أحصى كل شيء عدداً، ولقد ظهرت فيه هذه الوحدات الثلاث مكتملات متمازجات، فصنعت الانسان المسلم الكامل، الذي رفع راية الله عاليا، ترفرف خفاقة ونشرها فوق أصقاع العالم المختلفة.

□ ولا غرو أن يهتم المسلمون بكتابهم، القرآن الكريم، يحفظونه ويدرسونه، ويتدارسونه، ويتلونه، ويطبعونه مصحفا تتعلم فيه الناشئة

أصول الدين والعقيدة، ويتخذه المسلم نبراسه وضوءه ونوره الذي يهتدي به.

□ ولم يقصر علماء المسلمين في خدمة القرآن الكريم، فالعلوم التي تخدم القرآن الكريم في جميع الموضوعات، تربو على الثمانين علما. وكلما امتد الزمان، وتكشف للعقل البشري ما كان خافيا عليه، كلما لزمه العودة إلى النظر في كتاب الله، ليتدبر معانيه، ويتفهم الإشارات التي وردت فيه، ليتيقن انه الدين الصالح لكل زمان ومكان إلى أبد الآبدين.

□ إن عظمة القرآن تتجلى أعظم ما تتجلى، في أنه يواكب العصور، ويقودها، إلى طرق الخير والرشاد. فكلما اتسعت معلومات الانسان عن العالم الذي يعيش فيه، أرضه وسمائه وزادت تجاربه في الحياة، وتراكمت أحداثه التاريخية وقطع في الاستكشافات العلمية مراحل ومراحل، كلما تكشفت له المعاني العميقة، والمتجددة، في القرآن الكريم.

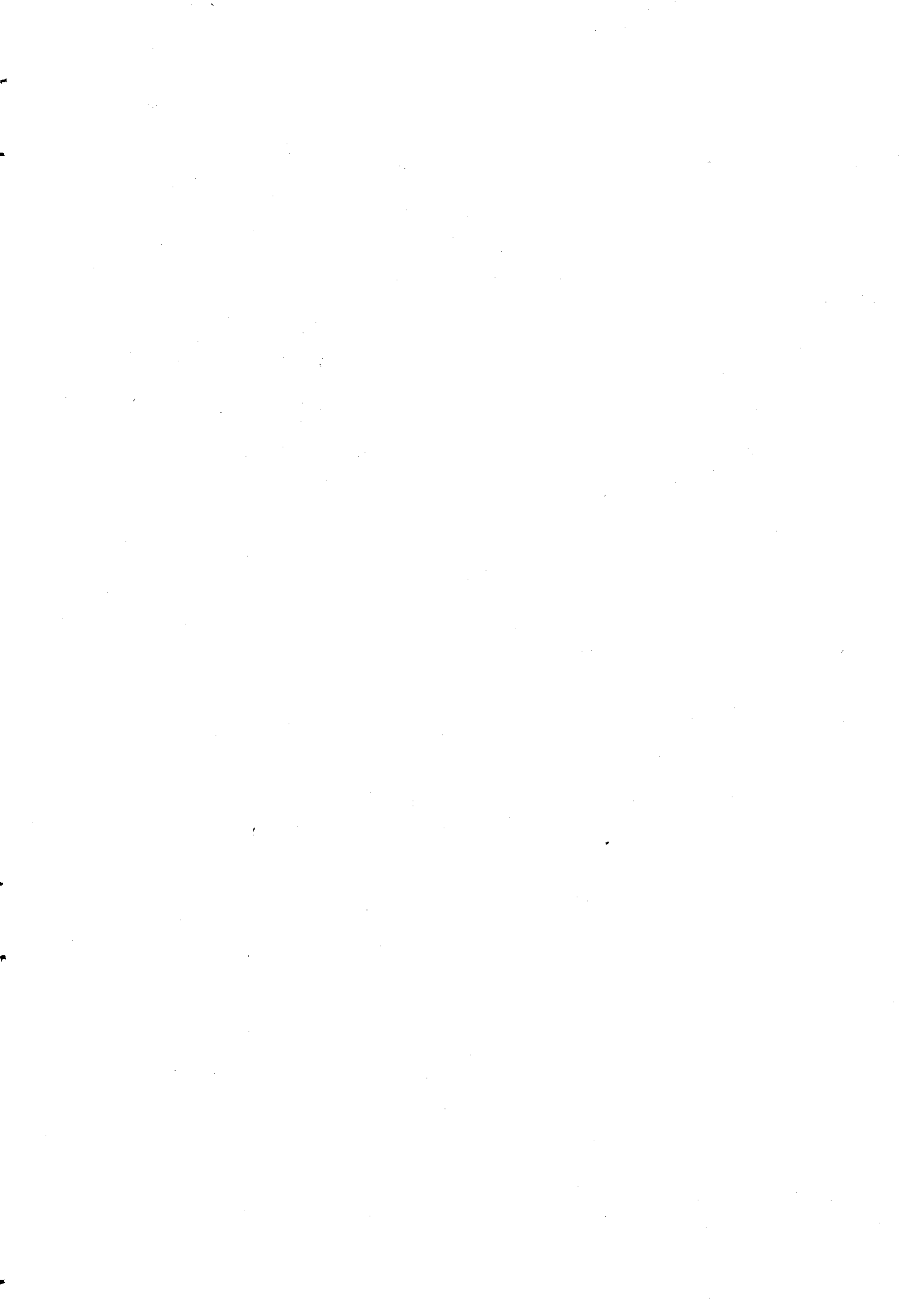
□ إن القرآن كتاب الله إلى المسلمين وإلى البشر كافة.. وإنني بهذا المجهود الذي قمت به خدمة للقرآن الكريم وكواحد من الذين سبحوا في تيار العلوم القرآنية، وهو تيار متدفق لا ينتهي، - لأرجو الله أن ينفع به المسلمين، وأن يجزينا الله به خير الجزاء. وأن يكون مدعاة لمزيد من البحث والدراسة التي تخدم كتاب الله.

والله نسأل أن يمن علينا بالهداية والصلاح، وأن ينصر دينه ويعلي كلمته.

مكة المكرمة

الخميس ٩ ربيع الأول ١٤٠٦هـ
٢١ نوفمبر ١٩٨٥م

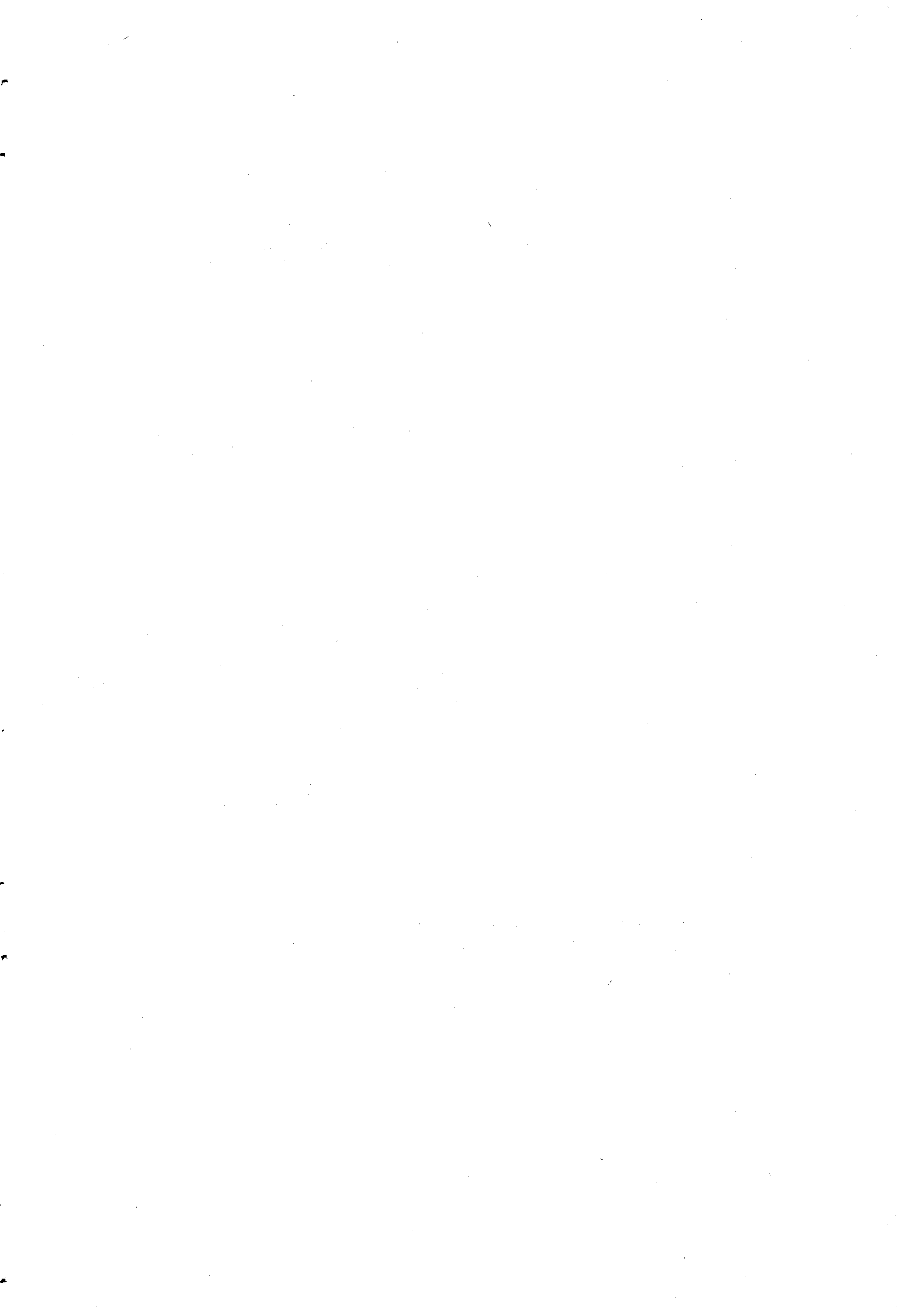
عبد الكريم عبد الله نيازي





الفصل الأول

القُرآن الكَريم
مُعْجِزة .. وَتَشْريع !!



□ القرآن الكريم هو خاتم الكتب السماوية المنزلة بالوحي من رب العزة إلى الأنبيـاء والمرسلين.. أنزل عـلى محمـد بن عبـد الله ﷺ.. برسالـة الإسلام.. ولغة العرب.. منجما على ثلاثة وعشرين سنة.. بدأ بآية ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾.. وانتهى بآية ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ وهو المعجزة الباقية على مدى الدهور والقرون والعصور.. فقد تحدى الله سبحانه وتعالى العرب والناس جميعا.. أن يأتوا بسورة من مثله.. أو آية من مثله.. وما يزال التحدي قائما بعد أربعة عشر قرنا.. وسيظل دليلا على معجزة القرآن الخالدة.. التي لا يستطيع البشر مهما بلغوا من العلم والبلاغة أن يتجاوزها قبل أن يبلغها.

□ والقرآن الكريم ينبوع كل خير.. ومصدر كل علم.. وأصل كل نعمة.. اختار الله له شهر رمضان ميقاتا.. وكان نزوله فيه فيض رحمة.. وبدء رسالة.. وشاهد اصطفاء رسول خاتم الأنبياء والرسل.. وبداية أمة هي خير أمة أخرجت للناس.. فأنار الله به للذين التزموه كل طريق.. وتداركهم بلطفه من فناء كاد يأخذهم من شتى نواحيهم.. ومنحهم به أينما اتجهوا كل صواب وتوفيق.. فلا تكاد قضية من قضايا الحياة إلا وضح القرآن الكريم غياهبها.. وكشف أسرارها.. وأبرز غموضها.. وأجلى جوانبها.. وبين أهدافها.. وهو صالح لكل زمان ومكان بقدر ما يعطيه المسلمون من عناية واعتبار.. بعد أن أسعد الذين ناجوا ربهم بكلامه.. وجعلوا قلوبهم أدعية له.. ورطبوا ألسنتهم ما استطاعوا تلاوته.. وأرهفوا أسماعهم لهدايته.. فلا ينصرفون عنه لسواه.. ولا يرتضون به بديلا.. ولا يبغون عن أوامره ونواهيه حولا.

□ والقرآن الكريم هو كتاب الدين والدنيا.. ودستور العلم والعمل.. يوافي الأحياء بما لا يحتاجون بعده شيئا.. في قضايا العقيدة.. وشؤون

العبادة.. ومنهج السلوك.. ويقدم أرسخ العلاقات.. وأوثق الروابط التي توثق عرى الإخاء الإنساني الحق بين الأفراد والجماعات.. وبين الأفراد والأفراد.. وبين الجماعات والشعوب.. وهو يحمل إلى هؤلاء وأولئك مشعل النور.. اليوم وغدا وحتى قيام الساعة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. كما حمله منذ أوحاه الله سبحانه وتعالى إلى خاتم الانبياء والمرسلين محمد ﷺ: «يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا».. وتكفل الله سبحانه وتعالى حفظه ورعايته إلى يوم القيامة..قال تعالى:﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَلنَا الذِّكر وإنا له لَحَافِظُون﴾..(سورة الحجر آية ٩) وهدى به الله من الضلالة.. وأخرج الناس به من الظلمات إلى النور.. ومن الجهل إلى العلم..ومن عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة الله تعالى الخالق الفعال لما يريد.. ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.. كما قال أحد أبطال الإسلام لرستم.. وهو ربعي بن خراش رضي الله عنه.. أخرج رزين عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: «نزل جبريل عليه السلام.. على النبي ﷺ.. فأخبره أنه ستكون فتن.. قال فما المخرج منها؟ فقال: كتاب الله تعالى.. فيه نبأ ما قبلكم.. وخبر ما بعدكم.. وحكم ما بينكم.. وهو حبل الله المتين.. وهو النور المبين.. وهو الصراط المستقيم.. وهو الشفاء النافع.. عصمة لمن تمسك به.. ونجاة لمن اتبعه.. لا يعوج فيقوم.. ولا يزيغ فيستعتب.. ولا يخفق على كثرة الرد.. ولا تنقضي عجائبه.. هو الذي لا تلتبس به الأهواء.. ولا يشبع منه العلماء.. وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: «إنا سمعنا قرآناً عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا».. من وليته من جبار فحكم بغير ما فيه.. قصمه الله.. ومن ابتغى الهدى في غيره.. أضله الله.. من قال به صدق.. ومن حكم به أجز.. ومن اتبعه هدى إلى صراط مستقيم».

□ يدعي الحاقدون على الإسلام ورسوله ﷺ أن المشركين طلبوا من

النبي ﷺ أن يؤيد دعواه بمعجزة كالأنبياء السابقين.. فعجز عن ذلك.. وهذا قول باطل مردود.. فقد أيد الله سبحانه وتعالى أنبياءه بمعجزات وخوارق تناسب الزمن الذي أرسلوا فيه لتكون دليلا على صدق دعواتهم.

□ وحيث أن رسالة محمد ﷺ هي خاتمة الرسالات.. ويعلم الله سبحانه وتعالى أنه سيأتي عصر مثل هذا العصر الذي نعيشه.. يحقق تطورا علميا وتكنولوجيا لا تجدي معه الخوارق خاصة وأن البشر العاديين استطاعوا الوصول إلى القمر.. وغزوا الفضاء.. واختراع الآلات العجيبة.. وصدق الله سبحانه وتعالى إذ يقول: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾.. سبق في علم الله سبحانه وتعالى ذلك.. وكان من الضروري أن يمد نبيه وصفيه محمدا ﷺ بمعجزة خالدة.. تبقى على مر الدهور والقرون والعصور.. مهما تغيرت الظروف.. وتعددت الأزمنة.. شاهدة على صدق الرسالة.. ووحدانية الخالق جل وعلا.. فأوحى الله سبحانه وتعالى هذا القرآن إلى رسول الله محمد ﷺ.

□ يقول الفيروز أبادي في كتابه: «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز»: إن المعجزة مختصة بالنبي دائما.. ووقت إظهارها مردد بين الجواز والوجوب.. ويقرن بالتحدي.. وتحصل بالدعاء.. ولا تكون ثمرة المعاملات المرضية.. ولا يمكن تحصيلها بالجهد والكسب.. ويجوز أن يحيل النبي المعجزة إلى نائبه لينقلها من مكان إلى مكان.. وأيضا يكون أثر المعجزة باقيا بحسب إرادة النبي».

□ وجملة المعجزات راجعة إلى ثلاثة معانٍ: إيجاد معدوم.. أو إعدام موجود.. أو تحويل حال موجود.. إيجاد معدوم لخروج الناقة من الجبل بدعاء صالح عليه السلام.. وإعدام موجود كإبراء الأكمة والأبرص بدعاء عيسى عليه السلام.. وتحويل حال الموجود كقلب عصا موسى ثعباناً».

□ «وكل معجزة كانت لنبي من الأنبياء.. فكان مثلها لرسول الله ﷺ.. وكان إظهارها ميسرا مسلما.. وأفضل معجزاته وأكملها.. وأجلها وأعظمها القرآن الكريم.. الذي نزل عليه بأفصح اللغات وأصحها.. وأبلغها وأوضحها.. وأثبتها وأمتنها.. وبعد أن لم يكن كاتبا ولا شاعرا ولا قارئا ولا عارفا بطريق الكتابة.. واستدعاء من خطباء العرب العرباء.. وبلغائهم وفصحائهم أن يأتوا بسورة مثله.. فأعرضوا عن معارضته.. عجزا عن الإتيان بمثله.. فتبين بذلك أن هذه المعجزة أعجزت العالمين عن آخرهم».

■ ومن ينظر الى الإعجاز في القرآن الكريم نظما ولفظا ومعنى يجد أنه لا يشبهه شيء من كلام المخلوقين.. ولا يستطيع إنسان مهما أوتي من العلم.. أو قوة البيان أن يأتي بمثله.. أو بمثل شيء منه.

■ ولننظر إلى العرب أهل الفصاحة والبيان عندما حاول بعضهم أن يقلد سورة من القرآن.. وهي سورة الكوثر أقصر سورة.. ولا يخفى ما في هذه السورة من البلاغة والإعجاز.. فماذا قال فصحاء العرب؟ لقد جاءوا بقول ركيك مضحك.. فلنقرأ قولهم: «إنا أعطيناك العقعق.. فصل لربك وازعق.. إن شانئك هو العجل الأبلق».

□ أما مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة بعد وفاة النبي ﷺ.. فقد قال كلاما لا يقل تفاهة عن الكلام السابق.. فيروي أن جماعة من أهل اليمامة قدموا على أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه.. فسألهم عن مسيلمة وعما يدعيه من الوحي النازل.. فقرأوا عليه منه هذا الكلام: «يا ضفدع نقي نقي.. إلى كم تنقين.. لا الماء تكدرين.. ولا الطين تفارقين.. ولا العذوبة تمنعين».. فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: «والله إن هذا الكلام لم يأت من عند الله».

□ ولنسمع شهادة أهل الشرك في القران الكريم.. يروى أن المغيرة بن

عقبة دخل على النبي ﷺ وقال: يا محمد اقرأ علي شيئا مما أنزل عليك.. فقرأ ﷺ قوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ الآية... فقال المغيرة بن عقبة: «إن لهذا القول لحلاوة.. وإن عليه لطلاوة.. وإن أسفله لمغدق.. وإن أعلاه لمثمر.. وإنه يعلو ولا يعلى عليه.. وإن لي فيه نظرا.. ولا يقول مثل هذا بشر».

□ ومما يدل دلالة قاطعة أن القرآن الكريم من عند الله سبحانه وتعالى.. هو أن الخطاب موجه في كثير منه إلى النبي ﷺ.. فإذا كان القرآن الكريم من قول محمد ﷺ.. لما أسند ضمير المخاطب إليه نفسه.. فضمير المتكلم مسند إلى الله سبحانه وتعالى في القرآن كله.. والخطاب موجه منه جل وعلا.

□ ولا يقف إعجاز القرآن الكريم على نظمه وأسلوبه.. بل إعجازه في معناه أيضا.. ولقد كشف العلم الحديث إعجاز القرآن من الناحية العلمية.. فقد تعرض القرآن الكريم في كثير من آياته إلى مسائل هي من صميم العلم.. وذكر جانبا من الحقائق العلمية كقضايا عامة.. ودخل في تفاصيل بعض الحقائق الأخرى.. وتلك الآيات في مجموعها إحدى نواحي إعجاز القرآن الكريم التي تكشفت في هذا العصر الذي يؤمن فيه الفرد والجماعات بالعلم.. وتقاس فيه قوى الشعوب بما أحرزت من ثقافات.. وما جمعت من معرفة.. وما ابتكرت من مخترعات.. ولعمري تلك هي إحدى صفات القرآن الكريم الرائعة.. ذلك الكتاب الذي لا يقف إعجازه عند عصر معين.. ولا بثقافة بالذات.. وقد تكشفت في العصر الحديث كثير من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم.. يقول تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.

□ والقرآن الكريم معجزة بإخباره عن بعض الغيبيات التي وقعت فعلا كما أخبر بها القرآن الكريم نفسه.. منها على سبيل المثال: فتح مكة.. وانتصار الروم بعد هزيمتهم.. وهذا هو القرآن الكريم معجزة الرسول

ﷺ الكبرى.. وقد تحدى عليه الصلاة والسلام من خالفوه بأن يأتوا بمثله.. فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.. وصدق الله سبحانه وتعالى حيث يقول: ﴿لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾.

□ إن ما يقوله الكاذبون من أن محمدا ﷺ لم يستطع الإتيان بمعجزة محض افتراء.. فبالإضافة إلى معجزة القرآن الكريم فله ﷺ كثير من المعجزات التي وردت إلينا عن طريق التواتر.. ومن ثقات الرواة.. منها معجزة الإسراء والمعراج.. وانشقاق القمر.. ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة وغيرها.

□ هذا هو القرآن الكريم معجزة رسول الله ﷺ الخالدة.. وكتاب الله الخالد.. أوحاه إلى نبيه ﷺ.. تأييدا لرسالته وتشريعا وتنظيما لدينه.. وقد أجمل القرآن الكريم العقيدة الإسلامية وقواعد تطبيقها في المجتمع.. كما تضمن قواعد تنظيمية وتشريعية واقتصادية واجتماعية صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان.. وشرحت السنة النبوية الشريفة ما أجمله القرآن الكريم.. وأوضحت ما خفي تفسيره على الناس.

□ وإذا كان المتقدمون من علماء المسلمين قد خدموا القرآن الكريم بتجلية معاني كلماته وآياته.. وبيان موقعها في فصاحة العرب.. في الأسلوب والتراكيب والإعجاز.. واستخلاص الأحكام الفقهية منها.. والاستدلال بها على بعض الآراء والاتجاهات في العقيدة.. والمذاهب الكلامية للطوائف المختلفة.. فان ذلك لم يكن الطريق الأفضل الذي يشير إلى القيمة الذاتية الحقيقية للقرآن الكريم.. كدليل صادق على رسالة الرسول ﷺ.. وإنما كان أشبه بتوضيح مفكك للهداية الإلهية.. وربما كان التفسير الموضوعي.. أو استخلاص جوانب هذه الهداية.. بحيث تحدد أهداف الرسالة.. هو السبيل الأيسر للإيمان بمستواه الرفيع الذي يعجز عنه البشر.. ومحاولة التفسير الموضوعي لم تحظ لديهم بمثل ما

حظي عندهم.. وقوفهم عند حد الآيات.. والعناية بتراكيبها.. وارتباط اللاحق منها بالسابق.

□ والتفسير الموضوعي ليس تفسير جملة من الآيات.. ولا استخلاص الكتاب ككل.. من نظرة موضوعية شاملة.. أو استخلاص موضوع محدد.. كمنهج القرآن في تطوير المجتمع.. أو موقف القرآن من المادية.. أو استخلاص هدف السورة الواحدة.. وما عنيت بإبرازه في إطار الدعوة كلها.

□ وهدف القرآن الكريم جملة هو: مقاومة الشرك المادي.. أو الوثنية المادية.. ويظهر هذا الاتجاه بوضوح في السور والآيات المكية.. ومقاومة الوثنيات المادية فيما تظهر فيه من ظواهر.. أو فيما توجهه من اتهامات إلى القرآن الكريم.. وإلى الرسول ﷺ.. أو فيما تصف به الله عز وجل.. أو تتصوره من صفات له.. كوجود شركاء له.. أو وجود أولاد منه.. أو فيما تنكره دعوة القرآن.. كالبعث والجزاء الآخروي.

□ والهدف الثاني: هو تصحيح ما وقع من تحريف أهل الكتاب في رسالة الله السابقة.. وبالأخص من بني إسرائيل في التوراة والإنجيل معا.. وقد بلغ هذا التحريف قمته في الشرك بالله.. وتأليه الإنسان.. ويتكفل جزء كبير مما ورد في السور المدنية.. وبالأخص في سورتي آل عمران والمائدة.. بيان تحريف اليهود والنصارى.. وقد أشار القرآن الكريم إجمالا إلى هذا الجانب في قوله تعالى: ﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل «يهودا ونصارى» أكثر الذي هم فيه يختلفون.. وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين. إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم● فتوكل على الله إنك على الحق المبين﴾.

□ أما الهدف الثالث فهو: بناء المجتمع الإسلامي.. طبقا لتطوره.. بعد قيامه بيثرب.. على أساس التكافؤ في الاعتبار البشري.. والتكافل فيما

بين أفراد المؤمنين جميعا.. فيما يحقق بينهم العدل الاجتماعي.. بالبعد عن الإسراف في الاستمتاع بالمتع المادية المتاحة في محيط الناس.. وبالإتفاق الحر منها في سبيل الخير العام للأمة.. وهذا الجانب الثالث يروي من أنه: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام.. والمسجد الأقصى.. ومسجد الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة».. وهو حديث يربط هذه الجوانب الثلاثة لمضمون القرآن الكريم ككل.. بالمساجد الثلاثة على معنى.. أنه في شد الرحال إلى أي مسجد منها.. يتذكر المؤمن جانب الرسالة الذي ارتبط به.. ويتذكر بالتالي ما يجب عليه من المشاركة في تحقيقه.

□ إن الكون يسير على سنن قد سنت.. ونظم قد أحكمت.. وارتباط بين الأسباب والمسببات العادية لا يتخلف.. وإن تخلفت المسببات عن أسبابها.. ووجدت الأمور منفكة من علتها.. كالولد يولد من غير أب.. وكالحركة تجيء من جامد لا يتحرك كعصا.. ونار تنكفيء وقد أوقدت.. إذا كان ذلك الإنقطاع بين الأسباب العادية ومسبباتها.. حكم العقل بأن الذي فعل ذلك فوق الأسباب العادية ومسبباتها.. ولو ساير العقل منطقه إلى أقصى مداه.. وليس بعيدا في حكم المنطق العقلي المستقيم الذي يصل إلى المدى من أقرب.. فإنه لا بد واصل إلى أن الذي خرق العادات.. وخالف أسبابها ومسبباتها.. لا بد أن يكون خالقها وموجدها.. وإذا كان القصور العقلي لا يصل إلى هذه الغاية.. فإنه لا بد واصل إلى أن خرق هذه العادات لا بد أن يكون لغاية.. وإنه إذا وجدت هذه الغاية.. وبينت أهدافها وأنه يعلم من وراء ذلك الخالق الحكيم المسيطر على كل شيء.. الذي يفعل ما يريد.. ولا يقيده نظام خلقه.. ولا عادات أوجدها.

□ لذلك كان الأمر الخارق للعادة.. حجة الصدق لمن يدعي أنه يتكلم عن الخالق الحكيم الفعال لما يريد.. لأنه لا يغير العادات سواه.. وأن

الصادق يعلن دعواه.. ويقيم ذلك برهانا عليها. ويتحدى الناس أن يفعلوا مثلها.. ويسمى في هذه الحالة أنه معجزة.

□ وهناك بجوار المعجزة المادية.. معجزة هي شيء قائم بذاته ثابت.. ولكن الإعجاز فيه أمر لا يدرك بالحس.. ولكن يدرك بالدراسة والفحص.. وقد يدعى بعض من لا يسبر غوره.. ويعرف أمره.. أنه يستطيع أن يأتي بمثله.. وما هو بمستطيع.. وأنه في قدرته.. وليس بقادر عليه.. وهو من غرور النفس.. أو ادعاء القدرة.. أو اللجاجة في الافكار.. والمباهتة المناهضة للحقائق.

□ وإن ذلك يكون في المعجزة التي تكون من نوع الكلام.. وهي معجزة القرآن الكريم.. فقد كان الغرور يوهم بعض المخاطبين به.. أن عندهم القدرة على الإتيان بمثله.. فكان لا بد من كشف هذا الغرور.. وإزالة تلك الغشية الباطلة.. ليتبين وضح الحق.. ولذلك طالبهم الحق تبارك وتعالى بأن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين في مثل قوله تعالى: ﴿وإن كُنتُمْ في ريبٍ مـمَّا نَزَّلنَا على عبدِنَا فَأْتُوا بسورةٍ من مِثْلِهِ وادعُوا شُهَداءَكُم من دونِ اللهِ إن كُنتُم صَادقِينَ﴾.. (سورة البقرة آية ٢٣) ولذلك كانت معجزات الأنبياء السابقة حسية.. ومعجزة محمد ﷺ معنوية.. فقد كانت بيانا يتلى.. وذكرا حكيما.. يحفظ فيه بيان الشرائع المحكمة الخالدة.

□ وكل معجزات الأنبياء ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وغيرهم.. سواء كانت مادية.. أم كانت متضمنة معاني روحية.. كانت من النوع الذي يحس بالرؤية.. ويكون من بعدها التأمل.. وليس من النوع الذي يكون بالتأمل.. ولا يدرك إلا بالتأمل.. وإن كان قائما ثابتا في الوجود من غير ريب.. وكانت حوادث تقع ولا تبقى.. ولا يبقى فيها إلا الاخبار بها.. فلا يعرفها على اليقين إلا من شاهدها وعاينها.

□.. ولكن معجزة محمد ﷺ كانت من نوع آخر.. لم تكن حادثة تقع وتزول من غير بقاء لها إلا بالخبر.. بل كانت قائمة تخاطب الأجيال.. يراها ويقرؤها الناس في كل عصر.. ومناسبة لرسالة النبي ﷺ.. لعمومها في الأجيال.. ومكانته بين الرسل.. ومقامه في هذا الوجود.. الإنساني إلى يوم القيامة.

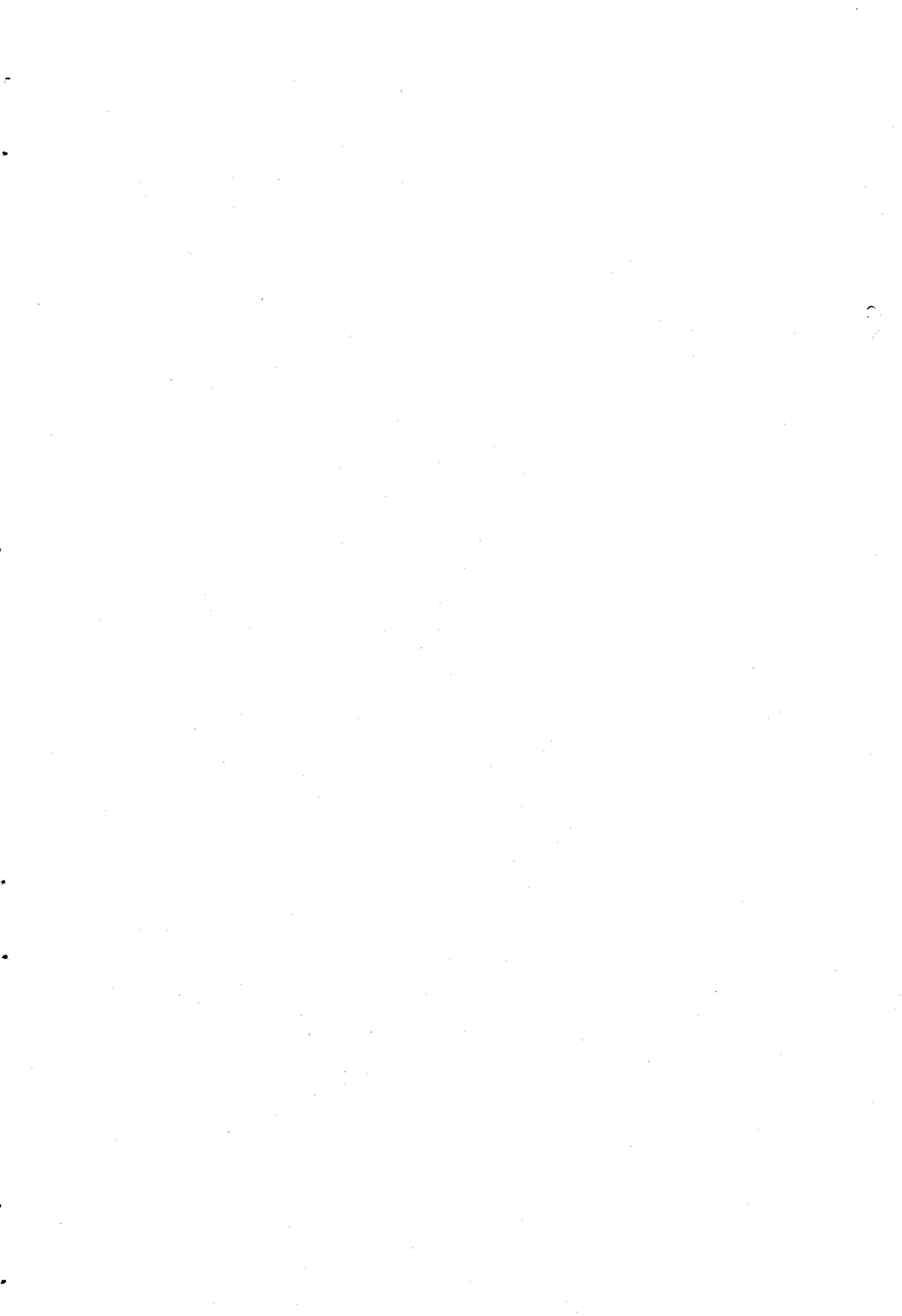
□ إن معجزات الأنبياء السابقين لا يعلم وقوعها على وجه اليقين إلا من القرآن الكريم.. فهو الذي سجل معجزات نوح وابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام.. ولولا أنه سجلها ما علمها الناس.. ومعجزة محمد ﷺ كانت القرآن الكريم.. لقد أجرى الله تعالى على يديه خوارق عادات أخرى.. ولكنه لم يتحد العرب إلا بالقرآن الكريم.. ولم ير المشركون صرحا شامخا يتحداهم به سوى القرآن الكريم.. وقد كانت معجزته ﷺ القرآن الكريم.. لأن رسالته خالدة.. ولأنه ﷺ خاتم النبيين.. ولا نبي بعده.. فيجب أن تكون معجزته مناسبة لهذه الرسالة الخالدة الباقية.. التي لا يحدها زمان في المستقبل.. بل تبقى إلى يوم القيامة.. ولا تكون معجزته واقعة تنقضي وتنتهي بانتهاء الزمن الذي وجدت فيه.. بل تبقى الحجة ما بقيت الشريعة.. وذلك محققة في القرآن الكريم.. فهو حجة قائمة على العرب والعجم إلى يوم الدين.. وهو معجز لكل الخلائق.

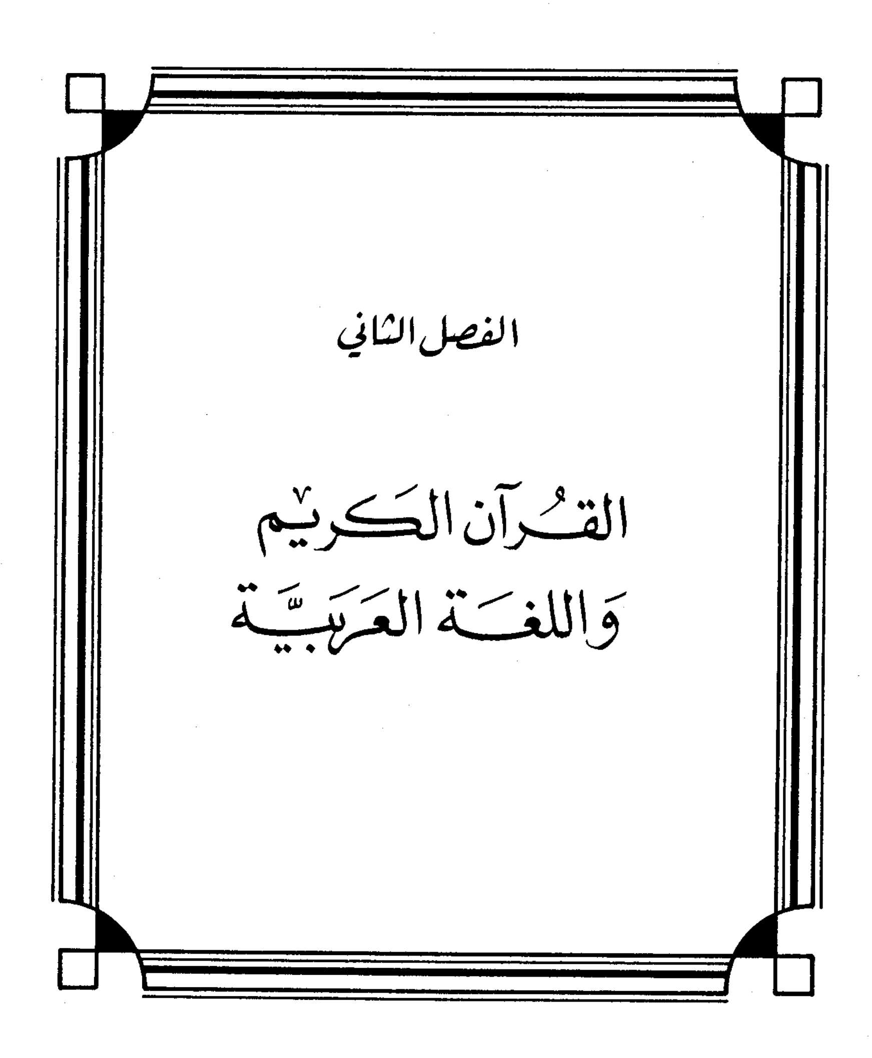
□ تلك المعجزة الخالدة هي القرآن الكريم الذي يتحدى الأجيال كلها أن يأتوا بمثله.. ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.. كما ذكر الله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل.. لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه.. وهو حجة الله على خلقه.. وحجة النبي ﷺ في رسالته.. وسجل الشريعة المحكم في بيانه.. وهو المرجع عند الاختلاف.. والحكم العدل عند الافتراق.. وهو الطريق المستقيم المرشد عند الاعوجاج.. من سلكه وصل.. ومن لجأ إليه

اهتدى.. وهو العصمة من الزيغ.. والمرجع المتبع.. وأنه يشتمل على شرائع الإسلام كلها.. وأنه بذلك هو الحكم بين الناس الذي لا يضل حكمه.. وأن من تركه من جبار قصم الله تعالى ظهره.. وأنه لا تتشعب الآراء في حقيقته إذا استقامت الأفهام.. ولم تضل المدارك.

□ والعلماء يجدون فيه المعين الذي لا ينضب.. والثروة الإسلامية التي لا تنفذ.. فيه حكم الأمور كلها.. ما وقع.. وما لم يقع.. وأن كل ما فيه حق.. وأنه مصلحة الدنيا والآخرة.. ما من خبر إلا له في القرآن الكريم أصل معتمد.. ونص يمكن الحمل عليه.. فما ترك الله سبحانه وتعالى الإنسان سدى.. وقد قال تعالى وقوله الحق: ﴿مَا فَرَّطْنَا في الكِتَابِ مِن شَيءٍ﴾ (سورة الأنعام آية ٣٨) وفيه عبر الماضين.. وأخبار كل النبيين.. فهو كتاب الله الكامل.. فيه كل الكتب المنزلة على الرسل.. وفيه أخبار أولئك الرسل مع أقوامهم.. وفيه الأمثلة المرشدة.. والعظات الموجهة.. وفيه أعلى الآداب الإنسانية.. وأقوم السلوك الكامل للناس أجمعين.. وفيه الإنسان الاتجاه الى الكون وتعرف ما فيه.. والأخذ بالعلم والدعوة إليه بكل ضروبه.. علم الإنسان.. وعلم النفس.. وعلم الكون.. وإلى العلم بالنجوم في مسالكها.. والسموات في أفلاكها.. والأرض في طبقاتها.. فيه الدعوة إلى العلم بما لم يعلم.. خاطب الله به أولياءه فعرفوه.. وأصحاب العقول المستقيمة فأدركوه.. وكان حقا كما قال تعالى: ﴿ولو أنَّ قُرْءَاناً سُيِّرت بِهِ الجِبَالُ أو قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أو كُلِّمَ به المَوْتَىٰ بل للهِ الأمرُ جَمِيعاً﴾.. (سورة الرعد آية ٣١).

□ ذلك هو كتاب الله تعالى بما حمل من معان وتكليف.. وما كساه الله تعالى به من روعة وتشريف.. وهو كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿اللهُ نَزَّلَ أحسَنَ الحديثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانَى تَقْشَعِرُّ مِنهُ جُلودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُم تَلِينُ جُلودُهُمْ وقُلوبُهُمْ إلى ذِكرِ اللهِ﴾. (سورة الزمر آية ٢٣).





الفصل الثاني

القُرآن الكَريم وَاللغَـة العَرَبيَّـة

□ لقد تأكد أن القرآن الكريم هو الوجود كله.. لأنه نـزل عظيما على ذي خلق عظيم.. فكان معجزة الرسالة.. ومطلع الهداية.. بلغة بشرية مفهومة.. اصطفاها الحق جلا وعلا.. ليبلغ بها كلامه إلى الناس جميعا ما دامت السماوات والأرض.

□ فما السر الذي جعل كتاب الله الخالد يرفع لواء هذه اللغة دون غيرها من اللغات.. فارتفع به شأنها.. وعاشت بفضل خلوده؟ ولولاه لأصبحت صورة محفوظة في التاريخ.. لا صورة مخفقة في وجوده».

□ والملاحظ أن اللغة العربية أصوات منطوقة يعبر بها أناس عن أغراضهم.. وما صارت هذه الأصوات متداولة معروفة إلا بعد أن اتفق عليها المتعاملون بها.. وهي قبل ذلك جزئيات متعددة متناثرة انتظم بعضها فكون الوحدة الصوتية.. ثم الكلمة من مجموعة وحدات.. ثم الجملة من مجموعة كلمات مرتبة في سياق منظم.

□ والفضل في خلق الأصوات ونطقها يرجع الى الجهاز الصوتي الذي أنيطت به هذه المهمة.. بعد إدراك الجهاز العصبي لماهيـة هذه الأصوات.. واستجابته لمؤثرات خارجية أو داخلية.. ولكل حرف من حروف اللغة مكان في الجهاز الصوتي.. فيه يتفاعل مع الأوتار الصوتية.. فيخرج صوتاً ذا نغمة موسيقية مميزة بواسطة الرئتين والحنجرة وتجويف الفم والأنف.. وهذا شيء عام بين لغات العالم.. إلا أن اللغة العربية تفردت بين اللغات بشيوع خاصية الإعراب فيها.. الذي صار أثرا من آثار استخدام الحركة في التعبير عن المعنى.

□ وقد صار لهذه الخاصية قواعد مقررة تشمل الحروف والأفعال والأسماء حيثما وقعت معانيها من الجمل والإعراب.

□ والحركات والعلامات الإعرابية في اللغة العربية.. تجري مجرى الأصوات الموسيقية.. وتستقر في مواضعها المقدرة على حسب الحركة والسكون في مقاييس النغم والإيقاع.

□ فاللغة العربية.. لمقوماتها الإعرابية المستخدمة في التعبير عن المعاني.. وفتحها باب اشتقاق الألفاظ.. وتوالدها من اللفظ الواحد بتقديم أو تأخير.. وزيادة أو حذف.. أو بتغيير حركات الحروف.. كما نرى.. إذ أن كل لفظ تتوالد منه مجموعة من الألفاظ مثل «ركب» يتوالد منه: «كبر».. «بكر».. «كرب».. «برك».. وكل لفظ يفيد معنى يختلف عن معنى اللفظ الآخر.. وشيوع كثير من الألفاظ التي تدل على أكثر من معنى حسب موقعها في العبارة.. كلفظ «الجوْن» الذي يعني الأبيض ويعني الأسود.. ولفظ «العين» الذي يعني الحاسة الباصرة.. ويعنى مخرج ماء البحر.. كما يعني الرقيب المتجسس.. وما بهذه اللغة من إيقاع نغمي جميل.. وجرس موسيقي أخاذ.

□ بفعل هذه المقومات نالت اللغة العربية هذا الشرف الذي توجها الله به حين اصطفاها لكتابه العزيز.. فحق أن تعنو بها له الجباه «إنا أنزلناه قرآنا عربيا».. «لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين» ولله در الجارم رحمه الله حين قال:

نزل القرآن بالضاد فلو ... لم يكن فيها سواه لكفاها
حسبها أن صورت من آية ... معجزات عظمت أن تتناهى

□ وقد عاشت اللغة العربية بالقرآن الكريم.. فملأت الدنيا بأسرار حروفها.. وظلال كلماتها.. وخوافي جملها وتراكيبها.. لاعتماد الدين القيم عليها في شرح أهدافه.. وتبين أحكامه.. وتجلية معانيه وأغراضه.. وعاش لها وبالله القرآن.. فشغل الناس.. وبهر عقول البشر.. بما أحدث في النفس من خشوع.. وفي الوجدان من تأثير.. لين القلوب..

وهذب الطباع.. بألفاظ غزيرة المعنى.. رزينة المنطق.. هي أشبه شيء بالدرر المنظمة في السلك.. وأسلوب رقيق دقيق هو كالماء سلاسة.. والنسيم لطفا.

□ وحقيقة اللغة العربية لا تتجلى بما يقرأ في الكتب والصحف والمجلات.. بل بتراقص حروفها نشوانة على ألسنة أبنائها.. وانسياب ألفاظها من أفواههم.. وحرصهم على أصالة هذه الألفاظ.. معتقدين أن أصالة لغتهم.. هي النبع الأصيل لأصالتهم.. وهي سبب نهضتهم.. وعلو شأنهم.. ورفعة مكانتهم.. وما كان ذلك فيهم إلا لأن هذه اللغة قد مازجت أفكارهم وعواطفهم وآمالهم.. فإذا بدا منهم ما يفكك عري هذا التمازج.. نأت عنها أفكارهم.. وخمدت نحوها عواطفهم وهانت بها آمالهم.. وما يلبثون أن يتحولوا عنها لغيرها.. وإذا حدث ذلك فشا اللحن بينهم.. وظهر الانحطاط فيهم.. وبان الذل عليهم.. وصاروا عبيدا للأجنبي الذي تحولوا للغته.

□ وأعجب اليوم لأبناء العربية.. وتلاميذ القرآن.. فهم رغم انتسابهم لأب واحد.. وأم واحدة.. تناسوا هذا الانتساب.. وكأنه شيء طارىء عليهم.

□ وإذا كان الأمر كذلك.. فكيف للقرآن أن يأخذ طريقه إلى الألسنة فيهذبها.. ويسلك سبيله إلى القلوب فيأسرها.. ويودع النور فيها.. لتشرق بالحق من جديد.. ويقوي الحق بها.. وتدبج بأشعة الوحي الإلهي الممثل للحقيقة الإلهية في بلاغة الفن البياني.. وقوة النسج اللغوي.. وجزالة الأسلوب العلمي.. وفخامة التركيب التناسقي العجيب في الآيات والسور.

□ ولا ننكر أن في اللغة العربية لهجات كثيرة متباينة.. منها ما يمجه السمع.. ويستثقله اللسان.. وينفر منه الطبع.. ومنها ما يستساغ في

السمع وقعه.. ويخف على اللسان نطقه.. فتهواه النفوس.. وتعشقه القلوب.. وكل ما في القرآن الكريم من هذا تشد أوتار الأذان إليه شدا.. ويسيل لعاب الفم لحلاوته.. وتتيقظ القلوب خاشعة لبلاغته.. وما أدل على ذلك من قول الوليد بن المغيرة حينما سمع آيات من القرآن بصوت أفصح العرب وأبلغهم محمد ﷺ فقال: «والله لقد سمعت كلاما.. وإن له لحلاوة.. وإن عليه لطلاوة.. وإن أعلاه لمثمر.. وإن أسفله لمغدق.. وما هو بقول بشر».

□ لقد اختار الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم من بين اللهجات العربية.. اللهجة السهلة الممتنعة الواضحة العذبة.. نقاها من كل وحش غريب.. حتى جاء كتابه العزيز موسوعة لغوية لكل ما عذب لفظه.. ووضح معناه.. وخف وقعه.. وأحكم نسجه.. ولطف أداؤه.. وسهل مخرجه من الجهاز الصوتي.. فتحولت اللهجات إلى لهجته.. واعتادتها الألسنة.. وما عاد يستعصى على أحد فهمها إذ ليس فيها هجيني.. وسار القرآن الكريم بهذه اللهجة.. منتزعا إياها من أحضان الصحراء.. محلقا بها في أجواء فسيحة ما كانت تحلم برؤيتها.. والهيمنة عليها.. وانتزاع السلطة من لغات متعددة.. نمت في أحضان الحضارة وترعرعت بين سمع المدينة وبصرها.. لولا حبيبها القرآن الكريم.. النور الذي أضاء فدمغ الظلام الدامس المخيم على العقول.. والذي انتهى إليه كل قانون.. وبه اكتمل كل تشريع.. وفيه أودعت عزة الدنيا.. وسعادة الآخرة.. لأنه كنز دائم العطاء لا ينضب.. يعطي لكل رائد ما يناسبه:

كلام مدى الأيام لا يتبدل ونور من الله العظـــيم منزل
نظام وقانون وسيف ودولة سلام وتأديب وهدى مفصل
علم وتثقيف وفضل وحكمة وعـدل وتشريـع وقول مرتـل

□ وهذا يقتضي إحكام القرآن منطقا وإعرابا.. بحيث يكون الإخلال

بمخرج الحرف الواحد منه.. كالزيغ بالكلمة عن وجهها.. والجملة عن مؤداها.. وبحيث يستوي فيه اللحن الخفي.. واللحن الظاهر.

□ واللغة العربية إذا ضعفت فيها الجملة القرآنيـة.. اختلت هندستها النحوية.. وماج بعضها في بعض.. وهي لا تعاني اليوم إلا من نقص الرجال المقبلين على القرآن الكريم.. العاملين به.. العارفين كيف يتأتى عملهم إلى الإحسان والإجادة.. وكيف يكون عملهم عملا.. لأنها عاشت به.. ولا تعيش إلا به.. ولولاه لحكم على ماضيها بالنسيان.. وحاضرها بالإعدام.. ولهذا تبادلت اللغة العربية الحب مع القرآن الكريم.. حتى ملك جوارح كل منهما.. وتتجلى عظمة الحب في أن اللغة العربية لا تقوى على مفارقة القرآن.. ولا القرآن على مفارقة اللغة العربية.. فيتعاهدان عهدا يضم بين جنباته كمال الحب وغايته.. وشأو المودة ورفعتها.. وتلتحم شخصية الإثنين معا التحاما عجيبا.. يجعل العربية تحب كل مقبل على القرآن الكريم.. فتمده بلسان الفصاحة.. ويراع البلاغة.. بطاقة روحية.. حتى إذا تحول المحب للقرآن.. بفعل حبه الصادق العميق.. إلى قرآن يمشي بين الناس.. امتزجت العربية في دمه امتزاجا يومىء إلى العقل فيوسعه بمصطلحاته.. ويطرق باب القلب فيفتحه لعلومها.. ويشير إلى اللسان فتشرق فيه الألفاظ البليغة.

القرآن الكريم
واللهجات العربية

□ القول باختلاف اللهجات العربية من مسلمات الدراسات اللغوية القديمة والحديثة على حد سواء.. ولا نعرف من علمائنا من ارتاب في ذلك.. وقد أوردت المصادر اللغوية صورا متعددة لاختلاف اللهجات العربية.. وقد انتهى العلماء إلى وجود فوارق بين تلك اللهجات سواء القدامى منهم أو المحدثون.. ولكنه خلاف محدود لا يرقى إلى أن يجعل

من أية واحدة لهجتين لغتين متباينتين بحيث لا يمكن التفاهم حتى بين القبائل المتباعدة في السكن والجوار.. إلا أن هذا الخلاف اليسير كان كافيا على يسره لأن ينمو ويتسع على مرور الأعوام حتى يحول كل لهجة إلى لغة قائمة بذاتها.. كما وقع للهجات اللغة اللاتينية.. حين تحولت إلى الفرنسية والإيطالية والإسبانية.. وهنا يظهر الأثر العظيم الذي أحدثه القرآن في حفظ لغة العرب.. وتوحيد لهجاتها.

□ لقد تناول العلماء لغة العرب بلهجاتها المختلفة بشيء كثير من الحيطة والتثبت لصلتها بالقرآن الكريم.. وكأن هذه اللغة دين ينبغي أن يعرفوا من أين يأخذونه.. فلقد كان السماع من العرب هو الأساس الأول الذي اعتمدوا عليه في جمع اللغة وتدوينها.. ولذلك وجدناهم يتحرجون كثيرا في أخذ اللغة حتى قال قائلهم: « فليتحر آخِذُ اللغة وغيرها من العلوم أهل الزمان والثقة والصدق والعدالة ».. واستطاعوا بتثبتهم هذا.. وتحرِّيهم الدقة والأمانة أن يدونوا لغة العرب كما هي إلى حد كبير.. بعد أن ألزموا أنفسهم بمبدأ اجتهدوا في ألا يحيدوا عنه.. وهو تعيين العرب الذين تـؤخذ منهم اللغة في زمانهم.. دفعهم إلى ذلك حرصهم على أن يأخذوا لغة العرب من القبائل التي لم يكثر اختلاطها بغير العرب.. إذ الراجح أنها أقرب إلى الصفاء من تلك التي اختلطت بغيرهم.. ولذلك لغـو على أنه: « لم يؤخذ من حضري قط ».. وقصروا الأخذ على قبائل بعينها.. ونقل عن أبي نصر الفارابي قوله: « والذين نقلت عنهم اللغة العربية.. وبهم اقتدى..وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس.. وتميم.. وأسد.. فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه.. وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب وفي التصريف.. ثم هذيل.. وبعض كنانة.. وبعض الطائيين.. ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم ».

□ هذه القبائل التي سميت لو نظر إلى مواقعها.. لوجدت جميعا من

القبائل الضاربة في الصحراء.. أما القبائل القريبة من مواقع الاختلاط فلم تـؤخذ منها اللغة.. وبالجملة فإنه لم يؤخذ من حضري قط.. ولا عن سكان البراري.. ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم.. فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط.. ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام.. وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية.. ولا من تغلب والنمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس.. ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهنـد والفرس.. ولا من أهل اليمن لمخالطتهم الهند والحبشة.. ولا من بن حنيفة.. وسكان اليمامة.. ولا من ثقيف.. وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم.. ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم.. حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب.. قد خالطوا غيرهم من الأمم.. وفسدت ألسنتهم.

□ وإذا كان العلماء قد ألزموا أنفسهم أن لا يأخذوا من حضري قط.. بل هم لم يأخذوا من حاضرة الحجاز.. فكيف نفسر موقفهم من لغة قريش الذين ما كانوا من البداوة في شيء.. بل كانوا قد اختلطوا بعرب الشام واليمن الذين اختلطوا بالروم والفرس والأحباش والهند قبل الإسلام.. وذكر القرآن الكريم علاقة قريش باليمن والشام في اشارته إلى رحلة الشتاء والصيف.. «لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف».. قال الزمخشري: «وكانت لقريش رحلتان.. يرحلون في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام.. فيمتارون ويتجرون.. وكانوا في رحلتهم آمنين لأنهم أهل حرم الله.. وولاة بيته.. فلا يتعرض لهم.. والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم».

□ لقد اتجه العلماء إلى دراسة اللغة العربية وتدوينها.. وحفظ قواعدها.. كي تصان لغة القرآن من اللحن والخطأ والزلل الذي قد

يفضي إلى اختلاف المعنى.. وقد نزل القرآن الكريم باللغة التي كان القرشيون يألفونها في أعلى ألسنتهم فصاحة وبيانا.. وقد قرأ رجل بين يدي عمر رضي الله عنه: عني حين.. وهي لهجة هذيل في حين.. فسأله من أقرأك هذا.. قال ابن مسعود فبعث إليه برسالة جاء فيها: «إن الله عز وجل قد أنزل هذا القرآن فجعله عربيا.. فأنزله بلغة قريش.. فأقرىء الناس بلغة قريش.. ولا تقرئهم بلغة هذيل والسلام» وقد يطلق عليها العلماء كلمة لغة الحجاز.. وهم يريدون لغة قريش على ما ورد في رسالة عمر إلى ابن مسعود رضي الله عنهما.. قال ابن جني: «وأعلى اللغتين الحجازية.. وبها أنزل القرآن».. وقال: «فالوجه أن تحمله على ما كثر استعماله.. وهو اللغة الحجازية.. ألا ترى أن القرآن بها نزل».

□ فلما كان القرآن قد نزل بلغة قريش.. وعلوم العربية قد اتجهت لخدمته.. كان من الطبيعي أن يأخذ علماء العربية لغة قريش أولا.. وقبل غيرهم من القبائل.. ويمكن أن يقال إن العلماء قد أخذوا لغة قريش.. ثم لما وجدوا بأنفسهم حاجة إلى أن يرفدوا هذه اللغة الفصيحة.. بروافد من اللهجات العربية التي كانت في زمانهم.. وضعوا شرط البداوة ليحافظوا على فصاحة اللغة ونقائها.. وعلى هذا فقد أخذت اللغة من قريش من غير نظر إلى بداوة أو حضارة.. ومن بقية العرب بالنظر إلى بداوة القبيلة أو حضارتها.

□ إن لغة قريش كانت هي اللغة الفصحى قبل الإسلام عند العرب على اختلاف قبائلهم.. أي اللغة الأكثر بيانا ووضوحا.. يفهمها العربي من اليمن.. كما يفهمها العربي من نجد.. وقد نظم الشعراء قصائدهم بهذه اللغة الأدبية المثالية عندهم.. ليذيع شعرهم.. وينتشر في القبائل.. ولو نظم بلهجة قبيلته لما جاوزها شعره.. ولم يكن الشاعر ليتخلص من ألفاظ لهجته وعباراتها كلها وهو ينظم بهذه اللغة.. فكانت قريش مع

فصاحتها.. وحسن لغاتها.. ورقة ألسنتها.. إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم.. وأصفي كلامهم.. فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها.. فصاروا بذلك أفصح العرب.

□ وهذه الوفود التي ذكرها ابن فارس هي وفود الحجاج والتجار التي كانت تقدم إلى مكة المكرمة في الجاهلية معها شعراؤها وخطباؤها.. فقد بنى أبو الأنبياء إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام المسجد الحرام ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾.. وقد كان هـذا البيت أول مسجد بني على وجه الأرض.. ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين﴾.. فكانت له قدسيته البالغة.. وأمر المؤمنون أن يتوجهوا إليه بالحج.. ﴿وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود.. وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾.

□ فتوجه العرب نحو البيت.. وكان يفد من كل قبيلة عدد فيختلط هؤلاء بقريش.. ويسمعون منهم لغتهم.. فيتأثرون بها.. وتنتقل لغة قريش إلى القبائل الأخرة.. بمقدار ما علق منها بذهن الحاج.. وهكذا بمرور الزمن كانت لغة قريش قد أخذت مكانها في سمع القبائل.. وألسنة أبنائها.. فلم تعد لغة غريبة عليهم.. وبقي العرب يتوجهون إلى هذا البيت بالتقديس ويحجون إليه.. حتى بعد أن تحول معه مسجد لعبادة الله إلى موضع للأصنام.. فلم تنقطع عنه وفود العرب.. ومعنى ذلك أنهم لم ينقطعوا عن الاختلاط بقريش.. والأخذ منها.. والتعرف على لهجتها.. وكانت قريش خلال ذلك تتخير من كلام العرب الوافدين إليها أرقه وأعذبه وأصفاه.. فاجتمع كل ذلك لها.. ولم يجتمع لغيرها كما

ذكر ابن فارس.. فأخذت منه الوفود بمقدار.. فشاعت لغة قريش في القبائل.

□ وكما أقبلت الوفود إلى قريش للحج.. أقبلت للتجارة.. فمما زاد في عدد الوافدين.. إن لم يكن لذلك فلهذه.. وكان على هذه الوفود أن تتحدث بلغة قريش كي يتم التفاهم بينهم على أحسن وجه.. وهو أمر لا بد منه لاختلاف لهجاتهم.. فكانت لغة قريش لغة التجارة أيضا بين العرب في تلك الأسواق المنعقدة في موسم الحج.. يضاف إلى ذلك أن الشعراء قد كتبوا شعرهم بلغة قريش.. وأذاعوه على الناس.. فحفظ من حفظ وشاع في القبائل بأنس أبنائها به.. وتناقلهم إياه.. وترديده في مجالسهم.. فشاعت بشيوعه لغة قريش.. وهكذا قدر لهذه اللغة أن تعم جزيرة العرب.. وأن تسود اللسان الادبي لهم قبيل الإسلام.. وكأنه كان قدر الله سبحانه وتعالى ليمهد السبيل إلى نزول كتابه بلغة لا يجهلها من العرب أحد.. ولا يرى فيها عربي أية غرابة.

□ جاء الإسلام فوجد لغة أدبية قد جمعت العرب على اختلاف قبائلهم ولهجاتهم.. وقد كانت هذه اللغة لغة قريش.. مع ما دخلها من الألفاظ من لهجات القبائل الأخرى.. وشاء الله سبحانه وتعالى أن ينزل كتابه الكريم بهذه اللغة.. فقوى اتجاه العرب نحوها.. وبدخول العرب في الإسلام تباعا.. أخذوا يهجرون لغاتهم ببطء متحولين إلى لغة القرآن الكريم.. التي لم تكن خالية من ألفاظ يمكن أن ترد إلى هذه القبيلة أو تلك.

□ وهكذا تمكن القرآن الكريم بمرور الزمن من أن يوحد العرب على لغة واحدة في الأدب شعره ونثره.. ولكي يعينهم على ذلك كانت الرخصة بقراءة القرآن على سبعة أحرف.. كي لا يجبر العربي على ما لا يستطيعه في النطق بصورة مفاجئة.. فقد ورد في الحديث: «أنزل

القرآن على سبعة أحرف » وأنه يشمل اختلاف اللهجات.. وتباين مستويات الأداء.. الناشئة عن اختلاف الألسن.. وتفاوت التعليم.. وكذلك ما يشمل اختلاف بعض الألفاظ.. وترتيب الجمل بما لا يتغير به المعنى المراد.. ومع مرور الزمن.. وشيوع حفظ القرآن.. وقراءته في القبائل.. لم تعد بهم حاجة الى تلك الرخصة.. فألغيت بفضل عثمان رضي الله عنه حين جمع القرآن الكريم.. وكتب المصاحف فجمع بذلك الناس على حرف واحد.. دون ما عداه من الأحرف الستة:

□ لقد اجتهد العلماء وهم يضعون قواعد العربية.. أن يكون اعتمادهم على لغة القرآن الكريم.. ولكنهم مع ذلك أفادوا من اللهجات العربية.. ولا سيما ما ورد فيها في الشعر.. أو في القراءات القرآنية.. فكانت اللهجة إذا وافقت لغة القرآن لم يشيروا إليها.. وإن خالفتها ذكروا ذلك.. ونصوا على قوة الشاهد أو ضعفه.

□ ولم يكن اختلاف اللهجات قاصرا على المسائل النحوية.. بل إننا نجد فيها خلافا صوتيا في بنية الكلمة.. وأمثلة ذلك أكثر وأغزر من أمثلة الخلاف النحوي.. وقد ظهر أثر هذه اللهجات المختلفة في بعض القراءات القرآنية.. فقد جعل العلماء في القراءات الشاذة مثلا قراءة بعض قبائل العرب « فخسفنا بهُ وبدارهُ الأرض.. بضم الهاء من به.. وبداره.. وقراءة « رُبيون » بضم الراء.. وقراءات أخرى نجدها مثبوتة في كتاب المحتسب في تبين وجود القراءات لابن جني.

□ إن الاختلاف بين اللهجات العربية لم يكن لينحسر عن شاطىء العربية الفصيحة الموحدة.. لولا نزول القرآن الكريم بها.. وانصراف همة العلماء إلى خدمته.. وهمة الأدباء إلى النهل من معينه شعراء وثائرين.. مما كان له أكبر الأثر في جمع العرب على لغة واحدة.. ليكونوا أمة واحدة.. لا تفرق بينهم اللهجات إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

أثر القرآن الكريم
في البلاغة العربية

□ كان للقرآن الكريم.. معجزة محمد ﷺ الكبرى.. وكتاب العربية الخالد.. أعظم الأثر في علوم اللغة العربية.. فقد صدرت عنه.. واستقت من معينه.. ووقفت تكشف أسراره.. وتعنى بأساليبه.. وتفسر إعجازه وتشرح ألفاظه.. وتظهر معانيه.. وكانت البلاغة أحد تلك العلوم التي نشأت في كتاب الله.. وتفيأت بظلاله منذ أن بدأت تدرج في ميدان الحياة.

□ لقد كان القرآن الكريم معجزة كبرى تحدت العالمين.. ووقف العرب عند نزوله مبهورين.. وهم أصحاب لسن وبلاغة.. ولم يجدوا ما يدفعون به عند أنفسهم إلا أن يقولوا كما روى الكتاب عنه إن هذا إلا سحر مفتري.. وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين».. وأخذوا يفرون من سماعه.. خوفا من أن يؤثر في نفوسهم.. ويهديهم إلى سواء السبيل.. كما هدى من قبل طليعة المسلمين.. وصاروا يحولون دون الاستماع إليه لئلا تلين القلوب.. وفي سيرة ابن هشام أن الطفيل بن عمرو الدوسي قدم مكة المكرمة ورسول الله ﷺ بها.. فمشى إليه رجال قريش.. وكان الطفيل رجلا شريفا شاعرا لبيبا.. فقالوا له:« يا طفيل إنك قدمت بلادنا.. وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا.. وقد فرق جماعتنا.. وشتت أمرنا.. وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين زوجه.. وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا.. فلا تكلمنه ولا تسمع منه شيئا».. قال: «فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت على أن لا أسمع منه شيئا.. ولا أكلمه.. حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد قطنا.. فرقاً من أن يبلغني شيء من قوله.. وأنا لا أريد أن أسمعه.. فغدوت إلى المسجد.. فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند

الكعبة.. فقمت منه قريبا.. فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله.. فسمعت كلاما حسنا.. فقلت في نفسي وا ثكل أمي.. والله إني لرجل شاعر ما يخفي على الحسن من القبيح.. فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول.. فإن كان الذي يأتي حسنا قبلته.. وإن كان قبيحا تركته ».

□ ومكث الطفيل حتى انصرف الرسول ﷺ إلى بيته.. فأتبعه حتى إذا دخل بيته.. دخل عليه وقال: « يا محمد.. إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا.. فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بقطن.. لئلا أسمع قولك.. ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك.. فسمعته قولا حسنا.. فأعرض على أمرك ».

□ وعرض الرسول ﷺ الإسلام عليه.. وتلا القرآن فأسلم.. قال: « فلا والله.. ما سمعت قولا قط أحسن منه.. ولا أمر أعدل منه.. فأسلمت.. وشهدت شهادة الحق ».

□ وشاء الله سبحانه وتعالى أن يهتدي العرب برسالة السماء.. ويرفعوا القرآن دستورا في الآفاق.. ويتخذوه نبراسا يضيء لهم الطريق في دنياهم وآخرتهم.. وأن يكون القرآن الكريم مرجع المسلمين.. ومدار دراساتهم اللغوية.. والنحوية والفقهية والعلمية والأدبية.. وغير ذلك من شؤون الحياة.. وكان تأثيره واضحا في البلاغة العربية.. ويتجلى ذلك في أمور كثيرة.. غير أن من أهمها أمرين تدل فيهما كثير من المسائل والقضايا.. والأمران هما.. الدافع والشاهد.

الدافع

□ فلقد كان القرآن الكريم دافعا إلى التأليف في البلاغة والكلام على فنونها المختلفة.. وكانت إحدى آياته مدعاة إلى أن يؤلف ابو عبيدة كتابه « مجاز القرآن ».

□ لقد اتجه أبو عبيدة وغيره إلى خدمة القرآن الكريم.. وظهرت دراسات كثيرة من أهمها الدراسات البلاغية التي اتجهت إلى إعجاز القرآن.. وتفسير آياته.. وإيضاح أساليبه.. وكشف فنونه البلاغية.. ولقد كان الهدف الأول من التأليف في البلاغة عرضا دينيا أوضحه أبو هلال العسكري بقوله: «اعلم.. علمك الله الخير.. ودلك عليه.. وقيضه لك.. وجعلك من أهله.. أن أحق العلوم بالتعلم.. وأولاها بالحفظ بعد المعرفة بالله.. جل ثناؤه.. علم البلاغة.. ومعرفة الفصاحة.. الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحق.. الهادي إلى سبيل الرشد.. المدلول به على صدق الرسالة.. وصحة النبوة التي رفعت أعلام الحق.. وأقامت منار الدين.. وأزالت شبه الكفر ببراهينها.. وهتكت حجب الشك بيقينها.. وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم العربية.. وأخل بمعرفة الفصاحة.. لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف.. وبراعة التراكيب.. وما شحنه من الإيجاز البديع.. والاختصار اللطيف.. وضمنه من الحلاوة.. وجلله من رونق الطلاوة.. مع سهولة الكلمة وجزالتها.. وعذوبتها وسلاستها.. إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها.. وتحيرت عقولهم فيها.. وإنما يعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه.. وقصورهم عن بلوغ غايته في حسنه.. وبراعته.. وسلاسته.. ونصاعته.. وكمال معانيه.. وصفاء ألفاظه.. وقبيح لعمري بالفقيه المؤتم به.. والقارىء المهتدى بهديه.. والمتكلم المشار إليه في حسن مناظرته.. وتمام آلهته في مجالته.. وشدة شكيمته في حجاجه.. وبالعربي الصليب.. والقرشي الصريح.. أن لا يعرف إعجاز كتاب الله تعالى.. إلا من الجهة التي يعرفه منها الزنجي والنبطي.. أو أن يستدل عليه.. بما استدل به الجاهل الغبي.. فينبغي من هذه الجهة أن يقدم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله تعالى.. ومعرفة عدله.. والتصديق بوعده ووعيده.. إذ كانت

المعرفة بصحة النبوة.. تتلوا لمعرفة بالله جل اسمه».

□ إن قضية إعجاز كتاب الله كانت من القضايا الأولى التي شغلت بال المسلمين.. وقد دفعهم ذلك إلى الخوض في دراسة البلاغة ليستطيعوا الوصول الى فهم أسرار الإعجاز.. وظهرت آراء كثيرة.. غير أن ما يتصل بأسلوبه وروعته في هذه المسألة كتاب: «إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه» لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي.. ورسالة: «النكت في إعجاز القرآن» لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي.. وكتاب: «إعجاز القرآن» لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني.. والجزء السادس عشر من كتاب: «المغني في أبواب التوحيد والعدل» لأبي الحسن عبد الجبار الأسد آبادي وكتاب: !«معترك الأقران». للسيوطي.

□ وكانت هذه الكتب والرسائل كتبا بلاغية.. إلى جانب ما فيها من دراسات تتصل بالعقيدة والتوحيد.. وقد انتهى ابن خلدون إلى أن ثمرة علم البلاغة: «إنما هي فهم الإعجاز من القرآن.. لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة.. وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها.. وجودة رصفها.. وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه».

□ ولم يقف الأمر عند الإعجاز.. وإنما خاض المفسرون غمار البحث في البلاغة ليصلوا إلى فهم كتاب الله.. وإدراك معانيه.. وأصبحت كتب البلاغة سبيلا تفضي إلى رجاء القرآن الكريم.. ومعالم لم يهتدى بها الدارسون.. ويستعين بما فيها من ومضات مشرقة.. ولمعات بديعة المفسرون.. ومن هنا كانت البلاغة مقدمة لدراسة كتاب الله وتفسيره.. وإدراك فصاحته وبلاغته.. وصار الشيوخ لا يقدمون على تدريس كتب التفسير إلا بعد أن يلم طلابهم بطرف من البلاغة وفنونها.

□ وصارت كتب التفسير كلها تخدم هذه الفكرة.. ولعل أهم تفسير

عني بهذا الجانب « الكشاف » للزمخشري الذي نثر في تفسيره مسائل البلاغة.. واستعان بها في تفسير القرآن الكريم.. وهو حينما يفسر الآيات يطبق أصول البلاغة عليها.. وينبه الى ما فيها من أسرار الفصاحة والبلاغة ولذلك قال ابن خلدون عنه: « وهو كله مبني على هذا الفن.. وهو أصله ».. ومن هنا كان دارس « الكشاف » محتاجا إلى ثقافة بلاغية واسعة.. وقد شعر القدماء بذلك.. فكانوا إذا أقدموا على دراسته.. تزودوا بتلك الثقافة.. ووضعوا الكتب لتعلمها وإتقانها.

□ وكان لكتب علوم القرآن أثر في العناية بالبلاغة ودراستها.. وقد اتخذها المؤلفون وسيلة لفهم القرآن الكريم.. ومعرفة أساليبه وأهدافه.. وكانت البلاغة أحد تلك العلوم التي يحتاج إليها الدارس.. ومن أشهر الذين عنوا بهذا الجانب بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي في كتابه « البرهان في علوم القرآن ».. وجلال الدين السيوطي في كتابه « الإتقان في علوم القرآن ».. ويمثل هذان الكتابان جانبا كبيرا من جوانب تلك العناية التي أثمرت مؤلفات كثيرة عالجت البلاغة.. من أجل الوصول إلى إعجاز القرآن الكريم.. وإدراك أسراره.

□ وأدت العناية بأسلوب القرآن الكريم إلى ظهور دراسات كثيرة.. ولعل من أقدمها « مجاز القرآن » لأبي عبيدة.. و« تأويل مشكل القرآن » لابن قتيبة.. و« تلخيص البيان في مجازات القرآن » للشريف الرضي.. و« دلائل الإعجاز » لعبد القاهر الجرجاني.. و« نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز » لفخر الدين الرازي.. و« التبيان المطلع على إعجاز القرآن ».. و« البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن » لكمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم المعروف بابن الزمككاني و« الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز » لعز الدين عبد العزيز بن عبد السلام.. و« الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز » ليحيى بن حمزة العلوي.. و« الفوائد المشوق إلى علوم القرآن » لابن قيم الجوزية.

□ وظل القرآن الكريم يرفد البلاغة العربية.. ويدفع إلى التأليف فيها.. وكانت مئات الكتب التي ظهرت استجابة لخدمة كتاب الله تعالى.. ولا يكاد يخلو كتاب من الإشارة إلى هذا الدافع.. وهو دافع ديني إلى جوانب الدوافع الأخرى الكثيرة والمتعددة.

الشاهد

□ الأمر الثاني وهو الشاهد.. الذي كان المثل الأعلى في كتب علوم اللغة العربية.. وهو على رأس شواهد البلاغة التي كانت استجابة للحياة الفكرية التي استظل بها العرب والمسلمون بعد نزول كتاب الله بلسان عربي مبين.. ولا يخلو كتاب بلاغي من الشاهد القرآني.. لأن ذلك من أول ما يسعى إليه المؤلف.. بل هو ما يريد تأكيده.. حينما خاض البحث ونظم فنون البلاغة في فصول.

□ إن تحدي القرآن الكريم للعرب أن يأتوا بمثله دفعهم إلى التفكير في أسلوبه.. والوقوف على ألفاظه ومعانيه.. وكان ثمرة ذلك الوقوف والتأمل.. هذه الدراسات المستفيضة التي أثارت قلوب المؤمنين.. وعمرت حياتهم بالأمل.. وأنطقتهم بكل عذب جميل.. وقد كانت البلاغة أول ما نشأت في كنف القرآن الكريم.. وكانت فنونها تتردد في الكتب المتقدمة ككتاب «معاني القرآن» ليحيى بن زياد الفراء.. وكتاب «مجاز القرآن» لأبي عبيدة.. ولم يكن بطبيعة الحال ان يخرج هذان المؤلفان على الشاهد القرآني.. لأن موضوعيها يتصلان بكتاب الله تعالى اتصالا وثيقا.. بل هما موضوع واحد أريد به الكشف عن معاني القرآن الكريم.. وطرق التعبير فيه.

□ ولعل عبد الله بن المعتز كان من أوائل الذين سنوا البدء بالشاهد القرآني في دراسة البلاغة.. ويتضح ذلك في أول عبارة بدأ بها كتابه «البديع» قال وهو يتحدث عن فنونه: «قد قدمنا في أبواب كتابنا

هذا بعض ما وجدنا في القرآن الكريم واللغة وأحاديث رسول الله ﷺ.. وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم.. وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون: «البديع».. ثم قال: «من الكلام البديع قول الله تعالى: «وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم».. وحينما بدأ بفنون البديع قال: «الباب الأول من البديع هو الاستعارة.. قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيكَ الكِتَابَ مِنهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أمُّ الكِتَابِ﴾.. (سورة آل عمران آية ٧) وقال: ﴿واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾.. (سورة الاسراء آية ٢٤) وقال: ﴿واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾.. (سورة مريم آية ٤) وقال: ﴿أو يأتيهم عذاب يوم عظيم﴾.. وقال: ﴿وآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنهُ النَّهَارَ﴾ (سورة يس آية ٣٧).

□ وذكر بعد ذلك من أحاديث الرسول ﷺ ما فيه استعارة.. ثم أتبعه بكلام الصحابة رضي الله عنهم.. وبأمثلة من الشعر القديم والمحدث.. وسار على هذا المنهج في ضرب الأمثلة وذكر الشواهد.. ولم يلتزم البلاغيون الآخرون بمثل هذا الالتزام.. وإن كان الشاهد البلاغي يقف على قمة الشواهد.. غير أن يحيى بن حمزة العلوي عاد إلى هذا المنهج في ترتيب الشواهد.. والتزم به كل التزام.. ورتب شواهده على هذه الصورة:

النوع الأول: من القرآن الكريم.
النوع الثاني: من الأخبار النبوية.
النوع الثالث: من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
النوع الرابع: مما ورد من الفن البلاغي في كلام البلغاء.
النوع الخامس: مما ورد من الفن البلاغي في المنظوم.

□ وأول من أسس من هذا العلم قواعده.. وأوضح براهينه.. وأظهر فوائده ورتب أفانينه عبد القاهر الجرجاني.. وادعى أنه لم يطلع على

كتابي «دلائل الإعجاز».. و«أسرار البلاغة».. ولم يقف على شيء منهما إلا ما نقله العلماء في تعليقاتهم منهما.. ولكن ذلك لا يفسر الالتقاء الواضح في ضرب الأمثلة.. وتصنيف الشواهد بينه وبين أبن المعتز الذي كان من أوائل المهتمين بهذه المسألة.. حينما أراد أن يقول: إن القرآن الكريم سبق إلى كثير من فنون البديع التي ادعاها المجددون.. ولج فيها المولدون.. ولذلك ابتدأ بالشاهد القرآني ليدحض أقوالهم.. ويفند آراءهم.. ويوقفهم حيث ينبغي أن يقفوا غير مباهين ولا فخورين.

□ وهذان المثلان: ابن المعتز.. ويحيى بن حمزة العلوي.. يدلان على ما كان عليه القدماء من ارتباط بالشاهد القرآني فيما يقولون وفيما يؤلفون.. وليس معنى ذلك أن البلاغيين الأخيرين ابتعدوا عن ذلك.. بل أخذوا بهذا النهج.. ووضعوا الشاهد القرآني فوق كل شاهد.. ووقفوا أمامه مبهورين.

□ وكان من أثر اهتمامهم بالشاهد البلاغي تحليلهم لكلام الله تعالى: والوقوف على ما فيه من روعة وجمال.. وإستنباط الفنون البلاغية منه.. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وقِيلَ يا أرضُ ابلَعِي ماءَكِ، ويا سَمَاء أَقْلِعِي.. وغِيضَ المَاءُ، وقُضِيَ الأمْرُ، واستَوَتْ على الجُودِي، وقِيلَ بُعْداً لِلْقَوم الظَّالِمِينَ﴾. (سورة هود آية ٤٤)

□ قال ابن أبي الإصبع المصري وقد ذكر هذه الآية في باب «الإبداع»: «وما رأيت في جميع ما استقريت من الكلام المنثور.. والشعر الموزون كآية كريمة من كتاب الله تعالى.. استخرجت منها أحدا وعشرين ضربا من المحاسن».. ثم بدأ بتلك الضروب من المحاسن وقال: «وهي المناسبة التامة بين «أقلعي» و«ابلعي».. والمطابقة بذكر الأرض والسماء.. والمجاز في قوله «يا سماء» فإن المراد والله أعلم: يا

مطر السماء.. والاستعارة في قوله: «اقلعي» والإشارة في قوله تعالى: ﴿وغيض الماء﴾ فإنه عبر بهاتين اللفظتين عن معان كثيرة.. والتمثيل في قوله تعالى: ﴿وقضى الأمر﴾ فإنه عبر عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بلفظ فيه بعد عن لفظ المعنى الموضوع له.. والإرداف في قوله تعالى: ﴿واستوت على الجودي﴾ فإنه عبر عن استقرارها بهذا المكان وجلوسها جلوسا متمكنا لا زيغ فيه ولا ميل بلفظ قريب من لفظ المعنى.. والتعليل لأن غيض الماء علة الاستواء.. وصحة التقسيم إذا استعوب سبحانه وتعالى أقسام أحوال الماء حالة نقصه.. إذ ليس إلا احتباس ماء السماء.. واحتقان الماء الذي ينبع من الأرض.. وغيض الماء الحاصل على ظهرها.. والاحتراس في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾ (سورة هود آية ٤٤) إذ الدعاء يشعر بأنهم مستحقوا الهلاك احتراسا من ضعيف يتوهم أن الهلاك لعمومه ربما شمل من يستحق ومن لا يستحق.. فتأكد بالدعاء على الهالكين لكونهم مستحقين ذلك.. والإيضاح من قوله.. «للقوم» ليتبين لهم أن القوم هم الذين سبق ذكرهم في الآية المتقدمة عليها.. حيث قال تعالى: ﴿وكُلَّمَا مَرَّ عَلَيهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ سورة هود آية ٣٨. وفي قوله قبل ذلك: ﴿ولا تُخَاطِبْني في الَّذينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (سورة هود آية ٣٧).. فآتى سبحانه وتعالى في آخر هذه الآية بلفظة ﴿القوم﴾ والألف واللام فيها للعهد ليبين أنهم القوم الذين سبق ذكرهم.. ووصفهم بالظلم.. كما وصفهم في أول الكلام بالظلم.. وذلك مما يوضح المعنى ويبينه.. فعلم أن لفظة القوم هنا ليست فضلة في الكلام.. وأنها يحصل بسقوطها لبس في المعنى.. وعدم بيان الكلام محتاج له.. والمساواة.. لأن لفظ الآية لا يزيد على معناها.. وحسن النسق.. لأنه سبحانه عطف القضايا بعضها على بعض بحسن ترتيب حسبما وقعت.. وائتلاف اللفظ مع المعنى.. لأن كل لفظة لا يصلح موضعها غيرها.. والإيجاز.. لأنه سبحانه وتعالى

اقتص القصة بلفظها مستوعبة.. بحيث لم يخل منها بشيء في أحضر عبارة.. والتسهيم.. لأن أول الآية إلى قوله تعالى: ﴿اقلعي﴾ يقتضي آخرها.. والتهذيب.. لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن.. كل لفظة سمحة سهلة مخارج الحروف.. عليها رونق الفصاحة.. مع الخلو عن البشاعة والتركيب.. سليمة من التعقيد وأسبابه.. والتقديم والتأخير.. والحذف المخل.. والزيادة المسهبة.. وحسن البيان من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام.. ولا يشكل عليه شيء من هذا النظام.. والتمكين.. لأن الفاصلة مستقرة في قرارها.. مطمئنة في مكانها.. غير قلقة ولا مستدعاة.. والانسجام.. وهو تحدر الكلام بسهولة كما ينسجم الماء.. وينساب انسياب العليل من الهواء.. وما في مجموع الآية من الإبداع.. وهو الذي سمي به هذا الباب من أن كل لفظة لا تخلو عن أن يستخرج منها ضرب أو ضربا من البديع.. فهذه آية.. عدة ألفاظها سبع عشرة لفظة.. تتضمن أحدا وعشرين ضربا من البديع.. غير ما يتعدد من ضروبها.. فإن الاستعارة وقعت منها في موضعين: وهما استعارة الابتلاع للأرض.. والإقلاع للسماء.. والمجاز في مكانين في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ويا سماء﴾ والتمثيل والإرداف.. لأن المجاز مجازان.. مجاز بالحذف.. ومجاز بالتغيير.. وقد وقعا معا.. فانظر رحمك الله.. إلى عظمة هذا الكلام لتعلم ما انطوى عليه نظمه.. وما تضمنه لفظه».

□ وساعد الشاهد القرآني علماء البلاغة على الكشف عن مسائل كثيرة.. تتصل بالأسلوب العربي.. والرد على من يذهب بعيدا في تفسير الكلام.. أو يشك في نظم القرآن.. ومن أمثلة ذلك وقوفهم على «براعة التخلص» التي لم يحسن القدماء تطويعها.. وطوعها الشعراء المحدثون في العصر العباسي.. وذلك ظاهر في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي اسْرَىَ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَىٰ ٱلْمَسْجِدِ ٱلأَقْصَى ٱلَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ● وآتَيْنَا مُوسَىٰ ٱلْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى

لبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً • ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّه كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ (سورة الإسراء الآيات ١ - ٣).. فاذا نظرنا إلى قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ ٱلْكِتَابِ﴾(سورة السجدةآية ٢٣)وجدنا هذا الفصل مباينا لما قبله.. حتى نفكر فنجد الوصل بين الفصلين في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ (سورة الإسراء، آية ١) فإنه سبحانه وتعالى أخبر أنه أسرى بمحمد ﷺ.. ليريه من آياته.. ويرسله إلى عباده.. كما أسرى بموسى من مصر.. حين خرج منها خائفا يترقب.. فأتى مدين وتزوج بابنه شعيب.. وأسرى بها فرأى النار.. وخاطبه ربه.. وأرسله إلى فرعون.. وآتاه الكتاب.. فهذا الوصل بين هذين الفصلين.. وأما الوصل بين ما ذكر وبين قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ (سورة الإسراء، آية ٢) فقد كان على بني إسرائيل نعمة عليهم قدما.. حيث نجاهم في السفن.. إذ لو لم ينج أباهم من أبناء نوح لما وجدوا.. وأخبرهم أن نوحا كان شكورا.. وهم ذريته.. والولد سر أبيه.. فيجب أن يكونوا شاكرين كأبيهم..

□ وكان الشاهد البلاغي مثالا يحتذى في الكتابة.. وقد ظهر ذلك فيما أدخله البلاغيون في «الحل» و«العقد» ولا يكاد الباحث يستطيع حصر ذلك عبر القرون والأجيال.. لأن كتاب الله ملأ النفوس إيمانا.. والعقول ازدهارا.. والألسنة بيانا.. وسيظل ذلك إلى ما شاء الله نبراساً يضيء طريق المؤمنين.

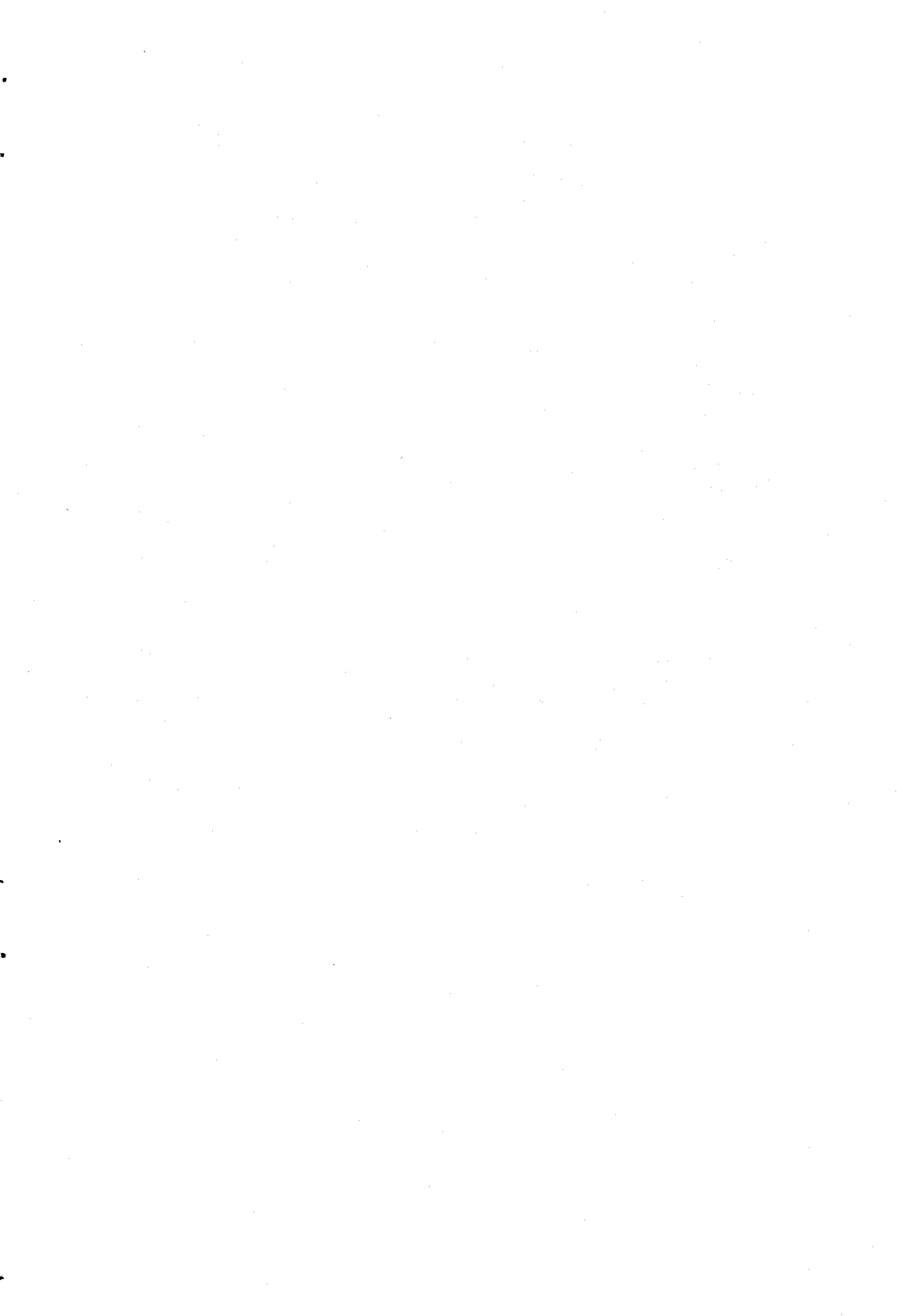
□ تلك بعض ملامح أثر القرآن الكريم في البلاغة العربية.. وقد اتضح أنه أثر في مسألتين هما:

□ الأولى: الدافع.. وهو البحث في أساليب العرب.. ليقف الناس على روعة كتاب الله وجماله.. وفهم مقاصده ومعانيه.. وإدراك إعجازه..

وقد تمثل في الكتب التي تحدثت عن معاني القرآن ومجازه.. وفي الدراسات التي تحدثت عن وجوه الإعجاز.. وهي دراسات بلاغية.. لأنها عنيت بفنون البلاغة.. وحددتها.. وقسمتها.. وشرحت وسائل التعبير بها.. واتضح في كتب التفسير والأصول.. وهي كتب كانت تدعو في مقدماتها.. وفي ثنايا فصولها إلى تعلم البلاغة ودراستها.. لأنها السبيل الموصل إلى فهم القرآن الكريم.. واستنباط الأحكام منه.. وقد اتضح أن ذلك ظل مرتبطا بالدراسات البلاغية.. وقرن البلاغيون وغيرهم علم المعاني بالأصول.

□ الثانية: الشاهد.. وذلك أن كلام الله تعالى كان المثال الأعلى عند البلاغيين وغيرهم.. وقد اتضح ذلك في وضع الشاهد القرآني على قمة الشواهد.. وفي تحليل الآيات القرآنية.. واستخراج الفنون البلاغية منها.. وفي حلها في الكلام.. أو عقدها في الشعر.

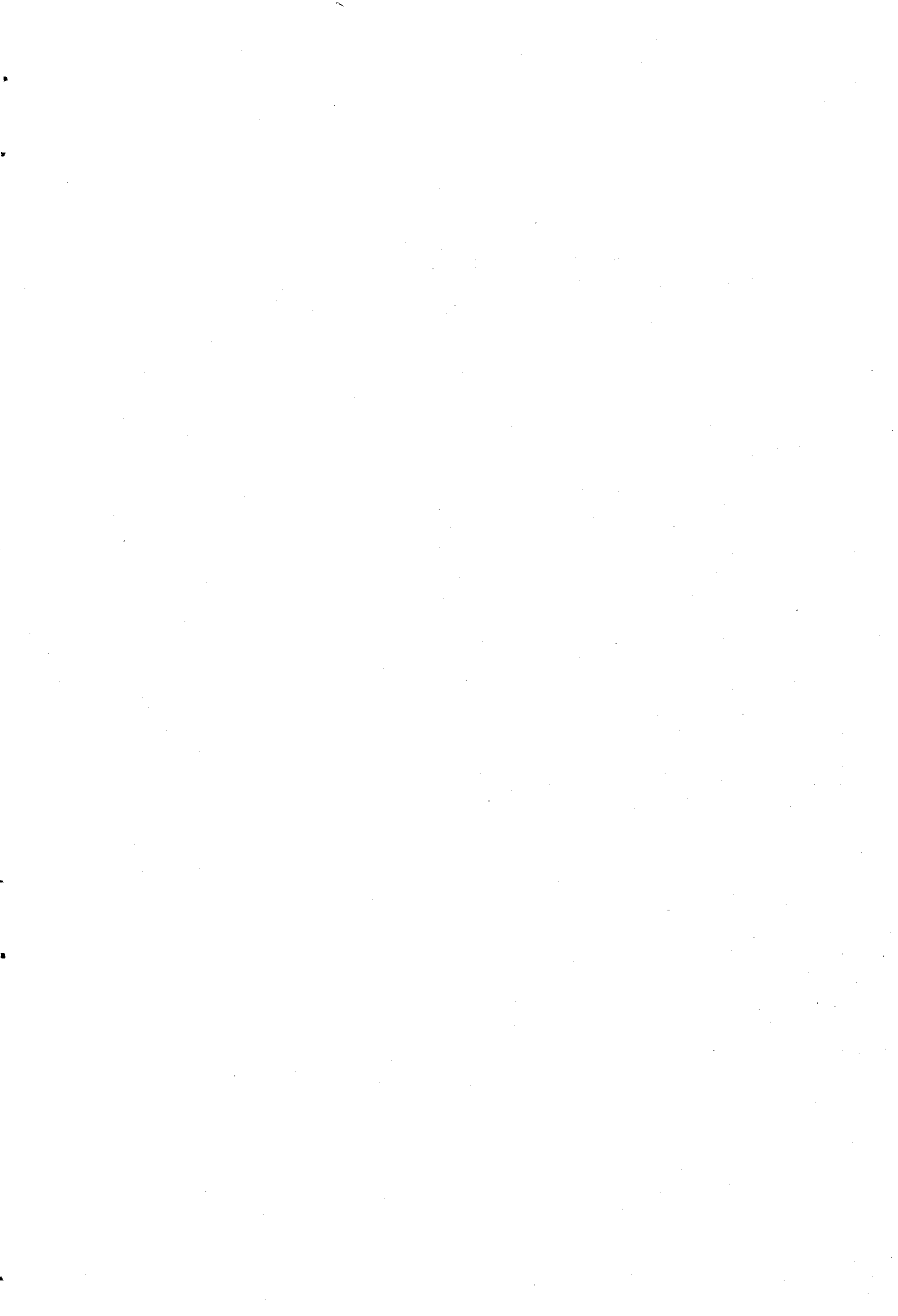
□ ولا يقف أثر القرآن الكريم عند هذه الجوانب.. بل هناك جوانب أخرى كثيرة.. كان للقرآن الكريم دور في ظهورها وكشفها.. وقد ظل القرآن الكريم.. وسيبقى.. منهل الأدباء.. وقدوة البلاغيين.. ومعين المسلمين في حياتهم.. وزادهم في آخرتهم إلى ما شاء الله.. لأنه الكتاب الأعظم.. والدستور الأوحد.. لكل من آمن بالله ورسوله واليوم الآخر.





الفصل الثالث

نُزُول القُرْآن



□ إن القرآن الكريم لم ينزل على النبي ﷺ دفعة واحدة.. وإنما نزل بالتدريج على دفعات متعددة.. وفي أوقات مختلفة.. قال الله تعالى: ﴿وقالَ الَّذينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عليهِ ٱلْقُرْآنُ جُملةً وَاحِدَةً، كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادك ورتَّلنَاهُ تَرتِيلاً﴾ (سورة الفرقان، آية ٣٢)، والمعنى: كذلك نزلناه متفرقا لنثبت به فؤادك.. ونقويه به.. بإنزال الآيات في المناسبات المختلفة.. والموارد المختلفة.. وكلما دعت الحاجة إلى ذلك.. لأن النبي ﷺ حين يرى أن الله سبحانه وتعالى يؤيده بالآيات.. ويبطل ما تحمله أعداؤه من أجل إبطال أمره.. يتشجع ويصبح أكثر قوة وصلابة واندفاعا في تبليغ الدعوة.. قال الله تعالى: ﴿وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلاَّ جِئْنَاكَ بالحقِّ وأَحسَنَ تَفْسِيرا﴾ (سورة الفرقان، آية ٣٣)، والمثل هو الكلام القليل النادر.. وهذا وعد من الله سبحانه وتعالى أن يمده بالحق على أكمل وجه.. وأتم صورة.. ليدحض به أباطيل أولئك القوم.. كلما جاءوا بكلام يعارضون به كلام الله سبحانه وتعالى.. في مقابل قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿لولاَ أُنزِلَ إِليهِ مَلَكٌ فيكُونَ مَعَهُ نَذِيراً • أو يُلقَى إليهِ كَنزٌ أو تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يأْكُلُ مِنْهَا وقَال الظَّالمُونَ إن تَتَّبِعُون إلاَّ رجُلاً مَسحوراً • انظُر كَيفَ ضَرَبُوا لَكَ الأمثَالَ فَضَلوا فَلا يَستَطيعُونَ سَبِيلاً﴾ (سورة الفرقان، الآيات ٧ - ٩).

□ والمراد بالأمثال.. هو أباطيلهم وأقوالهم التي جاءوا بها عنادا ومكابرة..

□ والسور التي نزلت دفعة واحدة.. أو قيل بنزولها كذلك كثيرة ومتعددة.. ومنها:

١ - سورة المائدة.. ويدل عليه ما رواه العياش عن عيسى بن عبد الله

عن أبيه عن جده عن علي رضي الله تعالى عنه.. قال: كان القرآن ينسخ بعضه بعضا.. وإنما كان يؤخذ من أمر رسول الله ﷺ بآخره.. وكان من آخر ما نزل عليه سورة المائدة.. فنسخت ما قبلها.. ولم ينسخها شيء.. وقد نزلت عليه وهو على بغلة شهباء.. وثقل عليه الوحي حتى وقعت.. وتدلى بطنها حتى رؤيت سرتها تكاد تمس الأرض.. وأغمى على رسول الله ﷺ.. حتى وضع يده على ذؤابة شيبة بن وهب الجمحي.. ثم رفع ذلك عن رسول الله ﷺ.. فقرأ علينا سورة المائدة.. فعمل رسول الله وعملنا.

□ وبإسناده عن أبي حمزة الثمالي قال: سمعت أبا عبد الله الصادق يقول: نزلت المائدة كملا.. ونزل معها سبعون ألف ملك.. ولكن السيوطي في الإتقان لم يعدها مما نزل جملة واحدة.

٢ - سورة الأنعام: ويدل عليه عدة روايات:

أولا: ما رواه علي بن إبراهيم في تفسيره قال: حدثني أبي عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا قال: نزلت الأنعام جملة واحدة.. ويشيعها سبعون ألف ملك.. لهم زجل بالتسبيح والتهليل والتكبير.. فمن قرأها سبحوا له إلى يوم القيامة.

ثانيا: ما رواه العباس في تفسيره عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله يقول: إن سورة الأنعام نزلت جملة واحدة.. وشيعها سبعون ألف ملك.. حين أنزلت على رسول الله ﷺ.. فعظموها وبجلوها.

ثالثا: وعن الطبراني بطرق مختلفة عن رسول الله ﷺ.. وعن مجاهد وعن عطاء أنها نزلت جملة واحدة.

رابعا: ما رواه الحاكم في المستدرك عن جابر قال: لما نزلت سورة

الأنعام.. سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ثم قال شيع هذه السورة من الملائكة.. ما سد الأفق.

خامسا: ما ذكره صاحب مجمع البيان وهو ما روى عن أبي بن كعب وعكرمة وقتادة أنها كلها نزلت بمكة المكرمة جملة واحدة ليلا.

□ وهناك أقوال وروايات أخرى تدل على أنها لم تنزل جملة واحدة.. بل نزلت آيات منها بالمدينة المنورة.. وآيات أخرى في مكة المكرمة.. فإذا صحت هذه الأقوال والروايات فلا بد من التأويل والقول بأن بعض الآيات نزل ثانيا.. بعد أن نزل ضمن الكل.. إما لأجل التذكير.. أو لبيان مقدار ما لهذه الآيات من الأهمية.

٣ - سورة التوبة.. ويدل عليه ما رواه التعلبي بإسناده عن عائشة رضي الله عنها.. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ما نزل على القرآن إلا آية آية.. وحرفا حرفا.. خلا سورتي البراءة.. وقل هو الله أحد.. فإنهما نزلتا علي ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة.. كل يقول: استوصى بنسبة الله خيرا.

□ غير أن السيوطي في الإتقان لم يعدها مما نزل جملة واحدة.. ويؤيده ما رواه علي بن إبراهيم عن أبيه عن محمد بن فضل عن ابن أبي عمير عن أبي الصباح الكناني عن أبي عبد الله قال: نزلت هذه الآية بعدما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك في سنة تسع من الهجرة.. إلى أن قال: فلما نزلت الآيات من سورة البراءة.

□ وهذه الرواية تدل على نزول هذه الآيات مجردة عن غيرها.. ويؤيد هذا الرأي بعض الأقوال الواردة في شأن نزول الآيات مثل ما روي السيوطي في أسباب النزول.. عن مسلم وابن حيان وأبي داود عن النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من الصحابة

فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل لله عملا بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج.. وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام.. وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم.. فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ.. وذلك يوم الجمعة.. ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستثنيته فيما اختصمتم.. فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ﴾ (سورة التوبة، آية ١٩) إلى قوله: ﴿لا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ (سورة آل عمران، آية ٨٦).

□ فظهر أن القول بعدم نزولها جملة واحدة لا يخلو من الصحة.. لكثرة الآثار الدالة على نزول بعض الآيات مجردة عن غيرها.

٤ - سورة المرسلات.. وقد عدها في الإتقان مما نزل جمعا ثم روى من المستدرك عن ابن مسعود قال: كنا مع النبي ﷺ في غار.. فنزلت عليه ﴿والمرسلات عرفا﴾ فأخذتها من فيه.. وإن فاه رطب بها.. فلا أدري بأيها ختم ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ أو ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾.

□ ولكن السيوطي قال في أسباب النزول: أسباب نزول آية ٣٨ من سورة المرسلات.. أخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله: «وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون» قال نزلت في ثقيف.. وفي تفسير مجمع البيان عند تفسير الآية قال مقاتل: نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول الله ﷺ بالصلاة.. فقالوا لا ننحنى.. والرواية «لا نخني» فإن ذلك سبة علينا.. فقال ﷺ: لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود.

□ ولكن بعد أن تردد ابن مسعود في شأن هذه السورة.. لم يعرف أن رسول الله ﷺ قد ختمها بقوله تعالى: ﴿وإذا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ﴾.. (سورة المرسلات، آية ٤٨) حتى تبقى منها الآيتان.. أو بقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة المرسلات، آية ٥٠).. حتى

تم السورة.. فإن هذه الرواية لا تثبت أنها نزلت كاملة.. مضافا إلى ما نقل عن مقاتل أن قوله تعالى: ﴿وإِذا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ﴾ نزلت في ثقيف.. وإلى ما قال الفاضل البحراني في البرهان عند تفسير السورة إنها مكية الآية ٤٨.

٥ - سورة الصف.. حيث عدها السيوطي في الإتقان مما نزل جمعا.. مستندا في ذلك إلى ما رواه الحاكم في المستدرك وغيره عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نقرأ من أصحاب رسول الله ﷺ.. فتذاكرنا فقلنا: لو نعلم أن الأعمال أحب إلى الله لعملناه.. فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم • يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ حتى ختمها.. قال عبد الله: فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها.. لكن الموجود في المستدرك عند تفسير الصف هكذا: عن عبد الله بن سلام إلى أن قال: فأرسل إلينا رسول الله ﷺ فجمعنا.. فجعل يومىء بعضنا إلى بعض.. فقرأ علينا رسول الله ﷺ: «سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم • يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون» إلى آخر السورة.

□ وفي أسباب النزول للسيوطي أخرج ابن ابي حاتم عن مقاتل عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت..﴿يا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (سورة الصف آية ١٠) قال المسلمون: لو علمنا ما هذه التجارة لأعطينا فيها الأموال والأهلين فنزلت: ﴿تؤمنون بالله ورسوله﴾ وفي تفسير مجمع البيان نزل قوله تعالى: ﴿لما تقولون﴾ في المنافقين.

□ وعن الحسن نقول: إن الاعتبار يقتضي نزول السورة متفرقا.. لأن مضامينها مختلفة.. ولأن المفهوم منها أن بعض الآيات كانت كأنها

مسبوقة بالسؤال كقوله تعالى: ﴿لما تقولون ما لا تفعلون﴾ كما قيل وروي عن مقاتل: قوم كانوا يقولون: إذا لقينا العدو لم نفر ولم نرجع عنهم.. ثم لم يفوا بما قالوا.. وانفلتوا يوم أحد.. حتى شج وجه رسول الله ﷺ.. وكسرت رباعيته.

٦ - سورة الفاتحة.. وقد عدها السيوطي مما نزل جمعا ثم قال: قال ابن حبيب واتبعه ابن النقيب: من القرآن ما نزل مشيعا وهو سورة الأنعام.. شيعها سبعون ألف ملك.. وفاتحة الكتاب نزلت ومعها ثمانون ألف ملك.

□ ولكننا لم نعثر على من صرح بنزول سورة الفاتحة جملة واحدة.. إلا ما ذكره السيوطي.. ويؤيده أن الاعتبار يقتضي نزول السور القصار دفعة واحدة كاملة.

٧ - سورة العاديات.. لم يعدها السيوطي مما نزل جمعا.. ولكنه قال في أسباب النزول: أخرج البزاز وابن ابي حاتم والحاكم عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ خيلا.. ولبثت شهرا لا يأتيه منها خبر.. فنزلت ﴿والعاديات ضبحاً﴾.. وروى علي بن أبي إبراهيم في تفسيره عن الحسين بن علي بن أبي حمزة عن أبيه عن أبي بصير عن أبي عبد الله في قوله: «والعاديات ضبحا فالموريات قدحا» هذه السورة نزلت في أهل وادي اليابس.

□ وفي تفسير مجمع البيان عن مقاتل أن المنافقين قالوا: إن سرية رسول الله ﷺ قد قتلوا جميعا.. فنزلت السورة.. وقيل نزلت السورة لما بعث النبي ﷺ عليا إلى ذات السلاسل.

□ فنزل أن نزولها دفعة لا يخلوا عن الشواهد.

٨ - سورة الضحى.. عن ابن عباس: احتبس الوحْي عنه ﷺ خمسة عشر يوماً.. فقال المشركون: إن محمدا ﷺ قد ودعه ربه وقلاه..

ولو كان أمره من الله تعالى لتتابع عليه فنزلت سورة الضحى.

□ ونقل صاحب تفسير مجمع البيان أقوالا تدل على نزولها دفعة واحدة.. ولكن السيوطي عدها مما نزل مفرقا وقال: إن أول ما نزل منها إلى قوله «فترضى» كما في حديث الطبراني.. وقال أيضا في أسباب النزول أخرج الشيخان وغيرهما عن جندب قال: اشتكى النبي ﷺ.. فلم يقم ليلة أو ليلتان.. فأتته امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك.. ألا قد تركك.. فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿والضُّحَىٰ واللَّيْلِ إذا سَجَىٰ ما ودَّعَكَ ربُّكَ ومَا قلى﴾ (سورة الضحى، الآيات ١ - ٣).

□ وروى الحاكم في المستدرك عن حماد بن زيد عن عطية بن السائب عن سعيد عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «سألت الله مسألة واني لم أكن أسأله.. ذكرت رسل ربي فقلت يا ربي سخرت لسليمان الريح.. وكلمت موسى.. فقال تعالى: الم أجدك يتيماً فآويتك، وضالا فهديتك، وعائلا فأغنيتك فقلت نعم.. فوددت أني لم أسأله».

□ ويتضح أن سورة الضحى قد اختلفوا في نزولها مفرقا أو جمعا.

٩ - سورة الإخلاص.. عدها في الإتقان مما نزل جمعا.. وقال في مجمع البيان في تفسير سورة الإخلاص قيل: إن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك.. فنزلت السورة.. عن أبي بن كعب وجابر.. وقيل أتى عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخو لبيد النبي ﷺ.. وقال عامر: إلى ما تدعونا يا محمد؟ فقال: إلى الله.. فقال: صف لنا.. أمن ذهب هو أم من فضة؟ أم من حديد أم من خشب؟ فنزلت السورة.. وأرسل الله الصاعقة على أربد فأحرقته.. وطعن عامر في خنصره فمات.. عن ابن عباس.. وروى السيوطي في أسباب النزول عن الترمذي والحاكم وابن

خزيمة من طريق أبي العالية عن أبي بن كعب: أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك.. فأنزل الله: ﴿قل هو الله أحد ● الله الصمد ● لم يلد ولم يولد ● ولم يكن له كفوا أحد﴾.

□ وهذه السورة أيضا مما لا خلاف في أنها نزلت جمعا.. ويشهد عليه مضمون السورة.. التي كلها أوصاف لله سبحانه وتعالى.. مضافا إلى أن الاعتبار في السور القصيرة.. يقتضي نزولها دفعة كاملة كما لا يخفي.

١٠ - سورة الكافرون.. لم يعدها السيوطي في الإتقان مما نزلت جمعا.. ولكنه قال في أسباب النزول: أخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن قريشا دعت رسول الله ﷺ.. إلى أن يعطوه مالا.. فيكون أغنى رجل مكة المكرمة.. ويزوجوه ما أراد من النساء.. فقالوا: هذا لك يا محمد.. وتكف عن شتم آلهتنا.. ولا تذكرها بسوء.. فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة.. قال: حتى أنظر ما يأتيني من ربي.. فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يا أَيُّها الكافرون﴾ إلى آخر السورة.. وأنزل ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تأْمُرُوني أَعْبُدُ أَيُّها الجاهِلُونَ﴾ (سورة الزمر، آية ٦٤).

١١ - سورة الكوثر.. عدها في الإتقان مما نزل جمعا.. وروي عن مسلم عن أنس قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا.. إذ أغفى إغفاءة.. فرفع رأسه مبتسما فقال: أنزلت علي آنفا سورة.. فقرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم ● إنا أعطيناك الكوثر» حتى ختمها.

□ وقال في أسباب النزول: أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: بلغني أن ابراهيم ولد النبي ﷺ لما مات قالت قريش: أصبح محمد أبتر.. فغاظه ذلك.. فنزلت سورة إنا أعطيناك الكوثر تعزية له.

□ وفي تفسير علي بن إبراهيم: دخل رسول الله ﷺ المسجد وفيه عمرو بن العاص.. والحكم ابن أبي العاص.. قال عمرو: يا أبا الأبتر..

وكان الرجل في الجاهلية إذا لم يكن له ولد سمي أبتر.. ثم قال عمرو: إني لأشنأ محمدا أي أبغضه.. فأنزل الله سبحانه وتعالى ﷺ: ﴿إنا أعطيناك الكوثر ● فصلِّ لربك وانحر ● إن شانئك هو الأبتر﴾ (سورة الكوثر، الآيات ١ - ٢ - ٣). أي مبغضك عمرو بن العاص هو الأبتر.. يعني لا دين له ولا نسب.

□ ويظهر مما تقدم أن الكوثر نزلت دفعة واحدة.. وما نقل في أسباب النزول عن البزاز.. وعميرة بسند عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش: أنت سيدهم.. ألا ترى هذا المنبتر من قومه.. يزعم أنه خير منا.. ونحن أهل الحجيج.. وأهل السقاية.. وأهل السدانة.. فقال: أنتم خير منه.. فنزلت: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾.. ولعل الآية في ضمن السورة فلا منا منافاة.

١٢ - سورة تبت.. عدها في الإتقان مما نزل جمعا.. وقال في أسباب النزول أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال: صعد رسول الله ﷺ ذات يوم على الصفا.. فنادى يا صباحاه.. فاجتمعت إليه قريش.. قال: أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم.. أكنتم تصدقوني؟ قالوا: بلى: قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.. فقال أبو لهب: تبا لك.. ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ● مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ ومَا كَسَبَ● سَيَصْلَى نَاراً ذاتَ لَهَبٍ● وامرأَتُهُ حَمَّالَةَ الحطب﴾ (سورة المسد، الآيات ١ - ٤).

□ وأخرج ابن المنذر عن عكرمة مثله.. ورواه صاحب مجمع البيان في تفسيره عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.. والذي يظهر أن سورة تبت نزلت جملة واحدة.. إذ لم يكن هناك خلاف في ذلك.

١٣ - سورة البينة.. عدها السيوطي في الإتقان مما نزل جمعا قال:

أخرج أحمد عن أبي حبة البدري قال: لما نزلت ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ إلى آخره.. قال جبريل: يا رسول الله.. إن ربك يأمرك أن تقرئها.. وليس فيها خلاف.. إلا ما روي في تفسير البرهان عن الأعمش عن عطية عن الخدري.

□ وقد روى الخطيب الخوارزمي عن جابر أنه لما نزلت هذه الآية ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات أولئك هم خير البرية﴾ (سورة البينة، آية ٧) قال النبي ﷺ: علي خير البرية.. وفي رواية جابر كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا أقبل علي قالوا: جاء خير البرية.. ومن الممكن أن تكون الآية قد نزلت ضمن السورة الكاملة وليس بمفردها حتى لا تنافي ما سبق.. وأنها بجميع آياتها نزلت دفعة واحدة.. وحينئذ لا خلاف بين الأقوال.

١٤ - سورة النصر.. عدها في الإتقان مما نزل جمعا.. وقال في أسباب النزول: أخرج عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن الزهري قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح.. بعث خالد بن الوليد فقاتل بمن معه صفوف قريش بأسفل مكة حتى هزمهم الله.. ثم أمر بالسلاح فرفع عنهم.. فدخلوا في الدين.. فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتح ● ورأيتَ النَّاس يَدْخُلُون في دين الله أفواجاً ● فسبِّح بحمدِ ربِّكَ واستغفِرْه إنَّهُ كان توابا﴾ (سورة النصر، الآيات ١ - ٢ - ٣) حتى ختمها.. وفي تفسير علي بن إبراهيم: أنها نزلت بمنى في حجة الوداع «إذا جاء نصر الله والفتح» فلما نزلت قال رسول الله ﷺ: نعيت إلى نفسي.. فجاء إلى مسجد الحيْق فجمع الناس إلخ.

□ وفي تفسير البرهان عن الواحدي أنه روى عكرمة عن ابن عباس

قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة خيبر.. وأنزل الله سبحانه وتعالى سورة الفتح قال: يا علي ويا فاطمة: إذا جاء نصر الله والفتح إلى آخر السورة.

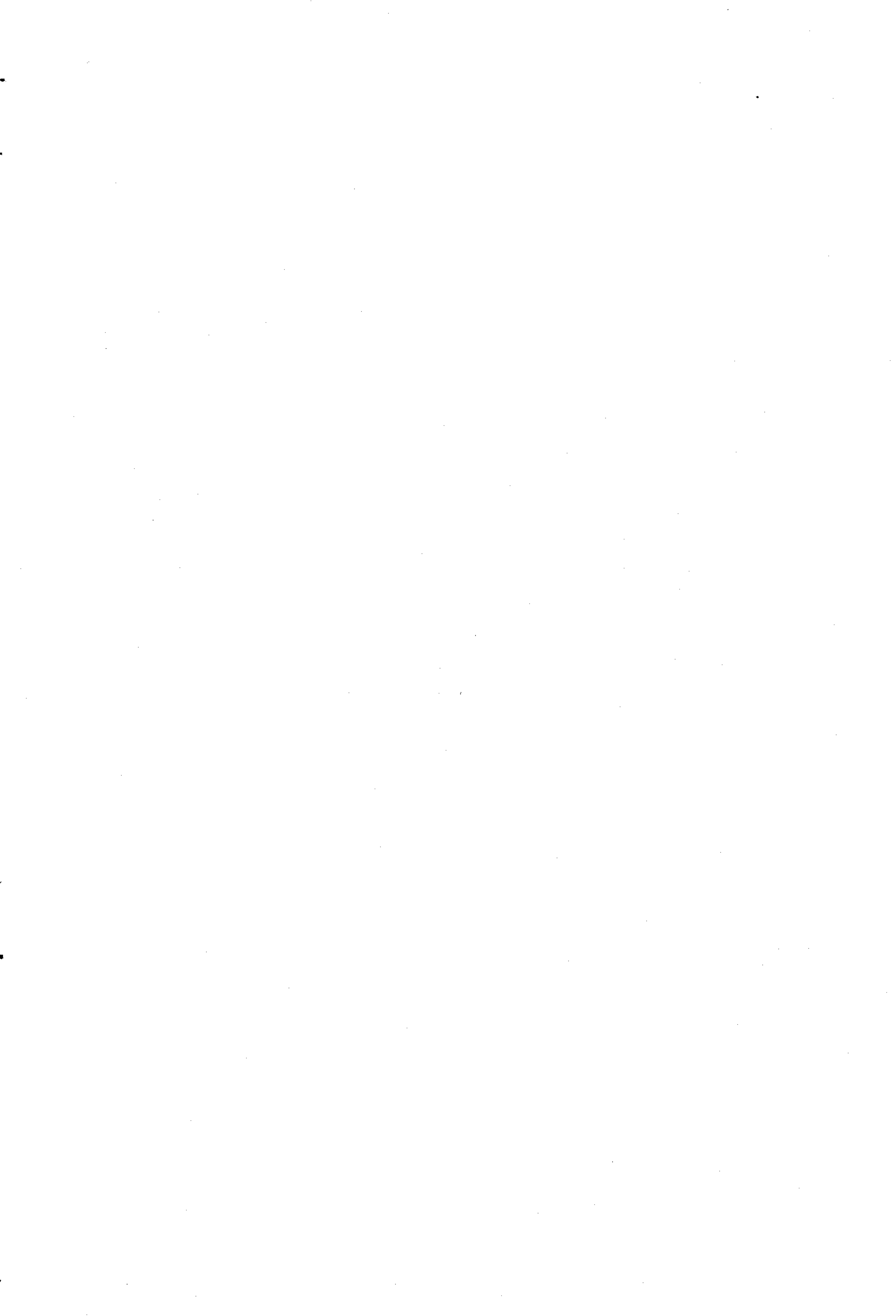
□ وفي تفسير مجمع البيان نقل عن مقاتل لما نزلت هذه السورة قرأها على أصحابه.. ففرحوا واستبشروا.. وسمعها العباس فبكى إلخ.

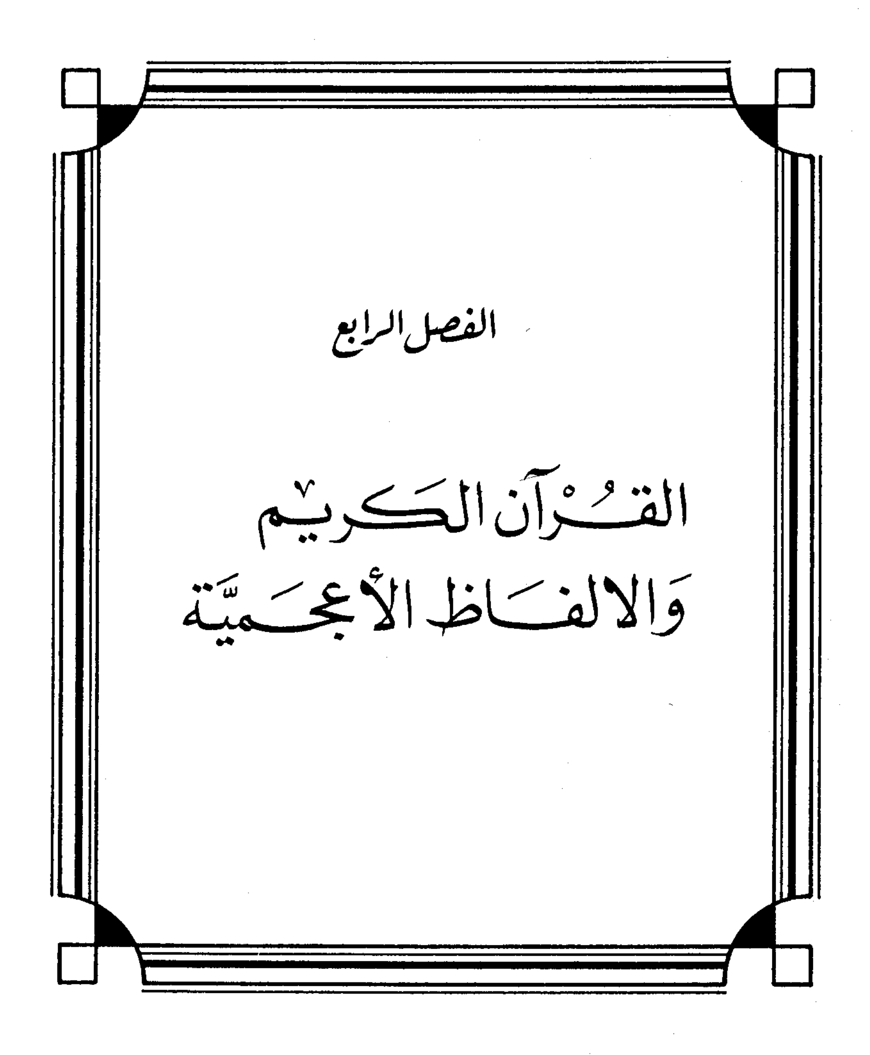
□ والاعتبار يشهد في أمثال هذه السورة القصيرة.. المرتبطة المضمون على أنها نزلت جملة واحدة.

١٥ - المعوذتان.. عدها في الإتقان مما نزل جملة واحدة.. بل السورتان نزلتا معا.. وقال في النوع الأول من الإتقان: المختار أنها مدينتان.. لأنها نزلتا في قصة سحر لبيد بن الأعصم كما أخرجه البيهقي في الدلائل.. وروى علي بن إبراهيم في تفسيره عن أبيه عن بكر بن محمد عن أبي عبد الله قال: كان سبب نزول المعوذتين أنه وعك رسول الله ﷺ.. فنزل جبريل بهاتين السورتين فعوذ بهما.. وفي تفسير البرهان عن الفضيل بن يسار قال: سمعت أبا جعفر يقول: إن رسول الله ﷺ اشتكى شكوة شديدة.. ووجع وجعا شديدا.. فأتى جبرائيل وميكائيل عند رجليه.. فعوذه جبرائيل بقل أعوذ برب الفلق.. وعوذه ميكائيل بقل أعوذ برب الناس.

□ والاعتبار أيضا يشهد على نزول السورتين دفعة واحدة.. فإن مضمونها وهو الاستعاذة واحد.. والاعتبار يشهد كذلك.. على نزول جميع السور القصيرة دفعة واحدة.

□ ومن هنا يتضح أن القرآن الكريم.. لم ينزل على النبي ﷺ دفعة واحدة.. وإنما نزل بالتدريج.. وفي أوقات مختلفة.





الفصل الرابع

القُرْآن الكَرِيْم وَالالفَاظ الأعجَمِيَّة

□ وردت في القرآن الكريم ألفاظ تجري على لسان غير العرب من الأعاجم.. ففيه ألفاظ حبشية.. وفارسية.. ورومية.. ونبطية.. وسريانية.. وعبرانية.

□ فمن الألفاظ التي جرت بلسان الحبشة قوله تعالى:

﴿يُؤتِكم كفلين من رحمتِهِ﴾ (سورة الحديد - الآية ٢٨) أي ضعفين.

﴿يا جِبَالُ أوِّبي معَهُ﴾ (سورة سبأ - الآية ١٠) أي سبحي.

﴿كأنهم حمرٌ مستنفرة فرت من قسورة﴾ (سورة المدثر - الآية ٥١) أي الأسد.

﴿إن ناشئة الليل﴾ (سورة المزمل - الآية ٦) أي قيام الليل.

﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري﴾ (سورة النور - الآية ٣٥) المشكاة: الكوة، والدرى المضيء.

□ ومن الألفاظ التي جرت بلسان الفرس قوله تعالى:

﴿بأكواب وأباريق وكأس من معين﴾ (سورة الواقعة - الآية ١٨) الإبريق طريق الماء.

﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين﴾ (سورة هود - الآية ٤٠) والتنور أي الكانون، أو وجه الأرض.

﴿وأرسل عليهم طيرا أبابيل، ترميهم بحجارةٍ من سجيل﴾ (سورة الفيل الآيات ٣ - ٤) والسجيل حجارة من طين.

﴿عليهم ثياب سندس خضر واستبرق﴾ (سورة الإنسان - الآية

٢١) السندس: رقيق الديباج - والاستبرق: غليظ الديباج.

﴿إذا الشمس كورت﴾ (سورة التكوير - الآية ١) أي غورت.

﴿ختامه مسك﴾ (سورة المطففين - الآية ٢٦) والمسك نوع من الطيب.

﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ (سورة الرحمن - الآية ٥٨) الياقوت: من الأحجار الكريمة يتميز بصفاء اللون.

﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا﴾ (سورة الإنسان - الآية ٥) الكافور: نوع من الطيب.

﴿ومن أهلِ الكتابِ مَنْ إن تَأْمَنْهُ بِقنطارٍ يُؤدِّهِ إليكَ، ومنْهُم مَنْ إنْ تأْمَنْهُ بِدينارٍ لا يُؤَدِّهِ إليكَ إلاَّ ما دمتَ عليهِ قائِماً﴾ (سورة آل عمران - الآية ٧٥) الدينار: عملة نقدية معروفة.

﴿وأما الجدارُ فكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ في المَدِينَةِ وكانَ تحتَهُ كنزٌ لَهُمَا﴾ (سورة الكهف - الآية ٨٢) والكنز: المال المدفون.

□ ومن الألفاظ السريانية قوله تعالى:

﴿على الأرائِكِ ينظرون﴾ (سورة المطففين - الآية ٣٥) الأرائك بمعنى السرر.

﴿مثل الذينَ حمِّلوا التوراةَ ثم لم يحملوهَا كمثلِ الحمار يحمل أسفارا﴾ (سورة الجمعة - الآية ٥) والأسفار: بمعنى الكتب.

﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير﴾ (سورة آل عمران - الآية ١٤٦) والربيون: بمعنى العلماء بربهم.

﴿وقولوا حطة وادخلوا البابَ سجدا﴾ (سورة الأعراف - الآية ١٦١) وسجدا: أي مقنعي الرؤوس.

﴿والطور وكتاب مسطور﴾ (سورة الطور - الآيات ١ - ٢)

والسطور: أي الجبل.

﴿فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني﴾ (سورة القصص - الآية ٧) واليم: أي البحر.

□ ومن الألفاظ النبطية قوله تعالى:

﴿قال أأقررتم وأخذتُمْ على ذلكُمْ إصري﴾ (سورة آل عمران - الآية ٨١) إصري: أي عهدي.

﴿قال الحواريون نحنُ أنصارُ الله﴾ (سورة آل عمران - الآية ٥٢) الحواريون: أصفياء عيسى الخلصاء.

﴿واترك البحر رهواً﴾ (سورة الدخان - الآية ٢٤) رهوا: سهلا.

﴿في صحف مكرمة، مرفوعة مطهرة، بأيدي سفرة﴾ (سورة عبس - الآيات ١٣ - ١٥) السفرة: القراء.

﴿قال فخذ أربعةً من الطيرِ فصرهن إليك﴾ (سورة البقرة - الآية ٢٦٠) صرهن: جزئهن.

﴿وقالوا ربَّنا عجّل لنا قطنا قبل يوم الحساب﴾ (سورة ص - الآية ١٦) قطنا: كتابنا.

﴿وكـــذلـــك نرى إبراهـــيم ملكوت السموات والأرض﴾ (سورة الانعام - الآية ٧٥) الملكوت: الملك.

□ ومن الألفاظ العبرية قوله تعالى:

﴿قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير﴾ (سورة يوسف - الآية ٧٢) البعير: كل ما يحمل عليه.

﴿كتاب مرقوم﴾ (سورة المطففين - الآية ٢٠) مرقوم: مكتوب.

﴿إنا هدنا إليك﴾ (سورة الأعراف - الآية ١٥٦) هدنا: تبنا.

﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً﴾ (سورة الفرقان - الآية ٦٣) هونا: حكماء.

﴿ولولاَ دفعُ اللهِ النَّاسَ بعضَهم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ ومَسَاجِدُ يُذكَرُ فيهَا اسْمُ اللهِ كثيراً﴾ (سورة الحج - الآية ٤٠) الصلوات: كنائس اليهود.

□ ومن الألفاظ الرومية قوله تعالى:

﴿أم حسبتَ أن أصْحَابَ الكهفِ والرَّقيمِ كَانُوا من آياتِنَا عجَباً﴾ (سورة الكهف - الآية ٩) الرقيم: اللوح الذي كتبت فيه قصص أهل الكهف، أو الوادي الذي فيه الكهف.

﴿وطفِقَا يخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ (سورة الأعراف - الآية ٢٢) طفقا: خصفا.

﴿الذين يرثونَ الفردوسَ هم فيها خالدون﴾ (سورة المؤمنون - الآية ١١) الفردوس: البستان.

﴿شهد اللهُ أنه لا إلهَ إلاَّ هو وَٱلملاَئِكَةُ وأُولُواْ العلم قائماً بالقسط﴾ (سورة آل عمران - الآية ١٨) القسط: العدل.

﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ (سورة الشعراء - الآية ١٨٢) القسطاس: العدل.

﴿اهْدِنَا الصِّراطَ المستقيم﴾ (سورة الفاتحة - الآية ٦) الصراط: الطريق.

□ ومن الألفاظ الزنجية قوله تعالى:

﴿وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذابٌ أليم﴾ (سورة هود - الآية ٤٨) أليم: موجع.

﴿إنَّكُم وما تعبدون من دونِ اللهِ حصبُ جهنَّم﴾ (سورة الأنبياء -

الآية ٩٨) الحصب: الحطب.

□ ومن الألفاظ التركية قوله تعالى:

﴿هذا فليذوقُوهُ حميمٌ وغساق﴾ (سورة ص - الآية ٥٧) الغساق: البارد المنتن.

□ هذه هي بعض الألفاظ الأجنبية التي وردت في القرآن الكريم بلغات متعددة.. ومن ثم تساءل بعض الناس. كيف يكون القرآن منزلا بلسان عربي مبين.. وفيه ألفاظ أعجمية؟.

□ وكيف يتفق قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ (سورة إبراهيم - الآية ٤) مع ما ورد من هذه الألفاظ التي تختلف عن لسان العرب؟.

□ يقول ابن جرير الطبري: إن هذه الكلمات المنسوبة إلى اللغات الأعجمية هي ايضا من الألفاظ العربية.. وإنما وردت في اللغات الأخرى من باب الاتفاق.. وتوارد اللغات.. فتكلمت العرب والفرس والحبشة بلسان واحد.. ومن غير الجائز على ذوي الفطر السليمة الذين قرأوا القرآن الكريم.. وأقروا بكتاب الله.. وعرفوا حدوده.. أن يعتقدوا أن بعض القرآن فارسي لا عربي.. وبعضه نبطي لا عربي.. وبعضه حبشي لا عربي.. بعدما أخبر الله تعالى أنه جعله قرآنا عربيا.. وهذا ايضا مذهب الشافعي رضي الله عنه.. وعليه جمهور العلماء.. ويؤيد ذلك الإمام الرازي وأتباعه.

□ فما وقع في القرآن من نحو المشكاة.. والقسطاس.. والاستبرق.. والسجيل.. لا نسلم أنها غير عربية.. بل غايته أن وضع العرب فيها.. وافق لغة أخرى.. كالصابون.. والتنور.. فإن اللغات فيها مختلفة.

□ وهناك رأي آخر يقول: إن هذه الألفاظ الأعجمية التي وردت في القرآن الكريم ألفاظ يسيرة لا يعتد بها.. ولا تخرج القرآن الكريم عن

كونه متكلما بلسان قومه.. وهذا مذهب ابن عباس وعكرمة وغيرهما.

□ ورأي ثالث ينادي به ابن عطية.. ويرى أن الألفاظ أصلها أجنبي.. ولكن العرب بسبب تنقلاتهم واشتغالهم بالتجارة.. وارتحالهم بالشتاء والصيف.. وسفرهم إلى الشام والحبشة والحيرة.. علقت بأسلنتهم ألفاظ أعجمية.. ثم غيرت بعضها بالنقص من حروفها.. والتخفيف من ثقلها.. واستعملتها من أشعارها ومحاوراتها.. حتى جرت مجرى العربي الفصيح.. ووقع بها البيان.. وعلى هذا الحد نزل بها القرآن الكريم.. وهذا ما رجحه أبو عبيد القاسم بن سلام.

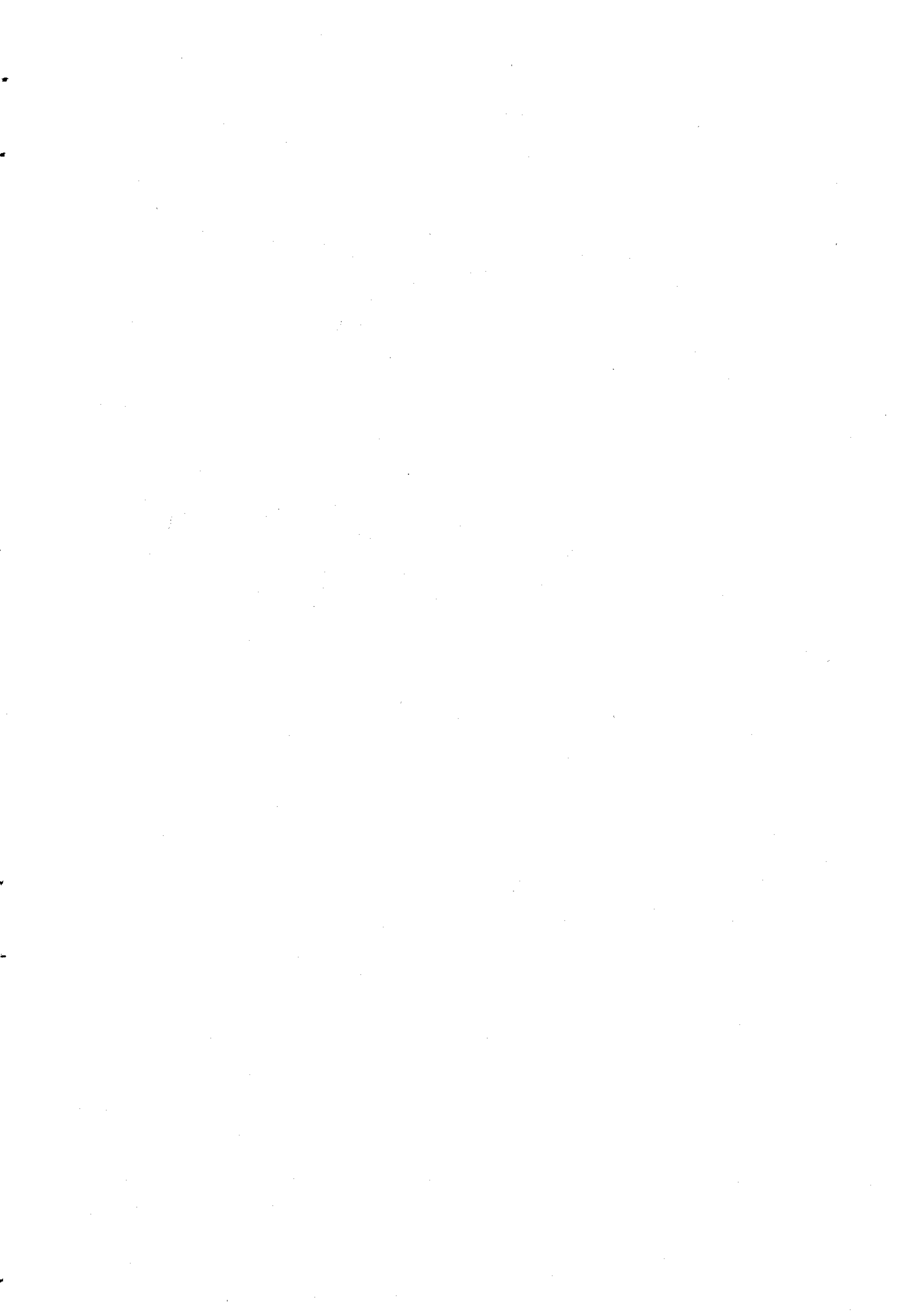
□ فالأصل أن هذه الألفاظ أعجمية.. ولكن العرب نقلوها واستعملوها.. وعربوها.. وبذلك أصبحت جزءا من كلام العرب.. وهو ما تميل إليه.

□ أما ما ذهب إليه الطبري.. وأخذ به جمهور العلماء من أن اللغتين اتفقتا في الألفاظ فهذا بعيد.. لأن أكثر هذه الألفاظ وردت في إحدى اللغات كأصل.. ووردت في اللغة الأخرى كفرع.. أما اتفاق اللغتين في اللغة الواحدة.. فهذا قليل وشاذ.



الفصل الخامس

القِصَّة في القُرْآن الكَريم



□ كانت القصة وما تزال بضاعة القصاص.. مع اختلاف بسيط.. فقد كانوا في الماضي يبيعونها شفاهة.. فأصبحوا اليوم يبيعونها كتابة وطباعة.. وهم في الحالين قصاص.

□ والقصة لغة من قص الأثر.. أي تتبعه.. وفي لسان العرب القصة: هي الخبر وهو القصص.. وقص على خبره يقصه قصا وقصصا: أورده.. والقصص الخبر المقصوص.

□ ويعرف أبو هلال العسكري القصص «عند بيانه للفروق بينها وبين الحديث فيقول: «إن القصص ما كان طويلا من الأحاديث.. متحدثا عن سلف.. ومنه قوله تعالى: ﴿نحنُ نقصُّ عليكَ أحسنَ القصَص﴾ (سورة يوسف - الآية ٣).. وقوله تعالى: ﴿كذلكَ نقصُ عليكَ من أنْبَاءِ ما قدْ سَبَقْ﴾ (سورة طه - الآية ٩٩).. ولا يقال لله قاص.. لأن الوصف بذلك قد صار علما لمن يتخذ القصص صناعة.. وأصل القصص في العربية اتباع الشيء.. ومنه قوله تعالى: ﴿وقالت لأختِهِ قصيه﴾ (سورة القصص - الآية ١١).. وسمى الخبر الطويل قصصا لأن بعضه يتبع بعضا حتى يطول.. وإذا استطاع السامع الحديث قال هذا قصص».

□ ويتبين لنا من تعريف ابن هلال العسكري أنه يقصر القصص على ما كان متعلقا بأحداث وأخبار ماضيه.. وهو ما صرح به في أول الكلام.. ثم كرره عند تعريفه للحديث والفرق بينه وبين القصص فهو يقول: «والحديث يكون عمن سلف وعمن حضر.. ويكون طويلا وقصيرا». وهذا يعني عند أبي هلال أن القصة لا تكون قصيرة لقوله إن القصص ما كان طويلا.. ثم قوله إن الحديث يكون طويلا وقصيرا.. ويمضي في تعريفه للقصص فيقول: «ويجوز أن يقال القصص هو الخبر عن

الأمور التي يتلو بعضها بعضا.. والقصص قطع يستطيل ويتبع بعضه بعضا مثل قص الثوب بالمقص.. وقص الجناح وما أشبه ذلك».

□ «وهذه قصة الرجل يعني الخبر عن مجموع أمره.. وسميت القصة لأنها يتبع بعضها بعضا حتى تحتوي على جميع أمره».

□ ويلاحظ على تعريف أبي هلال العسكري أنه يجمع إلى المعنى اللغوي لكلمة قصة.. ما يمكن أن نعتبره تجاوزا معنى اصطلاحيا.. ونقول تجاوزا لأن أبا هلال لم يقصد منذ البداية وضع مثل هذا التعريف.. وإنما كان يحدد الفروق اللغوية بين الحديث والقصة.. فوجد نفسه منساقا وراء فروق تعد من عناصر المعنى الاصطلاحي.. وإن كانت في الواقع لصيقة بالمعنى اللغوي لكلمة قصة أو قصص.

□ والعناصر أو الفروق التي ذكرها منها يتعلق بشكل القصة من حيث الطول والقصر.. ومنها ما يتعلق بالموضوع الذي تدور حوله القصة.. ومن حيث الطول فإنه يشترط لاعتبار العمل جديرا بوصف القصة أن يكون طويلا.. وهو يتخذ منه الحديث معيارا لقياس طول القصة.. فهي على الأقل يجب أن تكون أطول منه.. وهي إما أن تكون حديثا طويلا.. أو أن تكون خبرا طويلا.. أو عددا من الأخبار التي ترتبط فيما بينها.. ويتبع بعضها بعضا.. وهي في هذا تختلف عن الحديث الذي يتضمن عادة موضوعا واحدا كنصيحة أو توجيه أو أمر أو نهي أو خبر.. ولكنه قصير.

□ وفيما يتعلق بموضوع القصة فإن أبا هلال العسكري يرى أن يكون متعلقا بأحداث أو أخبار ماضية على خلاف الحديث الذي يكون عمن سلف وعمن حضر.. ولكن لا يجب أن نفهم من هذا أنه يقصد أن تكون الأحداث أو الأخبار تاريخية.. أولها صلة بالتاريخ.. فيكفي أن تكون متعلقة بالماضي.. حتى ولو كانت تدور حول أشخاص عاديين..

ويدل على هذا قوله: (وهذه قصة الرجل.. يعني الخبر عن مجموع أمره) فالقصة قد تتناول موضوعا اجتماعيا أو عاطفيا أو سياسيا أو دينيا وغير ذلك.. وهو ما نجده في قصص العرب سواء في الجاهلية أم في الإسلام.

□ وربما ينشأ الظن لدى من يقرأ تعريف أبي هلال العسكري للقصة.. أنه لم يفطن إلى ما يجب توافره من شروط أخرى تتعلق بالشكل الفني للقصة.. سواء من حيث تركيب الأحداث.. أو ارتباط الأخبار.. بحيث يتكون منها سياق عام.. يتضمن كما هو معروف مقدمة ونهاية وتقع بينهما عقدة أو بؤرة تتجمع فيها الأحداث التي اشتملت عليها المقدمة.. وكلنا لا نظن أنه لم يفطن إلى هذا الأمر الذي نلمس إلى أي حد أصبح جزءا من خبرة أصغر صبي يقرأ القصص.. أو يشاهد الروايات في السينما والتليفزيون.. ويميز فيها بين المشوق الذي يتضمن موضوعا معقدا.. ومشكلة غامضة.. ونهاية مثيرة ومعقولة.. وبين القصص الساذج الذي يشعر ان كاتبه يستخف بعقله أو لا يقدر ذكاءه.. ولا شك ان أبا هلال العسكري وغيره من العلماء المسلمين قد سمعوا وقرأوا كثيرا من القصص الذي كان شائعا بدرجة كبيرة في أزمانهم.. ولكنه كما سبق أن قلنا.. لم يكن يضع تعريفا اصطلاحيا للقصة.. وإنما كان يحدد الفروق اللغوية بينها وبين الحديث.

□ ويقول الشيخ محمد متولي الشعراوي في تعريف القصة: «كلمة قصة في ذاتها مأخوذة من قص الأثر.. ومعنى قص الأثر أن يسير المتتبع للأثر على الأثر نفسه.. بحيث لا يتجاوز الأثر أبدا.. ليصل إلى مراده من نهاية الأثر.. فقصاصو الأثر حينما نأتي بهم ليكشفوا لنا جريمة وقعت.. ويرون آثار أقدام.. يسيرون مع الأقدام ليعرفوا أين ذهب صاحب هذه الأقدام؟ أو يفحصون بصمة صاحب القدم حتى يستطيعوا

أن يعرفوه.. فمعنى قص الأثر: أن نتبع الأثر بدون تصرف.. إذن كلمة قصو يجب ألا تقال أبدا في أمر خيالي.. ولا في أمر متوهم.. ولا في أمر لا واقع له.. ويجب أن تطلق على واقع لا يتعداه القاص بخيال أو بغيره أبدا».

□ «والقصة لون من ألوان التاريخ.. فما التاريخ أولا؟ التاريخ ربط الأحداث بالأزمنة.. وإن كان تاريخا لشخص يقول قائل: قد يكون التاريخ لحياة شخص من الأشخاص.. نقول له: الشخص نفسه حدث من أحداث الحياة ايضا.. إذن فما دام التاريخ هو ربط الأحداث بأزمانها فهو كذلك سواء كان فعلا أو فاعل فعل.. إذن فقد يكون التاريخ مرة لحدث.. ثم تدور الأشخاص حول الحدث».

□ «إذن الفكرة في الحدث ذاته.. ثم نأتي بالأشخاص الذين يدورون حول الحديث.. فإذا أرَّخت للثورة الفرنسية فإنك تتعرض للأشخاص الذين كانوا حول هذا الحدث.. فالحدث يتطلب أشخاصا.. وقد يكون التاريخ مقصودا به الشخص.. وتدور الأحداث حوله.. مرة نريد الحدث.. وتأتي الأشخاص الذين يدورون في فلك الحدث.. ومرة نريد الشخص.. وتأتي الأحداث التي تدور حول الشخص».

□ «والقصة لا بد أن تكون حدثا مثيرا من التاريخ.. ودائما تكون فيها عقدة ويوجد فيها الحل للعقدة.. إذن القصة لون خاص من التاريخ.. لا تتعرض لمطلق التاريخ.. بل تتعرض لحدث مثير».. ومن الواضح أن الشيخ محمد متولي الشعراوي يقصد إلى قصر كلمة «قصة وقصص» على ما كانت موضوعاته تاريخية حقيقية.. تفوق غيرها في الإثارة أو الأهمية بمعنى أصح.. وهذه الشروط مجتمعة لا تتوفر إلا في قصص القرآن الكريم الذي يقول فيه الله سبحانه وتعالى: ﴿نحنُ نقصُ عليكَ نبأهم بالحق﴾ (سورة الكهف - الآية ١٣).. ويقول تعالى: ﴿إن

هذا لَهُوَ القصص الحقّ﴾ (سورة آل عمران - الآية ٦٢) وما عدا القصص القرآني الذي يكتبه البشر ويسمونه قصصا.. يجب على أصحابه أن يفطنون جيدا إلى أن ما يصنعون من القصص يجب أن يوضع له اسم غير هذا الاسم.

□ والقرآن الكريم حق كله.. لأنه تنزيل من حكيم حميد.. وقد ورد فيه التعبير عن القصص في مجال الأخبار الواردة عن الأمم السابقة.. وعلى وفق معنى المادة اللغوية كذلك.. فالقص هو تتبع الأثر واقتفاؤه.. يقال: قصصت أثره أي تتبعته.. ولفظ القصص.. مصدر.. قال تعالى: ﴿فارتَدَّا على آثارِهِما قصصاً﴾ (سورة الكهف - الآية ٦٤).. وقال تعالى: ﴿وقالتْ لأختِهِ قصيه﴾ (سورة القصص - الآية ١١).. أي تتبعي أثره حتى تنظري من يأخذه.. وهو موسى عليه السلام حين ألقته أمه في اليم.. وتنظري ما ينتهي إليه أمره ومستقره.. ومن هذا الباب: قص الرؤيا: أي تتبع المنام.. وذكره التحدث به.. قال تعالى على لسان يعقوب عليه السلام مخاطبا ابنه يوسف: ﴿لا تقصصْ رُؤْيَاكَ على إخْوَتِك﴾ (سورة يوسف - الآية ٥).

□ ولهذا وصف الله تعالى قصص القرآن الكريم بأنها حق.. فقال تعالى: ﴿إن هذا لَهُوَ القَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ (سورة آل عمران - الآية ٦٢).. وقال تعالى: ﴿نحنُ نقصُّ عليكَ نبَأَهُمْ بالحقِّ﴾ (سورة الكهف - آية ١٣).. وقال عز من قائل: ﴿نَتْلُواْ عليكَ من نبَأ مُوسىٰ وفرعونَ بالحقِّ﴾ (سورة القصص - الآية ٣).

□ ومعنى ذلك أن الأصل اللغوي والشرعي - الاصطلاحي - لمعنى القصة يؤكد صدقها ووقوعها.. وعلى هذا جرى الاستعمال القرآني.. وإذا أخرجت القصة في هذا العصر لغرض فني أو غير فني.. عن هذا الإطار أو الاستعمال.. فإن من العجيب الغريب أن يحكم على القرآن

باصطلاح أو باستعمال وعرف حادث بعد نزوله.. وقد علم أن من أبسط اصول التفسير أن القرآن الكريم لا يفسر باصطلاح أو عرف او حادث بعد نزوله.. ولنتمعن هذه الآيات البينات.. قال تعالى: ﴿إنَّا أنزلنَاهُ قُرآناً عَربيًّا لعَلكُم تَعقِلُونَ، نحنُ نقُصُّ عَليكَ أحسَنَ القَصَصِ بما أوحَينَا إليكَ هذَا القُرآنَ، وإن كُنتَ من قَبلِه لمنَ الغَافِلينَ﴾.. (سورة يوسف الآيات ٢، ٣) وقال تعالى في سورة هود بعد قصة نوح: ﴿تِلكَ منْ أنبَاءِ الغَيبِ نُوحِيهَا إليكَ مَا كُنتَ تَعلمُها أنتَ ولاَ قَومُكَ مِن قَبلِ هذَا، فاصبِر إنَّ العَاقبةَ لِلمتَّقينَ﴾.. وقال تعالى في سورة آل عمران في بدء عرضه لقصة مريم عليها السلام: ﴿ذلكَ من أنباءِ الغيبِ نُوحيهِ إليكَ، ومَا كُنتَ لدَيهِمْ إذ يُلقُونَ أقلامهُم أيُّهُمْ يَكفُلُ مَريَمَ وما كنتَ لَديهِمْ إذ يَختَصِمُونَ﴾.. ثم قال تعالى بعد قصة خلق عيسى عليه السلام: ﴿إنَّ هذَا لَهُو القَصَصُ الحَقُّ، ومَا مِن إله إلاَّ الله، وإنَّ اللهَ لَهُوَ العَزيزُ الحَكِيمُ﴾. (سورة آل عمران آية ٦٢)

□ وجاء في سورة القصص، قبل عرضه قصة موسى عليه السلام: ﴿نَتْلُواْ عليكَ مِن نبأ موسى وفرعون بالحقِّ لِقَوم يؤمِنُونَ﴾.. وبعد انتهائها: ﴿ومَا كُنتَ بِجَانبِ الغَربيِّ إذْ قَضَيْنَا إلى موسى الأمرَ، وما كُنتَ من الشَّاهدِينَ، ولكِنَّا أنشَأنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عليهِمُ العُمُرُ، وما كُنتَ ثَاوياً في أهلِ مَديَنَ تَتلوا عليهِمْ آيَاتِنَا، ولكِنَّا كنَّا مُرسِلينَ، ومَا كُنتَ بجَانبِ الطُّورِ إذ نَادَيْنَا، ولكِنَّ رحمَةً مِن ربِّكَ لِتُنذِرَ قَوماً ما أَتَاهُم من نَذيرٍ من قَبلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. (سورة القصص الآيات ٤٤، ٤٥، ٤٦)

□ وهذه الآيات البينات لا تؤكد أن القصة حق فحسب.. بل تشير فوق ذلك إلى أن القصة في القرآن الكريم حقيقة تاريخية.. تهدف من جملة ما تهدف إليه.. إلى أن ذلك أحد أغراضها.. إلى جانب إثبات الوحي والرسالة.. إلى أن محمد ﷺ لم يكن كاتبا ولا قارئا.. قال تعالى: ﴿وما كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبلِهِ من كِتَابٍ ولا تَخُطُّهُ بِيمينِكَ إذاً لارتَابَ

المبْطِلُونَ﴾.. (سورة العنكبوت آيـة ٤٨). لم يعرف ﷺ أنـه كـان يجلس إلى أخبار اليهود والنصارى.. ثم جاءت هذه القصص في القرآن الكريم.. وبعضها جاء في إسهاب وتتبع للكثير من الدقائق والتفاصيل كقصص إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى.. إن في ذلك لدليلا على أن ذلك الكتاب وحي يوحى.

□ وهناك حقيقة يؤكدها قوله تعالى: ﴿لا يَأتيهِ البَاطِلُ من بين يَديهِ ولا مِن خَلفِهِ تَنْزِيلٌ من حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.. (سورة فصلت آية ٤٢) وهي أن القرآن الكريم كما توضح الآية الكريمة حق مبرأ من أن يلحقه خطأ وخلل وباطل.. لا من جهة ما أشار إلى وقوعه قبل عصر نزول القرآن.. ولا من جهة ما دل على وقوعه بعد ذلك العصر.. أو يقال في معنى الآية: إن البشرية لن تقف على أي أمر تاريخي أو حاضر أو مستقبل يخالف ما حدث به القرآن الكريم.. ودل عليه.. أو بشر به.. فلو أن الدراسات والبحوث التاريخية الثابتة أو الموثوقة انتهت إلى شيء أخبر القرآن الكريم بخلافه.. لقيل إن الباطل لحق القرآن الكريم من بين يديه.. ولو أن العلوم التجريبية.. والبحوث الفلكية انتهت إلى نظريات ثابتة ارتفعت من درجة الفروض.. إلى مقام النظريات التي لا يتطرق إليها للشك.. ووجدنا في هذه النظريات ما نص القرآن على خلافه.. لقلنا إن الباطل قد لحق بالقرآن الكريم من خلفه.. ولكننا نقول ونؤكد هنا... على وجه اليقين الجازم.. وعلى وجه المناجزة والتحدي كذلك.. إن باطلا ما لن يلحق بالقرآن الكريم.. لا من بين يديه ولا من خلفه.. الآن وغدا وبعد غد.. وحتى يقوم الناس لرب العالمين.. قال تعالى: ﴿لا يَأتيهِ البَاطلُ من بين يَديهِ ولا من خَلفِهِ تَنزِيْلٌ من حَكِيمٍ حَميدٍ﴾. (سورة فصلت آية ٤٢).

□ ولقد حفل القرآن الكريم بالعديد من القصص الديني.. أهمها قصص الأنبياء.. التي تعبر إلى حد بعيد عن الدعوة الإسلامية..

ويرتبط بها ارتباطا وثيقا.. وهو قصص مفعم بالأحداث التاريخية.. والقيم الدينية والاجتماعية والنفسية والخلقية.. ويقصد به العظة والعبرة.. بأسلوب أدبي رائع يستأثر بقلب القارىء وعواطفه.. ولسنا هنا في مجال الإفاضة في عرض القصص القرآنية.. وإنما يجب أن نشير إلى حقائق ثلاثة:

١ - الحقيقة الأولى: أن القصة التي تصدر عن الإنسان.. وما يرتبط ذلك بقدراته وطاقاته الفنية.. وما تعرض له من تجربة.. وما اكتسب من خبرة.. تختلف اختلافا بينا عن القصة التي تصدر عن الذات الإلهية.. التي أنزلت القرآن الكريم على الرسول الأعظم محمد ﷺ.. لأنها أداة تعبيرية عن الدعوة إلى الإسلام.. ذلك لأن القصص في القرآن الكريم جزء من نسيجه الديني.. فهي ليست عملا فنيا مستقلا في موضوعه وطريقة عرضه.. وإدارة حوادثه.. وإنما وردت في القرآن الكريم مفيدة بالغرض الديني.. تستهدف أساسا الدعوة لهذا الدين الحنيف.. وتثبيت دعائمه.. فهذا القصص ليس من خيال بشر رغم أن أبطاله من البشر.. وحواره نطق به أشخاص من البشر.. وأحداثها وقعت طوال تاريخ البشرية.. ولكن الرؤيا التي تتناولها هذه القصص.. والطريقة التي تقدم بها.. والأسلوب الذي تروى به هذه القصص في تركيبه وسبكه.. هو الشيء المثير فيه حقا.. لأنه ليس قصصا عاديا.. بل قصص تشيع فيه القدسية الإلهية.. والنفحة الربانية.

٢ - الحقيقة الثانية: أن أحداث التاريخ ووقائعه في القصص القرآني.. وكذلك الحديث عن الروح والبعث والنشور وقيام الساعة.. إنما هي إعجاز بلاغي.. بما فيه فصاحة في اللفظ.. وحسن أداء في العبارة.. يضاف إلى ذلك ما اكتنفها من تصوير فني.. هو سر الأسرار في إعجاز القصص القرآني.. وذلك أن القصة القرآنية لم تعد سطورا تتلى.. وكلمات تقرأ.. وإنما تختفي هذه السطور والكلمات.. وينتصب

أمام القارىء مسرح عظيم يتحرك فوقه أبطال القصة في شموخ وعبقرية يستطيع الإنسان أن يصغي إليهم في انبهار.. ويشاهدهم ويحسهم ويستمع إليهم في خشوع وخضوع.

٣ - الحقيقة الثالثة: إن أحداث القصص القرآني الدينية.. ووقائعه الاجتماعية لم تقع كلها داخل نطاق الجزيرة العربية.. فقد وقع بعضها خارج هذا النطاق.. وجرى الحوار فيها على أساس من لغات أخرى غير عربية.. ولقد قام القرآن الكريم بانتقاء واختيار لبعض هذا الحوار.. كما قام بالتعريب حين نقله إلينا.. وفعل مثل ذلك في الأحداث التاريخية والوقائع الاجتماعية.. فاختار ما يشاء لمن يشاء.. ولم يقصها بكل أبعادها التي وقعت عليها يوم أن وقعت.

□ واختيار ذلك كله.. وارتباط ذلك كله بالدعوة الإسلامية.. هو الذي يعلنه القرآن الكريم في صراحة ووضوح حين يقول: ﴿نحنُ نقصُّ عَليكَ أحسنَ القَصَص بما أوحَيْنَا إليكَ هذا القُرآنَ﴾.. (سورة يوسف آية ٣) وحين يقول: ﴿فَاقْصُصِ القَصَصَ لعَلَّهُمْ يَتَفكَّرُونَ﴾ (سورة الآعراف آية ١٧٦).

□ والفن القصصي في القرآن الكريم يظهر واضحا في لونين تميز بهما:

١ - اللون التاريخي: ونقصد منه ذلك اللون الذي يدور حول الشخصيات التاريخية من أنبياء ومرسلين وعباد صالحين.. فقد تعرضت قصص الأنبياء عليهم السلام.. قبل بعثة الرسول ﷺ لبعث لم يسلم منه نبي بعثه الله تعالى إلى عباده.. فقد امتد التحريف إلى سيرتهم العطرة.. فجاءت بأحداث لا تحفظ لهؤلاء الأنبياء وقارهم وعصمتهم.. فتقص صحف اليهود المحرفة أخبارا عن نبي يشرب الخمر.. ويزني بابنته.. وعن نبي آخر يرسل جيشه إلى الحرب كي يقتنص امرأته.. وعن نبي ثالث ينكفىء

على عبادة الأصنام.. بعد أن تزوج وهو شيخ من صبية حسناء تعبد صنما.. فآثر إرضاءها بعبادة هذا الصنم على إرضاء خالقه.

□ هكذا صور اليهود أنبياء الله الذي اصطفاهم في صحفهم وأوراقهم.. ولولا قصص القرآن الكريم ما عرفنا حقيقة هؤلاء الأخيار من رسل الله تعالى.. فقد أرشدنا إلى أن هؤلاء الرسل الأطهار هم من أنقى الخلائق التي أسكنها الله سبحانه وتعالى هذه الدنيا منذ أن خلقها.. وهم لم يختاروا أنفسهم للرسالة.. وإنما اختارهم الله سبحانه وتعالى لعلمه السابق أنهم أنقى ما في الوجود.. وأفضلهم عقولا وقلوبا.. ولذلك أسماهم رسل الله.. لأنهم لا يخطئون فيما يرسلهم به الله.. إن لهم عصمة من نوع معين.. كما أنه لهم معجزات من أنواع عديدة.. أما عصمة الأنبياء فتعني أنهم لا يرتكبون خطيئة كبيرة ولا صغيرة.. لا قبل البعثة ولا بعدها.. ولكنهم في نهاية الأمر بشر يمشون في الأسواق.. ويأكلون الطعام.. ويعيشون ويموتون.. أما معجزاتهم فقد جرت سنة الله في أنبيائه ورسله أن يؤيدهم بالخوارق.. فمن الأنبياء من كانت معجزته الطوفان.. كنوح عليه السلام.. ومنهم من كانت معجزته ناقة ولدت من كصالح عليه السلام.. ومنهم من كانت معجزته عصا تتحول إلى حية تسعى كموسى.. ومنهم من كانت معجزته في إحياء الموتى ومخاطبتهم كعيسى ابن مريم.. ومنهم من كانت معجزته كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. كمحمد رسول البشرية الأعظم.

□ فمن القرآن الكريم عرفنا قصص هؤلاء الأنبياء الأبرار بحق مصدق.. ورغم أن القرآن الكريم ليس كتابا في التاريخ يقص علينا أحداث الحقب الغابرة.. إلا أن هناك قصصا في القرآن تدون بجميع أحداثها وتفصيلاتها.. وهناك قصص أخرى تهمل بعض الأحداث والتفصيلات.. كذلك توجد قصص طويلة مثل قصص موسى وإبراهيم ونوح.. وقصص أخرى قصيرة مثل قصص هود وصالح ولوط وشعيب..

إلى جانب قصص اخرى متناهية من القصر.. كقصص زكريا وأيوب ويونس.. وهناك قصص تعرض في سياق قصص اخرى كقصة يعقوب.. إذ تعرض في سياق قصة يوسف.. وقصص تعرض بغير ذكر أسماء أبطالها.. كما جاء في قصة أهل الكهف.

□ ونلاحظ أن القصص في القرآن الكريم.. لم يقصد به التاريخ المحدد.. وسرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنة وقوعها.. وإنما قصد به الاعتبار والعظة.. وتثبيت أفئدة الأنبياء لما ينالونه من أذى أقوامهم.. وما يشعرون به من ضيق لجحودهم.. يقول تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعضَ مَا يُوحى إِلَيكَ وضَائِقٌ بهِ صَدرُكَ﴾.. (سورة هود آية ١٢) ويقول تعالى: ﴿وكُلاًّ نَقُصُّ عَليكَ من أنبَاءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بهِ فُؤَادَكَ﴾.. (سورة هود ١٢٠) ويؤيدنا في ذلك المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده.. فقد جاء في تفسير المنار ما نصه: «إن كثيراً من أعداء القرآن يأخذون عليه عدم الترتيب في القصص.. ويقولون هنا إن الاستسقاء وضرب الحجر.. كان قبل التيه.. وقبل الأمر بدخول القرية.. فذكرها هنا بعد تلك الوقائع.. والجواب عن هذه الشبهة يفهم مما قلناه مرارا في قصص الأنبياء والأمم الواردة في القرآن.. وهو أنه لم يقصد بها التاريخ.. وسرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنة وقوعها.. وإنما المراد بها الاعتبار والعظة».

□ وفي صفحة أخرى من تفسير المنار يقول الأستاذ الإمام: «جاءت هذه الآيات على أسلوب القرآن الخاص الذي لم يسبق إليه.. ولم يلحق فيه.. فهو في هذه القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين.. ولا طريقة الكتاب.. في تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع.. حتى في القصة الواحدة.. وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب.. ويحرك الفكر إلى النظر تحريكا.. ويهز النفس للاعتبار هزا».

□ وواضح من نصوص تفسير المنار أن الأستاذ الإمام رحمه الله يرى أن ترتيب الأحداث في القصص القرآني.. يرجع إلى اعتبار بلاغي خاص.. من أجله يقوم البعض على أساس عاطفي.. وأنه في ذلك يخالف الأساس الذي قوم عليه ترتيب الأحداث عند المؤرخين.. وهذا مثال من اللون التاريخي في قصص القرآن.. قال تعالى: ﴿كَذَّبت قَومُ لُوطِ المرسَلينَ، إذ قَالَ لَهُمْ أخُوهُمْ لُوط ألا تَتَّقُون، إني لكُم رَسُول أمِينٌ، فاتَّقُوا اللهَ وأطِيعُون، وما أسألُكُم عَليهِ من أجرٍ إن أجرِيَ إلاَّ على ربِّ العَالمينَ، أتأتُونَ الذكْرَانَ من العَالمينَ، وتَذرَوُنَ ما خَلَقَ لكُم ربُّكم مِن أزوَاجِكُم بل أنتُم قَومٌ عادُونَ، قَالُوا لَئن لم تَنتهِ يا لُوطُ لتَكُونَنَّ منَ الـمُخرَجِينَ، قالَ إنِّي لعملكم منَ القَالِينَ، ربِّ نَجِّني وأهلِي مـمَّا يَعملُونَ، فنَجَّيناهُ وأهلَهُ أجمَعينَ، إلاَّ عَجوزاً في الغَابرينَ، ثم دَمَّرنَا الآخَرِينَ، وأمطَرنَا عَليهِم مَطراً فَساءَ مَطرُ المنذَرِينَ، إنَّ في ذلكَ لآيَةً وما كانَ أكثَرهُم مُؤمِنينَ، وإنَّ ربّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحيمُ﴾. (سورة الشعراء الآيات من ١٦٠ - ١٧٥).

٢ - اللون الديني: إن من أهم أغراض قصص القرآن الكريم.. هو الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.. وإثبات اليوم الآخر.. وتبشير المؤمنين.. وتحذير الكافرين.. وبيان سنة الله عز وجل في إهلاك المكذبين بالدين.. كما ترينا نعمة الله السابغة على أنبيائه.. وترسم لنا صورا رائعة للعلاقات الإنسانية كما يراها الله سبحانه وتعالى.. وتبين لنا قصص القرآن الكريم أيضا أن الأبوة والبنوة.. وقرابة الدم.. وصلة الرحم.. ووحدة الأرض والجنس.. أو اللون.. ليست هي الروابط الأساسية المتينة بين الناس أجمعين.. وإنما الرابطة القوية التي لا انفصام لها هي الإيمان بالله.. والحب لذاته سبحانه وتعالى.. فهذه الرابطة المقدمة هي السبيل الوحيد الذي يباركه رب العرش العظيم..

أما بقية الروابط الإنسانية.. فهي غرائز وعصبيات يرتفع فوقها من يؤمن بالله عز وجل.. ويسلم لذاته الكريمة.

□ وإلى جانب ذلك تتناول قصص القرآن الكريم أغراضا عديدة.. لا تكاد تقع تحت حصر.. تتناول الصراع بين الخير والشر.. الصراع بين النبي ﷺ.. أي نبي.. والكافرين برسالته.. إن هناك خيطا واحدا يشد كل قصص الأنبياء في القرآن الكريم.. ويبدو واضحا جليا في نسيجها المحكم المعجز الرائع.. هذا الخيط الواحد.. هو هذا الصراع المرير.. إذ لا يكاد أي نبي مرسل يبدأ دعوته إلى الله سبحانه وتعالى.. حتى تثور الدنيا كلها ضده.. ووضع العقبات أمام سلامه وأمنه ودعوته.. وأي مشقة يلقاها هذا النبي في سبيل تبليغ رسالة ربه وأي بلاء؟! ذلك أن دعوته هذه تعني تغييرا جذريا في نظام الحياة.. وعودة القيم والأخلاق والفضيلة إليها.. وهذه الدعوة تعني صراعا هائلا بين الحق الذي ينادي به الرسول.. والباطل الذي يوسوس به الشيطان.. إلى أن يأذن الله سبحانه وتعالى بأن ينتصر الحق.. وينهزم الباطل بأمر الواحد القهار.

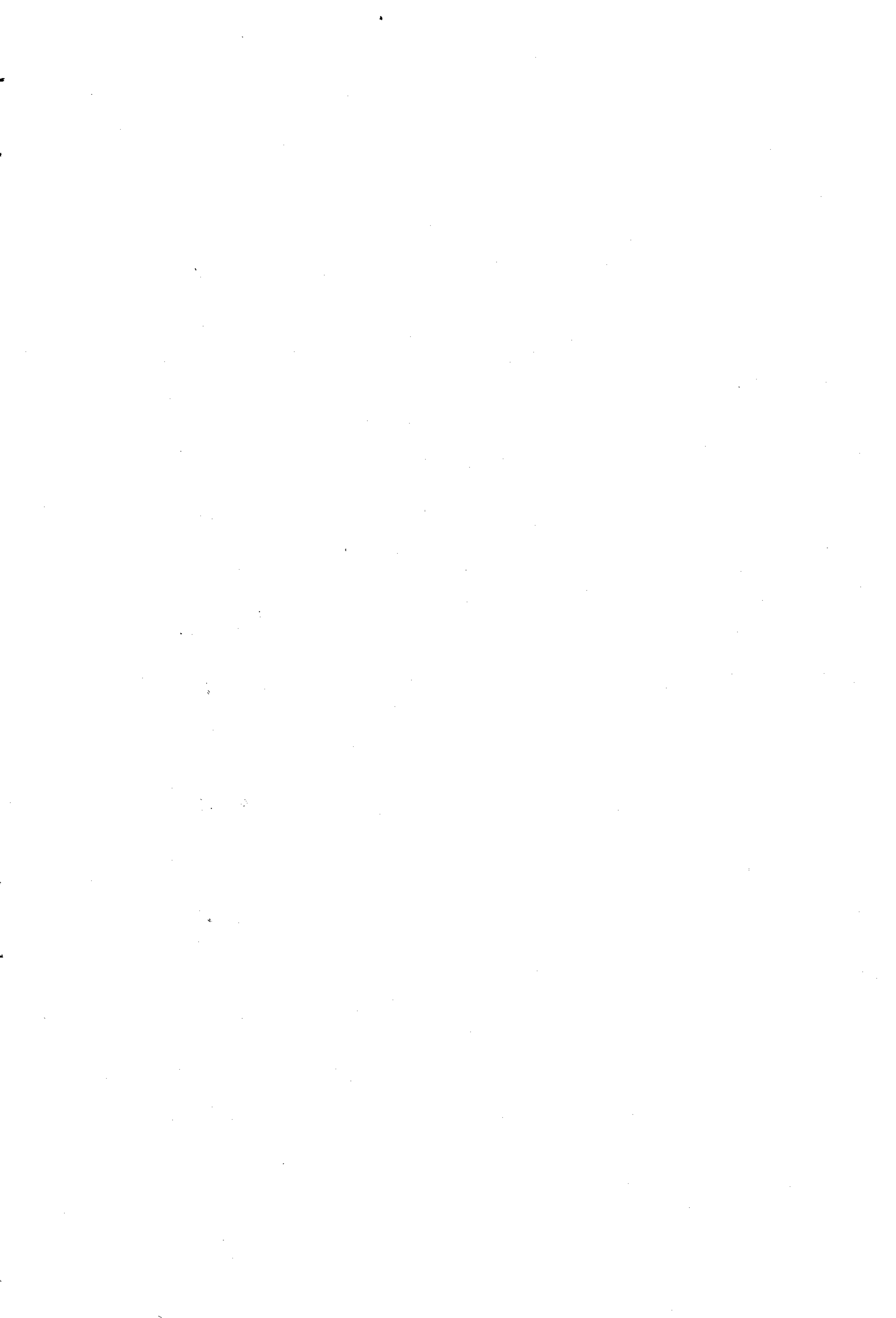
□ وهذا مثال من اللون الديني من قصص القرآن الكريم.. قال تعالى: ﴿وإذْ قالَ رَبُّكَ للملآئكَةِ إني خَالِقٌ بَشَراً مِن صَلصالٍ مِن حَمَإٍ مَسنُون، فَإذَا سَويتُهُ ونَفَختُ فِيه مِن رُوحِي فَقَعُوا لهُ سَاجدِينَ، فَسَجدَ الملائِكَةُ كُلُهُم أجمعُونَ، إلاَّ إبليسَ أبَى أن يَكُونَ مَعَ السَاجدينَ، قالَ يا إبليسُ ما لَكَ ألاَّ تكوُنَ مَعَ السَاجدينَ، قَالَ لَمْ أكُنْ لأسجُدَ لبَشرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسنُونٍ، قَالَ فأخرُج مِنها فإنكَ رَجِيمٌ، وإنَّ عليكَ اللعنةَ إلى يَومِ الدينِ، قالَ رَب فأَنظِرني إلى يَوم يُبعَثُونَ، قَالَ فإنَكَ مِنَ الـمُنظَرينَ، إلى يوم الوقتِ المعَلُوم، قال رَب بما أَغويتَنِي لأُزَينَنَّ لَهُم في الأرض ولأُغوينَّهُم أجمَعِين، إلاَّ عِبَادَكَ منهُمُ الـمُخلَصِينَ، قَالَ هَذا صِرَاط عَلَيَّ مُستقيمٌ، إنَّ عِبادِي ليسَ لَكَ عَليهِم سُلطانٌ إلاَّ مَنِ اتبعَكَ

مِنَ الغَاوِينَ، وإِنَّ جَهَنَّمَ لَموعِدُهُم أجمعِينَ، لَهَا سبَعةُ أبواب لِكُل بَابٍ مِنهُم جُزءٌ مَقسُومٌ، إنَّ المتقينَ في جنَّاتٍ وعُيوُن، ادخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمنينَ﴾. (سورة الحجر الآيات من ٢٨ - ٤٦)



الفصل السادس

إعجاز القرآن الكريم



□ حينما صدع الرسول محمد ﷺ بأمر ربه.. وأخذ يدعو عشيرته الأقربين.. ثم أهل مكة جميعاً إلى الإسلام.. لم يكن له سلاح يستعين به غير القرآن الكريم.. يتلوه عليهم جميعا.. فناصبته قريش العداء.. واحاطت بقلوب أبنائها أغلفة غلاظ حتى لا ينفذ إليها تأثير القرآن الكريم وسحره وروعته وبلاغته.

□ كان سادة قريش يجتمعون كثيرا.. ويطيلون البحث والجدل في شأن النبي ﷺ.. وفي شأن قرآنه الكريم الذي ينزل عليه من رب العالمين.. وقد خشيت قريش ان يستميل الرسول ﷺ الحجاج الذين كانوا يفدون على مكة المكرمة في موسم الحج.. فتشاوروا فيما بينهم للقضاء على الدعوة الإسلامية وهي لا تزال في مهدها.

□ ويروي البيضاوي أن الوليد بن المغيرة مر بالرسول ﷺ وهو يقرأ سورة السجدة فأتى قومه وقال: «لقد سمعت عن محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس والجن.. إن له لحلاوة.. وإن عليه لطلاوة.. وإن أعلاه لمثمر.. وإن أسفله لمغدق.. وإنه يعلوا ولا يعلى عليه».

□ فقالت قريش: «صبأ الوليد» فقال ابن أخيه أبو جهل: «أنا أكفيكموه» فقصدوا اليه حزينا.. وكلمه بما أحماه.. فقام فناداهم فقال: «تزعمون أن محمدا مجنون؟! وتقولون إنه كاهن.. فهل رأيتموه يتكهن؟! وتزعمون أنه شاعر.. فهل رأيتموه يتعاطى شعرا؟! فقالوا: لا.. فقال لهم: ما هو إلا ساحر.. أما رايتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه».. ففرحوا بقوله.. وتفرقوا عنه متعجبين منه.

□ ولقد أغضب هذا العمل الرسول الكريم.. ونعى القرآن الكريم على الوليد بن شعبة بقوله: ﴿ذرني ومن خلقت وحيدا، وجعلت له مالا

ممدودا، وبنين شهودا، ومهدت له تمهيدا، ثم يطمع أن أزيد، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا، سأرهقه صعودا، إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر﴾ سورة المدثر الآية من ١٠ - ٢٠).

□ وأدركت قريش أن أساليبها في صد الدعوة الإسلامية عن المضي في طريقها لم تفلح.. وأنه لا بد من عمل آخر.. فتشاوروا على عاداتهم وانتدبوا «عتبة بن ربيعة» لكي يذهب إلى النبي ﷺ يفاوضه في ترك هذه الدعوة.. على أن يجمعوا له الأموال حتى يصير أغنى قريش.. أو يجعلوا له الرياسات التي يصبح بها أرفعهم مقاماً.. وأعزمهم ملكا.. أو يتلمسوا له الطب حتى يبرأ من هذا الذي يأتيه فينطقه بكلام عجيب.

□ وقد سمع الرسول ﷺ لعتبة بن ربيعة صابرا.. فلما انتهى قال له: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم.. قال له النبي ﷺ: «فاستمع مني».. ثم أخذ يتلو عليه سورة فصلت: ﴿حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرحمن الرحيم، كتابٌ فُصِّلتْ آياتُهُ قرآناً عَرَبيّاً لِقَوْمٍ يعْلَمُونَ، بَشِيراً ونَذِيراً فَأَعرضَ أكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ، وقَالُوا قُلوبُنَا في أكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إليهِ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ومِنْ بَيْنِنَا وبينِكَ حِجَابٌ فاعملْ إنَّنَا عاملُونَ، قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فاستَقِيمُوا إليهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ، وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (سورة فصلت - الآيات ١ - ٦).

□ فلما فرغ الرسول ﷺ من تلاوته قال لعتبة: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك».

□ فانصرف عتبة إلى قريش مأخوذا بجلال ما رأى وسمع.. مأخوذا بعظمة هذا الرجل وسحر بيانه.. فما أن رأت قريش صاحبها حتى قال بعضهم لبعض: «نقسم بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به» فلما جلس إليهم قالوا: «ما وراءك يا أبا الوليد؟» قال: «ورائي أني سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط.. والله ما هو بالشعر.. ولا

بالسحر.. ولا بالكهانة.. يا معشر قريش أطيعوني.. واجعلوها بي.. وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه.. فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم.. فإن تصبه العرب قد كفيتموه بغيركم.. وإن يظهر على العرب فملكه ملككم.. وعزه عزكم.. وكنتم أسعد الناس».

□ فقالت قريش وهي آسفة عليه وعلى ما أصابه: «سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه».. فأشاح عنهم وقال: «هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم»..

□ وكان عمر بن الخطاب يعارض الدعوة الإسلامية معارضة شديدة في مبدأ الأمر.. فقد خرج متوشحا بسيفه يريد الرسول ﷺ.. فلقيه نعيم بن عبيد الله فقال له: «أين تريد يا عمر؟». فقال: «أريد محمدا.. هذا الصابئي الذي فرق أمر قريش.. وسفه أحلامها.. وعاب دينها.. وسب آلهتها.. فأقتله».

□ فقال له نعيم: «والله لقد غرتك نفسك يا عمر.. أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض.. وقد قتلت محمدا.. أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم».

□ قال: «وأي أهل بيتي؟» قال له: ختنك «زوج أختك» وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو.. وأختك فاطمة بنت الخطاب.. فقد والله أسلما وتابعا محمدا ﷺ على دينه.. فعليك بهما.

□ فرجع عمر عائدا إلى أخته وختنه.. وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها: ﴿طه، ما أنزَلْنَا عليكَ القرآنَ لتشقى﴾ (سورة طه - الآيات ١ - ٢) يقرئها إياها.. فلما سمعوا صوت عمر اختفى خباب في البيت.. وأخفت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة.. وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب.. فلما دخل قال: «ما هذه الهينمة التي سمعت؟» قالا له: ما سمعت شيئا.. قال: بلى.. لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على

دينه.. وبطش بختنة سعيد بن زيد.. فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضربها.. فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: «نعم لقد أسلمنا.. وآمنا بالله ورسوله.. فاصنع ما بدا لك».

□ فلما رأى عمر ما بأخته من الدم.. ندم على ما صنع.. فارعوى وقال لأخته: «أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفا.. أنظر ما هذا الذي جاء به محمد».

□ فقالت له أخته: «إنا نخشاك عليها» قال: «لا تخافي» وحلف بآلهته ليردنها إليها إذا قرأها.. فقالت له: يا أخي إنك نجس على شركك.. وإنه لا يمسها إلا الطاهر.. فقام عمر فاغتسل.. فأعطته الصحيفة وفيها: «سورة طه» فلما قرأ صدرا منها قال: «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه».

□ فلما سمع ذلك خباب.. خرج إليه فقال له: يا عمر والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه.. فإني سمعته أمس وهو يقول: «اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام.. أو بعمر بن الخطاب.. فالله الله يا عمر».

□ فقال له عمر: «فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم».. فقال له الخباب: «هو في بيت عند الصفا» «بيت ابن أبي الأرقم» معه فيه نفر من أصحابه» فأخذ عمر سيفه فتوشحه.. ثم عمد إلى رسول الله ﷺ فضرب عليهم الباب.. فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ.. فنظر من خلل الباب فرأى عمراً متوشحا بالسيف.. فرجع إلى الرسول ﷺ وهو فزع فقال: «يا رسول الله ﷺ هذا عمر بن الخطاب متوشحا بالسيف.. فقال حمزة بن عبد المطلب: «فأذن له.. فإن كان جاء يريد خيرا بذلنا له.. وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه».

□ فقال رسول الله ﷺ: «ائذن له» فأذن له الرجل.. ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه بالحجرة.. فأخذ بمجمع ردائه.. ثم جبذه جبذة شديدة وقال: «ما جاء بك يا ابن الخطاب.. فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة» فقال عمر: «يا رسول الله.. جئتك لأومن بالله ورسوله.. وبما جاء من عند الله».. فكبر الرسول ﷺ عرف أهل البيت من أصحاب الرسول ﷺ أن عمر بن الخطاب قد أسلم.

□ وخرج عمر بن الخطاب أمام رسول الله ﷺ وهو متهلل الوجه حتى دخل الكعبة.. فقالت قريش: «أتاكم عمر مسرورا.. ما وراءك يا عمر؟» فصاح بهم: «ورائي لا إله إلا الله محمد رسول الله.. فإن تحرك أحد منكم لأمكنن سيفي منه».

□ وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يتهدج صوته..ولا يملك عينيه إذا قرأ القرآن في صلاته.. وكان لتلاوته وبكائه في الصلاة من التأثير الجاذب إلى الإسلام.. ما دفع المشركين على منع أبي بكر الصديق من الصلاة بالتلاوة في المسجد الحرام.. وعللوا ذلك بأنه يفتن عليهم نساءهم وأولادهم.. فاتخذ مسجد له بفناء داره.. فطفق النساء والأولاد الناشؤون ينسلون من كل حدب إلى بيته ليلا لاستماع القرآن الكريم.. فنهاه أشراف المشركين بأن العلة لا تزال وأنهم يخشون أن يغلبهم نساؤهم وأولادهم على الإسلام.. حتى الجأوه إلى الهجرة فهاجر.. فلقي في طريقه «ابن الدغنة» سيد قومه.. فسأله عن سبب هجرته.. فأخبره الخبر.. وهو يعرف فضائل أبي بكر الصديق قبل الإسلام.. فأجاره وأعاده إلى مكة المكرمة بجواره ومنعه منهم.

□ وقد روى البخاري في صحيحه ما نصه: «فلم تكذب قريش تجوار ابن الدغنة».. وقالوا لابن الدغنة: ومر أبا بكر فليعبد ربه في داره.. فليصلِّ فيها.. وليقرأ ما يشاء.. ولا يؤذينا بذلك.. ولا يستعلن به..

فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا ».

□ فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر.. فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره.. ولا يستعلن بصلاته.. ولا يقرأ في غير داره.. ثم بدأ لأبي بكر فابتنى مسجدا بفناء داره.. وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن الكريم.. فتقذف « تتزاحم » عليه نساء المشركين وأبناؤهم.. وهم يعجبون منه.. وينظرون إليه.

□ وكان أبو بكر الصديق رجلا بكاء.. لا يملك عينيه من البكاء إذا قرأ.. وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين.. فأرسلوا إلى ابن الدغنة.. فقدم عليهم فقالوا: « إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك.. على أن يعبد ربه في داره.. فقد جاوز ذلك.. فابتنى مسجدا بفناء داره.. فأعلن الصلاة والقراءة فيه.. وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا.. فانهه.. فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل.. وإن أبى إلا أن يعلن ذلك.. فسله أن يرد إليك ذمتك.. فإنا قد كرهنا أن نخضرك « ننقض عهدك » ولسنا مقربين لأبي بكر الاستعلان ».

□ قالت عائشة: « فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: « قد علمت الذي عاقدت لك عليه.. فإما أن تقتصر على ذلك.. وإما أن ترجع إلى ذمتي.. فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له ».

□ فقال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه: « فإني أرد إليك جوارك.. وأرضى بجوار الله عز وجل ».

□ ويقص علينا التاريخ كيف آمن كل عربي استمع إلى القرآن الكريم.. فوجوده فوق قول البشر.. فها هو ذا أعرابي يسمع أحد المسلمين يقرأ.. « فاصدع بما تؤمر » فيسجد ويقول: « سجدت لفصاحته ».

□ وهذا مشرك يستمع إلى قول الله تعالى: ﴿فلما اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا

نَجِيًّا﴾ (سورة يوسف - الآية ٨٠).. فيقول: «أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام».. وهذا جبير بن مطعم يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بسورة الطور.. فلما بلغ الآية الكريمة: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَالِقُونَ• أَمْ خَلَقُوا السَّمَوات والأرضَ بَلْ لاَ يُوْقِنُونَ﴾ (سورة الطور - الآيتان ٣٥ - ٣٦) كان قلبي يطير وأسلمت.

□ وإذا كان ذلك هو ما تركه القرآن الكريم من أثر رائع في نفوس المشركين.. عند سماعهم له.. لبلاغته.. ودقة نظمه.. وروعة أسلوبه.. فدخل الكثيرون منهم مبهورين في دين الله أفواجا.. فماذا كان أثره في نفوس المؤمنين من أتباع محمد ﷺ؟.

□ لقد كان المسلمون الأوائل يرتلون ما يحفظونه من القرآن في صلواتهم.. وقت أن أمر بالتبشر بالدعوة الإسلامية.. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّها الْمُزَّمِلُ• قُمِ الليلَ إِلاَّ قليلاً• نِصفَهُ أَوِ أَنقُصْ مِنهُ قليلاً• أو زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ القرآنَ ترتيلاً﴾ (سورة المزمل - الآيات ١ - ٤).

□ وكان الذي يمر ليلا ببيوت الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.. يسمع فيها مثل دوي النحل من تلاوة القرآن الكريم.. وقد غلا بعضهم فكان يقوم الليل.. حتى اشتكى منهم نساؤهم.. فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك.. وكان هو يصلي في كل ليلة إحدى عشرة ركعة.. يوتر بواحدة منهن.. وما قبلها مثنى مثنى.. وكان يطيل فيهن.. حتى تورمت قدماه من طول القيام.. فأنزل الله تعالى عليه مرفها ومسليا: ﴿طه• مَا أَنزلْنَا عَلَيكَ القُرآن لتَشْقَىٰ• إِلاَّ تذكِرةً لِمَنْ يَخْشَىٰ • تَنْزِيلاً مِمَّن خَلَقَ الأَرْضَ وَٱلسَّمَوَاتِ ٱلْعُلَى• ٱلرَّحْمٰنُ عَلَىٰ ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ• لَهُ ما فِي ٱلسَّمٰوات وَمَا فِي ٱلأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ• وإِن تَجْهر بِٱلقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وأَخْفَى• ٱللهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ ٱلأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَى﴾ (سورة طه الآيات ١ - ٨).

□ وقد وصف الله تعالى فعل القرآن الكريم في هؤلاء المؤمنين بقوله: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحسَنَ الحَديثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنهُ جُلُودُ الَّذينَ يَخْشَونَ رَبَّهُم، ثُمَّ تَلينُ جُلُودُهُم وَقُلُوبُهُم إلى ذِكرِ اللهِ، ذلكَ هُدَى اللهِ يَهدي بهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ (سورة الزمر - الآية ٢٣)

□ وكثيرا ما كان النبي ﷺ يتلو القرآن فيبكي.. أو يتلى عليه القرآن فيبكي.. وقد روى ابن مسعود قال: «قال لي رسول الله ﷺ أقرأ علي.. ففتحت سورة النساء.. فلما بلغت قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كلِّ أمةٍ بشهيدٍ وجِئْنَا بكَ على هَؤُلاءِ شهيداً﴾ (سورة النساء - الآية ٤١) رأيت عينيه تذرفان الدمع.. فقال حسبك الآن».

□ ولقد دعا القرآن الكريم قريشا إلى أن تحاول محاكاته.. أو تجتهد ما وسعها الاجتهاد في الإتيان بكتاب مثله: ﴿قُلْ فأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عندِ اللهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إن كُنْتُمْ صادِقينَ● فإن لم يَسْتَجِيبُواْلكَ فاعْلَمْ أَنَّمَا يتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ، ومَنْ أَضَلُّ مِمَّن اتَّبَعَ هَواهُ بغيرِ هُدىً من اللهِ، إنَّ اللهَ لا يَهْدِي القومَ الظَّالمينَ﴾ (سورة القصص - الآيات ٤٨ - ٥٠).. ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجنُّ على أن يأْتُوا بِمِثْلِ هذا القرآنِ لا يأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظهيراً﴾ (سورة الإسراء - الآية ٨٨).

□ ثم مضى القرآن الكريم في تحديه لقريش وبلغائها وشعرائها وخطبائها.. فلم يطالب بكتاب.. ولكن بعشر سور.. ﴿أَمْ يقُولونَ افتَراهُ، قُلْ فأْتُوا بعشرِ سورٍ مِثْلِهِ مُفْترَياتٍ، وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صَادقينَ﴾ (سورة هود - الآية ١٣).

□ ثم مضى القرآن الكريم خطوة أخرى.. فطلب في تحديه أن تأتي قريش بسورة واحدة: ﴿وإن كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنَا فأْتوا

بسورةٍ من مثلهِ وٱدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ، فإنْ لَمْ تفعَلُوا ولَنْ تَفْعَلُوا فٱتَّقُوا النارَ التي وُقُودُهَا النَّاسُ والحِجَارَةُ أُعِدَّتْ للكَافِرينَ﴾ (سورة البقرة - الآيات ٢٣ - ٢٤).

□ وليس من شك في أن قريشا قد حاولت محاولات غير مجدية في الرد على تحدي القرآن الكريم حينما لجأ شعراؤها ومتنبؤها إلى سجع الكهان.. وهو لا يرقى مطلقا إلى مرتبة البلاغة القرآنية.. ولكن هذه المحاولات تلاشت كما يتلاشى الزبد ويذهب جفاء.. ولم تعلق بذاكرة أحد.. ذلك لأن آيات القرآن الكريم كانت دائما تخاطب عقولهم.. وتستهوي أسماعهم.. بلغة بليغة إلى حد الإعجاز.. رقيقة كالجدول العذب.

□ وقد ذكر العلماء خمسة أسباب لذلك فقالوا:

أولا: أتى القرآن بآيات وجيزة حد إيجاز.. وهي على الرغم من إيجازها اشتملت على معان كثيرة.. ليس في مكنة أحد أن يأتي بها.. إلا باستخدام تعبيرات مطولة لكل معنى من معاني الآية الواحدة المتعددة.. التي هي في بلاغتها وفصاحتها تؤثر بمعانيها الساحرة في النفوس فتجعلها تذعن وتؤمن.. كما في قوله تعالى: ﴿واشتعلَ الرأسُ شَيْباً﴾ (سورة مريم - الآية ٤) فإن في هذه الآية الكريمة ما يفيد الشمول.. أي أن الشيب قد شاع في الرأس.. وأخذه من كل نواحيه.. حتى لم يبق من السواد شيء.

□ ومثل ذلك عندما نقول: «اشتعل البيت نارا.. فيكون المعنى أن النار وقعت فيه وقوع الشمول.. وأنها قد استولت عليه.. وعلى النقيض من ذلك عندما نقول: «اشتعلت النار في البيت» فإن ذلك يفيد بأن النار قد أصابت جزءا منه فقط.

ثانيا: نزل القرآن في عصر اتفق الرواة على أنه أرقى العصور عند

العرب شعرا وبلاغة وفصاحة.. ولقد حوى القرآن الكريم جميع قواعد البيان والبديع دون أن يترك قاعدة واحدة منها.. لم يستطع بليغ من بلغاء العرب أن يصل إلى هذا الكمال الجامع.. مهما كانت فصاحته وبلاغته.. ويدلل على ذلك الإمام السيوطي في كتابه الإتقان بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الحياةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ من السَّماءِ فَٱخْتَلطَ بِهِ نباتُ الأرضِ مما يأكلُ النَّاسُ والأنعامُ حتى إذا أخذتِ ٱلأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وظنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قادرونَ عليها أَتَاهَا أَمْرنَا ليلاً أو نهاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَمْ تَغْنَ بِٱلأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلآيآت لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة يونس آية ٢٤).

□ يقول الإمام السيوطي: «فإن فيه عشر جمل رفع التركيب من مجموعها بحيث لو سقط منها شيء اختل التشبيه.. إذا المقصود تشبيه حال الدنيا في سرعة تقصيها.. وانقراض نعيمها.. واغترار النفس بها.. بحال ماء نزل من السماء.. وأنبت أنواع العشب.. وزين بزخرفها وجه الأرض كالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة.. حتى إذا طمع أهلها فيها.. وظنوا أنها مسلمة من الحوائج.. أتاها بأس الله فجأة.. فكأنها لم تكن بالأمس».

□ وكذلك روى هؤلاء البلغاء من العرب في القرآن الكريم.. جزالة في الألفاظ.. وروعة في الأسلوب.. يشتد أحيانا فيكون في قوته كالقارعة العنيفة تهز المشاعر والحواس كما في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ ٱتَّقُوا ربَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ (سورة الحج الآيات ١ - ٢).

□ ويصور القرآن الكريم جهنم في مشهد مروع حافل بالحياة والحركة..

فيقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ• إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ• تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (سورة الملك - الآيات ٦ - ٨).. فهي مغيظة محنقة تحاول أن تكظم غيظا حين ألقي إليها المجرمون.. ولكأن منظرهم البشع كان أشد من أن تتحمله وتصبر عليه.. فتلقفهم بألسنة لهبها وهي تئز وتشهق.. وبمهلها وقطرانها وهي تغلي وتفور.. حتى كاد صدرها ينفجر حقدا عليهم.. ومقتا لوجودهم الكالحة الحالكة السواد.. وكذلك في قوله تعالى: ﴿ويُسْقَى من ماءٍ صديدٍ، يَتَجَرَّعُهُ ولا يكادُ يُسيغُهُ﴾ (سورة ابراهيم - الآيات ١٦ - ١٧).

□ وما أحسب الذي يقرأ هذه الآية إلا ويقبض شفتيه استقباحا واستهجانا لحال الكافر الذي يتجرع صديده ولا يكاد يسيغه.. وتشعر في لفظ «يتجرع» ثقلا وبطئا يدعوان إلى التقزز والكراهية.

□ وعلى العكس من ذلك نرى أسلوب القرآن الكريم يرق وينساب في النفس كالنمير العذب.. كلما وصف النعيم الذي أعده الله سبحانه وتعالى للمتقين.. قال تعالى: ﴿والسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ• أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ• في جَنَّاتِ ٱلنَّعيمِ• ثُلَّةٌ مِنَ ٱلأَوَّلِينَ• وَقَلِيلٌ مِنَ ٱلآخِرِينَ• عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ• مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ• يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدونَ• بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وكَأْسٍ مِن معِينٍ• لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ• وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ• وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ• وَحُورٌ عِينٌ• كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ (سورة الواقعة - الآيات ١٠ - ٢٣).

□ وإن المرء ليحار إذا قرأ سورة الرحمن: ﴿الرحمنُ• علَّمَ القُرآنَ• خَلَقَ الإنسانَ• علَّمَهُ البيانَ• الشمسُ والقمرُ بحسبانٍ• والنَّجْمُ والشجرُ يَسْجُدَانِ﴾ (سورة الرحمن الايات ١ - ٦) ويتساءل هل ينبعث إيقاعها

المناسب من مطلعها؟ أم من ختامها؟ أم من خلال آياتها؟ والذي لا شك فيه أن النغم يسري فيها كلها.. في فواصلها ومقاطعها.. وفي ألفاظها وحروفها.. وكأنها قطعة موسيقية رائعة ساحرة انسابت ألحانها من السماء.

ثالثا: يمتاز القرآن الكريم في كل سورة وفي كل آية بأسلوب إيقاعي غني بالموسيقى.. مليء بالنغم.. كما في قوله تعالى: ﴿فلا أقسمُ بِالخُنَّسِ ● الجوارِ الكُنَّسِ ● والليلِ إذا عَسْعَسَ ● والصبحِ إذا تَنَفَّس﴾ (سورة التكوير - الآيات ١٥ - ١٨) فتسمع همس السين.. وتكاد تستشف نعومتها وخفة وقعها.

□ ثم هذا النغم الصاعد من دعاء زكريا وهو قائم يصلي في المحراب.. وهو الشيخ الجليل الذي يملأ النفس هيبة وجلالا.. يناجي ربه في صدق العبد المؤمن وخشوعه وخضوعه فيقول: ﴿قال رب إني وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا، ولم أكن بدعائك رب شقيا. وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا، فهب لي من لدنك وليا، يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا﴾.. فهذه الألف اللينة الرخية المناسبة في: «شقيا - وليا - رضيا».. تناسقت مع عبده زكريا الذي نادى ربه نداء خفيا.

رابعا: لقد حفل القرآن الكريم بتاريخ الحقب السحقية.. فذكر قوم عاد وثمود ولوط.. وقوم نوح وإبراهيم.. وقصص موسى وفرعون ومريم والمسيح.. كانت أخباره صادقة كل الصدق.. تتفق مع ما دوِّن في الكتب المنزلة التي سبقته وهي التوراة والإنجيل.

□ وكذلك أخبر القرآن الكريم عن أحداث مقبلة وقعت كما قررها.. ومن ذلك.

١ - هزيمة الفرس بعد انتصارهم على الروم.. ﴿الٓم، غُلِبَتِ ٱلرُّومُ، في أَدْنى ٱلأَرْضِ وَهُم مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، في بِضْعِ سِنينَ للهِ ٱلأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ، ويومئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ﴾ (سورة الروم - الآيات ١ - ٥).

٢ - وعد الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ في القرآن الكريم أنه سيدخل المسجد الحرام: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بالحقِّ، لتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ الحرامَ إنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ، فَجَعَلَ مِن دُونِ ذلكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ (سورة الفتح - الآية ٢٧).

٣ - وعد الله تعالى المؤمنين من أتباع الرسول ﷺ أن يستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم.. فدانت الجزيرة العربية كلها للمسلمين في عهد الرسول ﷺ.. ثم فتح أصحاب النبي من بعده بلاد كسرى والروم والشام ومصر: ﴿وعدَ اللهُ الَّذينَ آمنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرضِ كما اسْتَخْلَفَ الَّذينَ من قبلِهِمْ وليُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذي ارتضى لهم ولِيُبَدِّلَنَّهُمْ من بعدِ خوفِهِمْ أَمْناً﴾ (سورة النور - الآية ٥٥).

□ وإن هذه الأخبار الماضية والمستقبلة كلها دلائل صادقة على أن القرآن الكريم من عند الله.. وليس من صنع البشر.

خامسا: لقد أثبت التاريخ أن النبي محمد ﷺ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب.. وقد تردد ذلك في كثير من الآيات القرآنية التي منها: ﴿يُسَبِّحُ للهِ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ • المَلِكِ القُدُّوسِ العزيزِ الحكيمِ • هو الذي بعث في الأُمِّيِّينَ رسولاً مِنْهُمْ يَتلُواْ عليهِمْ آياتِهِ ويزكِّيهم وَيُعَلِّمُهُمُ الكتابَ والحِكْمَةَ وإن

كانوا من قبلُ لَفِي ضلالٍ مُبينٍ﴾ (سورة الجمعة - الآيات ١ - ٢).

□ ومع ذلك فقد احتوى القرآن الكريم.. الذي ردده محمد ﷺ على أسماع المسلمين من أتباعه.. على حقائق علمية خاصة بخلق السموات والأرض: ﴿أوَلَمْ يَرَ الَّذينَ كَفَرُوا أنَّ السَّمواتِ والأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الأنبياء - الآية ٣٠).. وفي علم الفلك حيث قرر كروية الأرض في آيات كثيرة منها: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (سورة النازعات - الآية ٣٠).. وحركة الشمس والقمر والأرض ﴿والشمسُ تجري لِمُسْتَقَرٍّ لَهَآ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ • وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كالعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ • لاَ ٱلشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (سورة يس - الآيات ٣٨ - ٤٠).

□ وفي الجاذبية الأرضية نرى آيات كثيرة منها: ﴿إنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمواتِ والأَرضَ أن تزولاَ﴾ (سورة فاطر - الآية ٤١).. ﴿الله الذي رفعَ السَّمواتِ بغيرِ عَمَدٍ﴾ (سورة الرعد - الآية ٢).. ونزول المطر.. ﴿وأرسلنا الرِّياحَ لواقحَ فأَنْزَلْنَا منَ السماءِ ماءً فأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وما أَنْتُمْ لهُ بخازِنينَ﴾ (سورة الحجر - الآية ٢٢).. كما تضمن القرآن الكريم حقائق خاصة عن أصل خلق الإنسان ﴿ولقد خَلَقْنَا الإنسانَ من سُلاَلَةٍ من طينٍ، ثم جَعَلْنَاهُ نُطفةً في قرارٍ مكينٍ، ثم خلقنا النطفةَ علقةً، فخلقنا العلقةَ مُضْغَةً، فخلقنا المُضْغَةَ عِظاماً، فكسوْنا العظامَ لحماً ثم أنشأناهُ خلقاً آخرَ، فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالقينَ، ثم إنَّكُمْ بعد ذلك لَمَيِّتُونَ، ثم إنَّكم يومَ القيامةِ تُبْعَثُونَ﴾ (سورة المؤمنون - الآيات ١٢ - ١٦).

□ ويحرم القرآن الكريم على الإنسان الميتة والدم ولحم الخنزير.. ويتضح بعد القرون العديدة أن هذا أساس الصحة الوقائية.. كما نادى

بعدم الإسراف في الطعام والشراب.. وهذه أحدث نظريات الطب الوقائي.

□ وقد سبق القرآن الكريم العلم إلى دراسة الفضاء.. والنظر في الكواكب ﴿قُلِ ٱنْظُرُوا ماذا في السَّمَوَاتِ والأرض، وما تُغْنِي الآياتُ والنُّذُرُ عن قومٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة يونس - الآية ١٠١).

□ وكذلك قرر القرآن الكريم وجود أحياء في الكواكب الأخرى.. وإن لم يصل العلم في ذلك إلا إلى أدلة أولية لم تثبت بعد ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾. (سورة الشورى - الآية ٢٩).

□ كما جاءت على لسان النبي الأمي ﷺ.. الآيات التي هيأت للمجتمع الإسلامي الجديد.. الذي خلف مجتمع العشائر.. المبني على التقاليد والعادات الجاهلية.. كل مقومات الحياة الإنسانية الكريمة.. من شريعة جديدة هي أقوى وجوه الإعجاز.. ﴿يا أيها النَّاسُ قد جاءَتْكُمْ موعظةٌ من ربِّكُمْ وشِفَاءٌ لِمَا في الصُّدورِ وهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة يونس - الآية ٥٧).

□ هذا هو القرآن الكريم.. وهذه بعض أوجه إعجازه.. فهل يمكن لبشر مهما أوتي من الفصاحة والعلم والحكمة والمعرفة.. أن يجتمع عنده بعض ما جاء به القرآن الكريم؟ فكيف إذا كان من نطق به أميا لا يقرأ ولا يكتب؟ ﴿قُلْ يا أَيُّها النَّاسُ إِنِّي رسولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جميعاً الذي لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأرض لا إِلَهَ إلاَّ هُوَ يُحْيِي ويُميتُ فآمِنُوا بالله ورسولِهِ النبيِّ الأُميِّ الذي يُؤْمِنُ باللهِ وكلماتِهِ واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (سورة الاعراف - الآية ١٥٨).

الجاحظ.. وإعجاز القرآن

□ كان الجاحظ إلى جانب عبقريته الفذة في العلم والأدب.. الذي ساهم في إثرائه.. وأخلص له في حياته.. يمتاز بعقيدة إسلامية راسخة..

وجهت اهتمامه وعنايته لدراسة القرآن الكريم مستفيضة.. مكنته من تأليف الكتب الخاصة بالقرآن وعلومه منها: كتاب «نظم القرآن» وكتاب «آي القرآن» وكتاب «مسائل القرآن» كما تطرق من جديد إلى هذه الدراسة التي كانت تشغل باله وبال كثير من معاصريه المتكلمين والمعتزلة في كتاب «الحيوان» بكيفية استطرادية وفي كتاب «البيان والتبيين» كلما دعته الضرورة لذلك.. وفيما بقي من كتاب «حجج النبوة» بشيء من التفصيل.

□ ولكن مما يؤسف له أن الكتب الثلاثة التي خصصها وأفردها الجاحظ لدراسة القرآن الكريم قد ضاعت مع الزمن.. وما تزال مفقودة حتى الآن.. ولا نعرف عنها إلا الأصول فيما كتبه.. أو فيما كتبه المعجبون به.. ولكن الجاحظ في كتبه الأخرى وضع الخطوط الكبرى لأرائه وأفكاره عندما تحدث عن الموضوعات القرآنية.. وعلوم القرآن في الكتب الأخرى التي ألفها ووصلت إلى ايدينا.

□ لقد عالج الجاحظ ضمن ما عالج في دراساته القرآنية موضوع إعجاز القرآن من منطلقين هما:

أولا: درس الجاحظ إعجاز القرآن الكريم: «لغريب تأليفه وبديع تركيبه» أي من الوجهة البيانية الأدبية الصرفة.

ثانيا: درس الجاحظ إعجاز القرآن لقدسيته التي أقرها الواقع التاريخي.. لأن الله سبحانه وتعالى «نزهه وصرف الناس عن تقليده أيام نبيه عليه الصلاة والسلام.. فلم يرم ذلك احد.. ولا تكلفه.. ولا أتى ببعضه.. ولا ادعى أنه قد فعل.. وظل الأمر هكذا نيفا وعشرين سنة.. وهذا أمر جليل.. ظاهر التدبير».

□ والجاحظ يعتبر أن لإعجاز القرآن صفتين.. صفة ادبية.. وصفة تاريخية.

□ فمن الوجهة الأدبية يعتبر الجاحظ أن إعجاز القرآن يرجع إلى نظمه.. ويذهب في إطلاق كلمة نظم إلى وضع الكلمات في الجملة وترتيبها.. لحسب جرسها ومدلولها.. وإلى تأليفها.. والتنسيق فيما بينها.. كما قد يفهم من كلامه من كتاب «حجج النبوة».

□ ألا ترى أن الناس قد كان يتهيأ في طبائعهم.. ويجري على ألسنتهم.. أن يقول رجل منهم الحمد لله.. وعلى الله توكلنا.. وحسبنا الله ونعم الوكيل.. وهذا كله في القرآن.. غير أنه متفرق غير مجتمع.. ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه وتأليفه ومخرجه لما قدر».

□ ويتضح أن كلمة نظم في مفهوم الجاحظ هي ما نعبر عنه اليوم بكلمة «أسلوب» ويزيد الجاحظ في توضيح هذا المعنى بقوله:

□ إن رجلا من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة من القرآن لتبين لهذا الرجل أنه عاجز عن الإتيان بمثلها.. ولظهر عجزه عنها.. وليس ذلك في الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين «أي وإنما لظهر عجزه في الإتيان بنظم مثل القرآن.. أي بأسلوب مثل أسلوب القرآن.

□ وإذا كان العالم الفرنسي «بوفون» يقول: «إن الأسلوب هو الإنسان نفسه» وكان أسلوب القرآن أسلوبا يعتده البشر.. وليس في طوقهم.. فمعنى هذا أن منشئه ليس من البشر.. ومن ثم فخالقه لا يمكن أن يكون إلا الله تعالى.. هذا ما يلوح أنه كان نوع تفكير الجاحظ.. وهذا ربما ما سعى لإثباته في كتاب «نظم القرآن» الذي لم يصل إلينا.

□ وفي هذا المعنى يقول الجاحظ أيضا في كتاب «البيان والتبيين»: «إن الله إنما جعل نبيه أميا لا يكتب ولا يحسب ولا ينسب ولا يقر من الشعر.. ولا يتكلف الخطابة.. ولا يتعمد البلاغة ليكون إذا جاء

بالقرآن الحكيم تكلم بالكلام العجيب.. كان ذلك على أنه من الله».

□ ويخيل لنا أن الجاحظ وقد كان يقرأ القرآن قراءة تمعن وتدبر ودراسة اثناء تأليفه لكتاب: «نظم القرآن» خطر له ان يجمع في كتاب مستقل قبسا من آيات الله «تضاف إلى الإيجاز وحذف الفصول» كما أشار إلى ذلك في كتاب «الحيوان» بقوله:

□ ولي كتاب جمعت فيه آيا من القرآن.. فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة.. على الذي كتبته لك في باب الإيجاز وترك الفصول.. فمنها قوله حين وصف خمر أهل الجنة: «لا يصدعون عنها ولا ينزفون» وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا».

□ وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة فقال: «لا مقطوعة ولا ممنوعة» جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني».

□ ومن الأسف أن كتاب «آي القرآن» الذي يمكن ان يعتبر جزءا من كتاب «نظم القرآن» مكملا له.. سائرا على نهجه لم يصل إلينا هو كذلك.. كما يؤسفنا أن الجاحظ الذي كتب في الجزء الأول من كتاب «البيان والتبيين» أنه سيذكر في الجزء الثالث من هذا الكتاب كيف خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور.. وهو منثور غير مقض على مخارج الأشعار والأسجاع.. وكيف سار نظمه من أعظم البراهين.. وتأليفه من أكبر الحجج.

□ لقد أتم الجاحظ الجزء الثالث من مؤلفه دون أن يتعرض لهذه الناحية.. اللهم إلا أن يكون الجاحظ قد أبر فعلا بوعده.. ولكن النسخة التي بين أيدينا وصلت إلينا مبتورة ناقصة كما يعتقد البعض.

□ هذا ما يمكن استخلاصه واستنباطه حول نظرية الجاحظ في إعجاز القرآن الكريم من الناحية البيانية.. بقدر ما تسمح به المعلومات

المستقاة من كتبه الباقية.

□ ولكن الجاحظ لم يتطرق إلى موضوع إعجاز القرآن من الناحية البيانية فحسب.. وإنما تطرق إليه من منطلق الواقع التاريخي.. وأتى في هذا الباب بمفهومه الخاص لنظرية العرفة التي دعا اليها أستاذه النظام.. مفندا في هذا الصدد رأي القائلين بأن العرب لو خلى بينهم وبين معارضة القرآن لكريم.. ولم يعرفوا عنه جبرا وتعجيزا لكانوا قادرين على أن يأتوا بمثله.. ومبرهنا على أن الله سبحانه وتعالى هو الذي صرف الناس بتدبير جليل منه.. عن محاولة معارضة القرآن الكريم أيام النبي ﷺ.. مريدا بذلك إبطال سلاح العرب.. وهو بيانهم وفصاحتهم.. كما أبطل بعصا موسى سحر أصحاب فرعون.. وبإحياء عيسى للموتى.. طب بني إسرائيل..

□ قال الجاحظ في كتاب «حجج النبوة»:.

□ «ولما كان أعجب الأمور عند قوم فرعون السحر.. ولم يكن أصحابه قط في زمان اشد استحكاما فيه منهم في زمانه.. بعث الله موسى عليه السلام لإبطاله وتهوينه.. وكذلك زمن عيسى عليه السلام.. كان الأغلب على أهله وعلى خاصة علمائه الطب.. وكانت غايتهم علاج المرضى.. فأرسله الله عز وجل لإحياء الموتى.. وكذلك محمد ﷺ كان أغلب الأمور عليهم وأحسنها عندهم.. وأجلها في صدورهم حسن البيان.. ونظم ضروب الكلام.. فبعثه الله عز وجل فتحداهم بما كانوا لا يشكون أنهم يقدرون على أكثر منه.. فلم يزل يقارعهم بعجزهم.. وينقصهم على نقصهم.. حتى تبين ذلك لضعفائهم وعوامهم.. كما تبين ذلك لأقويائهم وخواصهم».

□ وحول نظرية الصرفة قال الجاحظ أيضاً في كتاب «الحيوان»:

□ إن الله تبارك وتعالى رفع عن أوهام العرب.. وصرف نفوسهم عن

المعارضة للقرآن.. بعد أن تحداهم لنظمه.. ولذلك لم نجد أحدا طمع فيه.. ولو طمع فيه لتكلفه.. ولو تكلف بعضهم فجاء بأمر فيه أدنى شبهة لعظمت القضية على الأعراب وشبه الأعراب.. والنساء وأشباه النساء.. ولألقى ذلك للمسلمين عملا.. ولطلبوا المحاكمة والتراضي».

□ وقال الجاحظ بعد ذلك: «فقد رأيت اصحاب مسيلمة.. إنما تعلقوا بما ألف لهم مسيلمة من ذلك الكلام.. الذي يعلم كل من سمعه.. أنه إنما عدا على القرآن فسلبه.. وأخذ بعضه.. وتعاطى أن يقارنه.. فكان لله ذلك التدبير الذي لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا له».

□ والتدبير الذي لم يكن إلا لله تعالى.. ولم يكن ليبلغه العباد ولو اجتمعوا له.. هو نظم القرآن الكريم.. وصرف الناس عن الإتيان بسورة من مثله.. حيث لم يحاول ذلك أحد من كبار البلغاء والشعراء أيام النبي ﷺ بمن فيهم من كان يطمح في النبوة كأمية بن أبي الصلت.. كما قد فشل في ذلك الفشل المبين كل الذين حاولوه كمسيلمة الكذاب وامرأته سجاع.. وهذيل بن واسع.. وهذيل بن يعفور.. وطليحة بن خويلد.. وهمش الكلابي.. والأسود العنسي.. وكلهم كما قال ابن الجوزي في كتاب «صيد الخاطر» جاءوا بقرآن يضحك الناس.. وفشل هؤلاء الضالون المضللون.

□ وهكذا يتجلى لنا كالشمس في وضح النهار أن الله الذي أنزل على عبده الكتاب هو الذي صرف العرب عن الإتيان بمثله قبل وبعد وفاة الرسول ﷺ.. «وهذه لها في العقل موقع كموقع فلق البحر من العين» كما قال الجاحظ في كتاب «حجج النبوة».. وأضاف الجاحظ بعد ذلك يقول:

□ «ولا يجوز أن يكون مثل العرب في كثرة عددهم.. واختلاف مللهم.. والكلام كلامهم.. وهو سيد عملهم.. وقد فاض به جنانهم..

وجاشت به صدورهم وغلبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم.. حتى قالوا في الحيات والعقارب والذئاب والكلاب والخنافس والجعلان والحمير والحمام.. وكل ما دب ودرج ولاح لعين وخطر على قلب.. ولهم بعد أصناف النظم.. وضروب التأليف.. كالقصيد والرجز والمزدوج والمتجانس والأسجاع.. وهم أثبت الناس حقدا.. وأبعدهم مطلبا.. وأذكرهم لخير أو لشر.. وأهجاهم للعجز.. وأمدحهم للقوة.. ثم لا يعارضه معارض.. ولا يتكلف ذلك خطيب ولا شاعر».

□ «ومحال أن يكون الكلام أخطر عندهم.. وأيسر مؤونة عليهم.. وهو أبلغ في تكذيبهم له.. وأنقض لقوله.. فيجتمعوا على ترك استعماله والاستعانة به.. ولا يقولون بل ولا يقول واحد من جماعتهم: لما تقتلون أنفسكم.. وتخرجون من دياركم.. والحيلة في أمره يسيرة.. والمأخذ من أمره قريب.. ليؤلف واحد من شعرائكم وخطبائكم كلاما في نظم كلامه كأقصر سورة.. يخذلكم بها.. وكأصغر آية دعاكم إلى معارضتها».. مع أنه كما أضاف الجاحظ: «لم يرد أن القوم قد تركوا مسألته في القرآن.. والطعن فيه.. كما يدل على ذلك قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيهِ القُرآنُ جُملَةً وَاحِدَةً﴾ (سورة الفرقان آية ٣٢).. وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيهِمْ آياتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَروُاْ لِلْحَقِّ لَـمَّا جَآءهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (سورة الاحقاف آية ٧). ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ أَفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ (سورة الفرقان الآيات ٣ - ٤) وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُم فِي رِيبٍ مِمَّا نَزَّلنَا عَلَى عَبدِنَا فَأْتوُاْ بِسُورَةٍ مِن مِثلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِن دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لمْ تَفعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا..﴾ (سورة البقرة الآيات ٢٣ - ٢٤) ويدل كثرة هذه المراجعة.. وطول هذه المناقلة.. على أن التقريع لهم بالعجز كان فاشيا.. وأن عجزهم كان ظاهراً».

□ إن الجاحظ بين نظريته حول إعجاز القرآن على نقطتين جوهريتين.. إعجازه لقيمته الأدبية الرفيعة.. وإعجازه لأن الله سبحانه وتعالى صرف الناس عند الإتيان بحديث مثله.. والنتيجة واحدة بالطبع.. ولكن الاستدلال يختلف.. لأنه في النقطة الأولى استدلال ادبي محض.. وفي النقطة الثانية استدلال تاريخي.. أو استدلال أزلي بعبارة أصح.

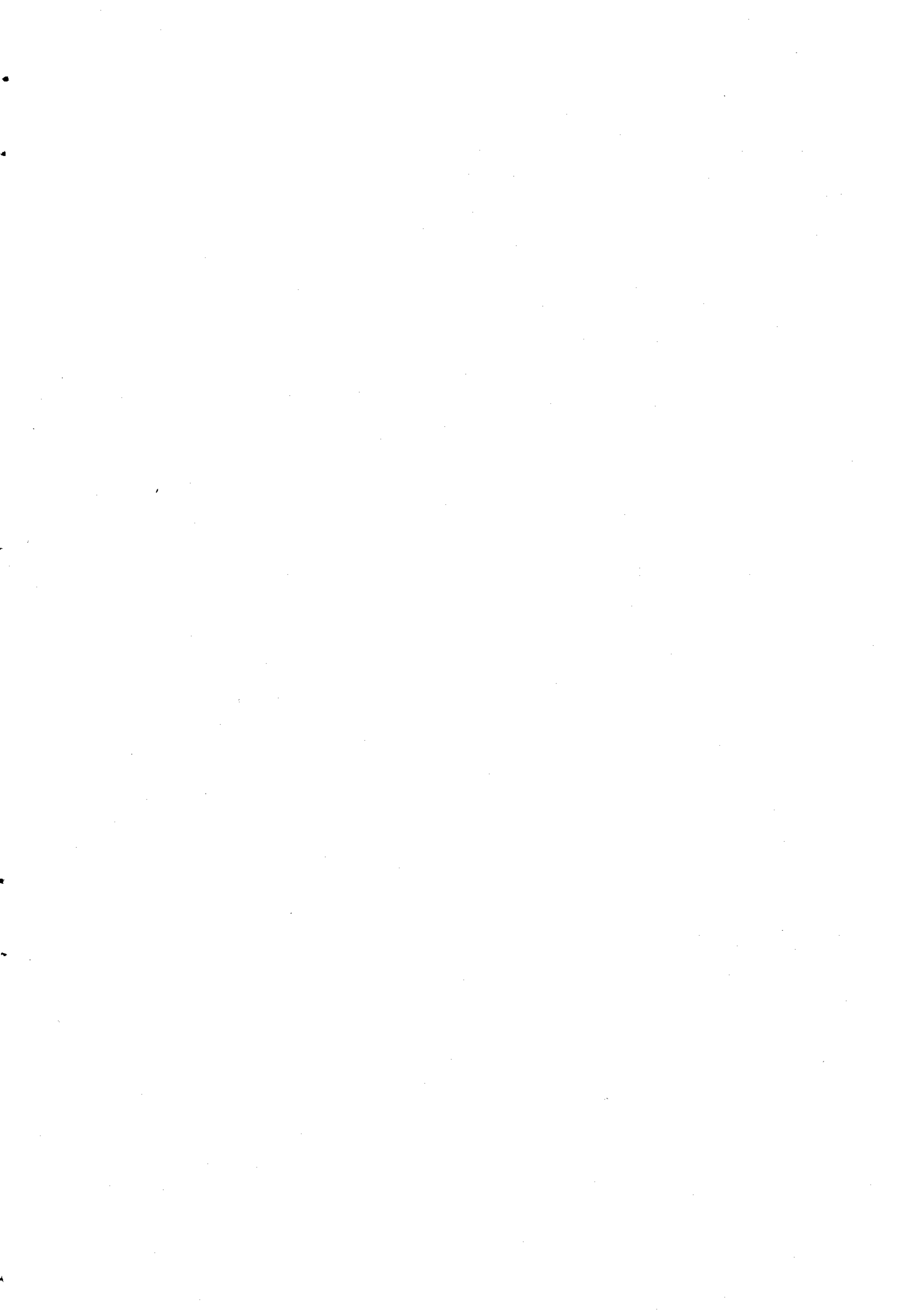
□ وقد كان على الجاحظ.. ولعله فيما قد ضاع من كتبه التي لم تصل إلينا قد فعل.. أن يركز على نقطة ثالثة.. وهو أمية الرسول ﷺ بالنسبة لأعجاز القرآن الكريم.. إذ كيف يعقل أن ينطق رجل أمي بسورة طويلة كسورة يوسف.. أو سورة الكهف.. أو سورة قصيرة كسورة المدثر.. أو سورة القيامة.. أو سورة الإنسان.. ويأتي بأوصاف وصور وأسجاع في منتهى الروعة والجمال والدقة في التعبير مع مراعاة قواعد اللغة العربية نحو وصرفا ونطقا بالكلمات والحالة هذه ونحن نرى كثيرا من المثقفين أنفسهم يرتكبون أحيانا أخطاء نحوية وصرفية ولغوية في أحاديثهم وكتاباتهم والحالة هذه.. والكاتب المتدرب لا يتاح له العثور على الكلمة الصالحة.. والأسلوب المراد.. إلا بعد شطب وحذف وتفكير وبحث طويل.. وعناء وانتظار قد يتطلب وقتا طويلا.. والنبي ﷺ ما كان ليتكلف كل ذلك وقد قال الله تعالى مخبرا عنه: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (سورة ص الآية ٨٦).

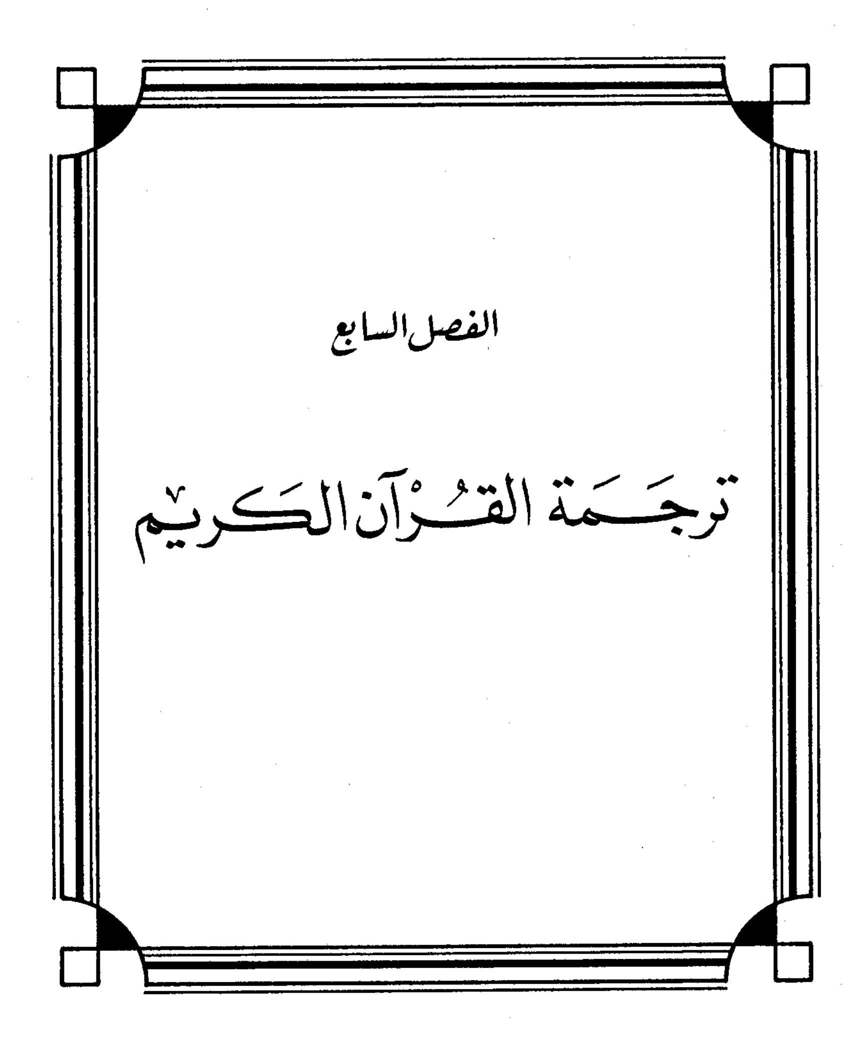
□ إن القرآن الكريم قد بهر بإعجازه جميع الأدباء العرب.. بداية بالجاحظ.. ومرورا بأبي العلاء المعري.. ونهاية بأدباء هذا العصر كأحمد حسن الزيات الذي قال في كتابه «تاريخ الأدب العربي»: «في القرآن من دقة التشبيه والتمثيل.. وبلاغة الإجمال والتفصيل.. وروعة الأسلوب.. وقوة الحجاج.. ما يعجز طاقة البشر.. ويرمي المعارضين بالسكات والحصر».. وقال أبو العلاء المعري في قصته الخالدة «رسالة

الغفران»: «إن هذا الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ كتاب بهر بالإعجاز.. وإن الآية منه أو بعض الآية لتعترض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون.. فتكون فيه كالشهاب المتلألىء في جنح غسق.. والزهرة البادية في جذوب ذات نسق.. فتبارك الله أحسن الخالقين».

□ إن الدور الكبير الذي قام به القرآن الكريم في خلق الحضارة الإسلامية فنا وفكرا وعلوما.. ودوره الكبير في توحيد قبائل العرب وصهرها في أمة واحدة.. وفي خلق العالم العربي من الخليج إلى المحيط.. ودوره الكبير في تثبيت دعائم اللغة العربية في جميع الأقطار الناطقة بها.. رغم كيد الكائدين.. لدلائل ساطعة.. وبراهين قوية على معجزة هذا الكتاب المقدس.

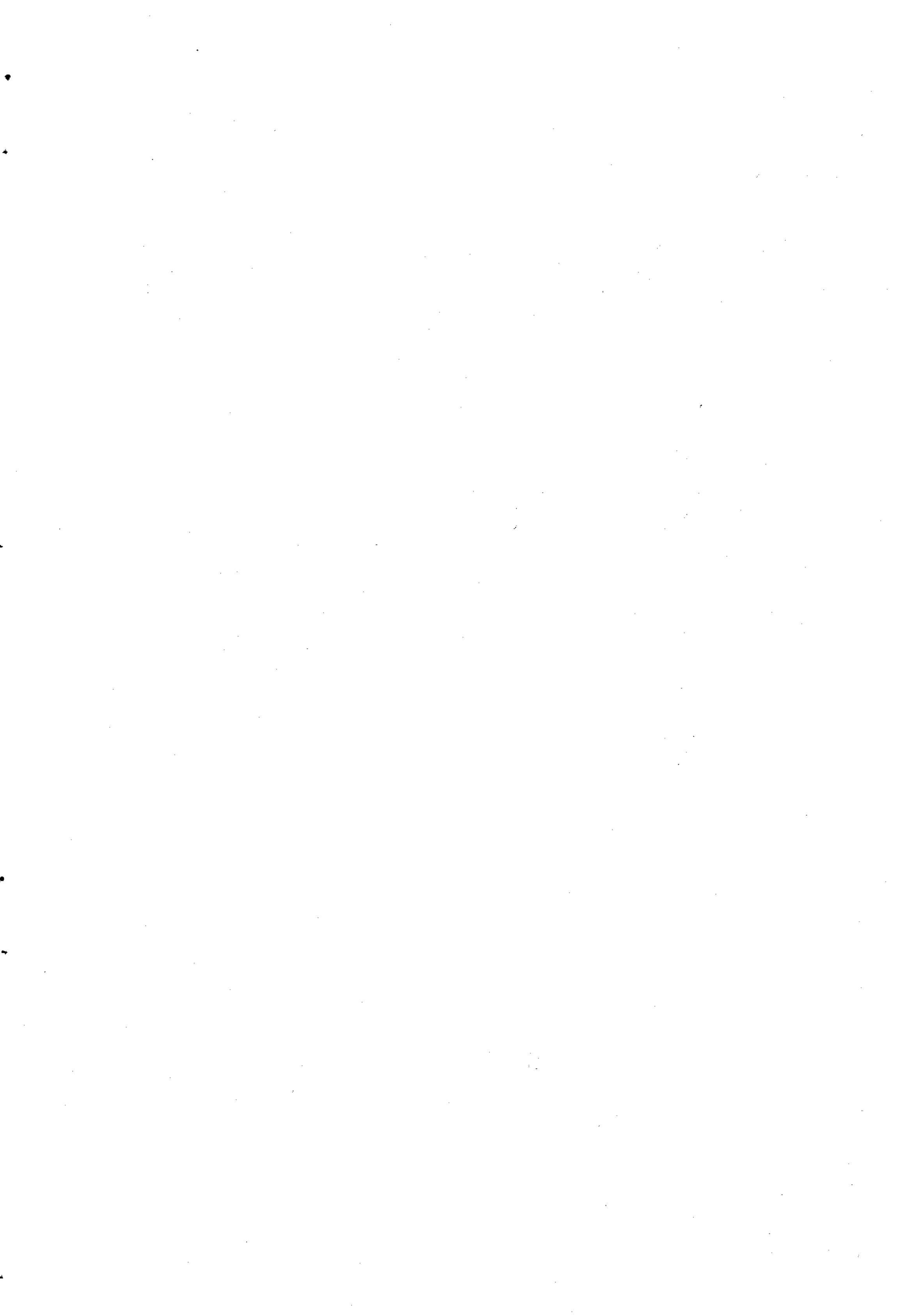
□ ومن أكبر الدلائل على إعجاز القرآن الكريم استمرارية تأثيره حتى الآن.. وإلى أن يشاء الله.. وحتى يرث الله الأرض ومن عليها.. في الوقت الذي لم يبق فيه من حجة موسى.. وحجة عيسى عليهما السلام إلا الإخبار عنها فقط.. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحنُ نَزَّلنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر الآية ٩)





الفصل السابع

ترجمة القرآن الكريم



□ إن ترجمة القرآن الكريم على مفهوم بيان معانيه.. وما احتوى عليه من آداب وتوجيه وإرشاد بغير لغة العرب.. ليست ترجمة محظورة.. وليست غير جائزة شرعا.. ومستحيلة من الناحية العملية.. ولكن ترجمة القرآن الكريم بلفظه ونظمه مستحيلة عملا.. وغير جائزة شرعا.. وترجمة مفهوم ومعاني القرآن الكريم.. قد تكون طريقا واضحا يسيراً لنشر ما تضمنه من عقائد ومبادىء وأخلاق وأحكام في تنظيم صلة المسلمين بالله سبحانه وتعالى.. وعلاقة البشر بعضهم ببعض.. والمقصود بالترجمة هو فقه القرآن الكريم.

□ إن الله سبحانه وتعالى قد حفظ القرآن الكريم من أن تعبث به الأقدار.. وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر الآية ٩).. فصانه جل شأنه من أن يتناوله ما حدث للتوراة.. ثم للإنجيل.. وهما الكتابان السماويان اللذان نزلا قبل القرآن الكريم على موسى وعيسى عليهما السلام.. وليس هناك شك في أن التوراة التي أنزلها الله تعالى على نبيه موسى عليه السلام كانت كيانا غير ما نراه ونقرأه اليوم مما بين أيدينا من الكتاب المستحدث الذي يحمل اسم «العهد القديم» ذلك لأنها أولا دونت وجمعت بعد عهد سيدنا موسى عليه السلام بحوالي ٨٠٠ ثمانمائة سنة.. ولأنها كانت قد نزلت بلغة غير اللغة التي نراها الآن بها.. وهي على الأقل فيما يخصنا نحن.. وقد نزلت بلغة غير اللغة التي نقرؤها بها.. والتي يقرؤها بلغاتهم ايضا.. في غير لغتها الأصلية غيرنا من الشعوب.. والتوراة التي تناولها هذا التغيير في الصياغة من ترجمة إلى ترجمة.. بل المسخ الذي جعلها بهذه الصورة العجيبة التي لا يمكن أن تكون لغة سماوية من عند الله عز وجل.. تكاد تخضع في ذلك لإرادة من الله القدير.. أن لا يبقى من كيانها لها غير

الذكرى.. في أنه كانت هناك توراة.

□ ولعل ما حدث للتوراة.. ينطبق ايضا الى حد ما على «الإنجيل» الذي دون هو الآخر بعد عهد المسيح عليه السلام.. حتى اضطر الأمر أن يجعل المسيحيون من إنجيل عيسى عليه السلام اربعة أناجيل مدونة.. ينسب كل إنجيل منها إلى واحد من تلاميذ السيد المسيح عليه السلام:

١ - إنجيل متى» ولا يعرف هل كتب بالعبرية أو السريانية أو اليونانية.

٢ - إنجيل «مرقص» حرر بين عامي ٥٦، ٦١م.

٣ - إنجيل «لوقا» واختلفوا في شخصية لوقا أكان طبيبا أم رساما.

٤ - إنجيل «يوحنا» وكان تدوينه في آخر القرن الأول الميلادي.

□ وقيل إنهم كانوا من الحواريين الذين عاصروا عيسى عليه السلام.. وأقدمها إنجيل «متى» الذي كتب وسجل بعد المسيح بأربعين سنة فيما يقولون.. وهذا معروف فيما حدث من اختيار اللجنة التي كونها الإمبراطور قسطنطين الأول في القسطنطينية التي أسسها في الشرق «بيزنطية» أو روما الشرقية.. حين ترك للوثنية روما الغربية.. وجعل مدينة القسطنطينية التي أنشأها هو.. ومنحها اسمه.. عاصمة لملكه ومملكته الشرقية.. وكان هذا الامبراطور أول نصير للمسيحية.. وكانت هذه اللجنة على غرار ما يشكل اليوم من لجان تشريعية.. وقد كونت اللجنة من ٧٠ سبعين قسيسا.. عرض عليهم مجتمعين الآلاف من الأناجيل القديمة المختلفة النصوص.. فاستخلصوا منها هذه الأناجيل الأربعة.. حيث يتم كل واحد منها الموضوع المتكامل للإنجيل الأصل.. وهذا ما حدث لأهم الكتب السماوية قبل القرآن الكريم.. الذي تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه مقدسا من أي تحريف أو تغيير أو تبديل إلى

يوم الدين.. وما ذلك على الله بعزيز.

□ وكان الأمر متوقعا ان يحدث الشتات في نصوص القرآن الكريم.. لولا أن الله سبحانه وتعالى حفظ كتابه وقرآنه وصانه من أن يحدث له ما حدث للكتابين السابقين على القرآن الكريم.. فجعل نبيه الأمي محمد ﷺ يملي القرآن أولا بأول على كتبة الوحي.. فيدونونه حالا.. ثم يسمعون ما دونوه للنبي محمد ﷺ.. ثم يسأل رسول الوحي جبريل عليه السلام نبي الله محمدا ﷺ ليقرأ عليه ما دون.. إمعانا في التحقيق من صحة ما أملى.. وسلامة ما سطر.. وصيانة للقرآن.. وحفاظا عليه من أن يلحق به تشويه.. ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (سورة القيامة - الآيات ١٦ - ١٩) ثم ما كان بعد ذلك من أمر اصحاب الرسول ﷺ الذين قاموا وأمعنوا في تسجيل كل آية.. ومراجعة ما يكتب.. مع حرق كل ما عداه خشية البلبلة والادعاءات.. ثم أرسل بعد ذلك الحرص الشديد إلى انحاء الأمبراطورية الإسلامية التي كادت ان تغطي سطح الكرة الأرضية. ولا ننسى الجهود الجبارة التي بذلها أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول خليفة.. ثم عثمان بن عفان رضي الله عنه.. وكان لعثمان جهد الفضل على الحفاظ بصورة المصحف الشريف كاملة صادقة نقية.. حتى عرف هذا الخليفة الثاني: «بالحافظ».. وعرف شكل المصحف ذاته بوصف: «المصحف العثماني».

□ إن المفسرين للقرآن الكريم إنما يدورون في حدود اللفظ القرآني والفقهاء يستنبطون منه ما يستنبطون من أحكام.. ولكن من حق المؤمن ذي البصيرة بعد ذلك أن يرى في القرآن مزيدا من الأسرار والحقائق.. لا تنكشف لسواه.. ولا يدركها غيره.. وعندما نقرأ كلام الله فإننا نرى فيه الإعجاز واضحا.. وإعجاز القرآن أسمى من أن يكون في فصاحة لفظه. وقوة أسره.. وبلاغة أسلوبه.. وإنما إعجاز

القرآن فوق ذلك في أسراره ومعانيه.. ومراده ومراميه.. إن هذه الأسرار والمعاني يحس بها كل مؤمن في كل مرة يقرأ فيها كلام الله سبحانه وتعالى.. إننا نحس بها.. ونتذوق معانيها.. ونستمتع بأسرارها.. إننا نتذوقها بعقولنا مرة.. ولكننا نتذوقها بقلوبنا مرات ومرات.. وفي كل مرة نفهم فيها القرآن.. أو نقرؤه بقلوبنا.. نرى معاني جديدة.. غير مسبوقة.. معاني هي بعد كل شيء أشعة نور وضياء شفاف من الله سبحانه وتعالى إلى عباده المؤمنين.. تهديهم إلى الطريق الصحيح.. فكيف يمكن إذن ترجمة القرآن الكريم لفظا ومعنى إلى لغات غير عربية وهيهات أن يكون ذلك صحيحا أو تقريبا.. فإنه من المستحيل ترجمة كتاب الله لفظا ومعنى وأسرارا.. وما فيه من عبر تسبح فوق السحاب.. ومن الواجب بل والضروري أن نشفق نحن المسلمين على القرآن الكريم.. كلام الله الكبير المتعال.. من الترجمة إلى غير لغته التي نزل بها على نبيه محمد ﷺ.. فكان إعجازا فوق إعجازات الرسل والأنبياء.

□ أما ترجمات التفاسير التي نصوغها نحن البشر بأقلامنا وعقولنا ومختلف لغاتنا.. فلا حرج فيه ولا نهي عنه.. بل قد يكون ذلك من أوجب الواجبات المشتهاة إلى نفوسنا.. لكن في يقظة وحرص وحذر.

□ ولكن في السنوات الأخيرة قام اليهود بطبع عدة آلاف من نسخ ترجمة القرآن الكريم.. وكانت الترجمة محرفة.. وأرسلوها إلى كافة بلاد العالم التي ظنوا أنها يمكن أن تكون سوقا رائجة لأمثال هذه الأباطيل.. وكانت منها بلاد المغرب وغانا واتحاد مالي ونيجيريا ولبنان.. ومناطق كاملة في أفريقيا وآسيا.. وبعض البلاد الغربية.. فانتفض الإسلام انتفاضة تلقائية لهذه المؤامرة الدنيئة.. وبين الحين والحين تظهر وتوزع هذه الترجمات الباطلة للقرآن الكريم بسبب المؤامرات الدنيئة التي يقوم بها اليهود لتحريف وتشويه كتاب الله تعالى.. ويكون من أثر ذلك قيام

المؤسسات الإسلامية في المملكة وعلى رأسها الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.. ورابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.. بتوجيه بيانات فورية إلى العالم الإسلامي وإلى كافة المسلمين.. لكشف نوايا اليهود الخبيثة.. وقصدهم السيء على الإسلام.. فطبع القرآن الكريم.. كتاب الله العظيم في ترجمة محرفة قصدا.. وقيامهم بنشرها وتوزيعها في أمم آسيا وأفريقيا.. يريدون بذلك القضاء على الإسلام ودنيا المسلمين ودينهم.. وذلك بعد ان فشلوا في هدم بنيان المسلمين وكيانهم.. عن طريق السياسة الضالة المضلة.. لأن السيطرة على القلب وعلى العقل هي المعول الهادم.. الذي يقوض بناء الأفراد والأمم.. ابتغاء زعزعة العقيدة الإسلامية في نفوس ابناء تلك البلاد.

□ إن ترجمة معاني وتفاسير القرآن الكريم ينبغي أن تشكل من أجلها لجنة عليا ذات مستوى علمي رفيع من كافة البلاد الإسلامية.. لإعداد ترجمة علمية إسلامية صحيحة ودقيقة لمعاني القرآن الكريم.. وأن يكون قوام هذه اللجنة علماء الدين.. وفقهاء القانون.. وأساتذة الترجمة.. لإعداد ترجمة مقبولة صحيحة تطبع وترسل نسخ منها إلى البلاد الإسلامية التي لا تجيد أو لا تعرف اللغة العربية.. ولكن هذه الترجمة.. وهذه النسخ لا تسمى قرآنا.

□ ولقد قام مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي باستانبول بالتخطيط لمشروع مسح كامل لكل ترجمات القرآن الكريم المخطوطة والمطبوعة على مستوى مكتبات العالم.. ويمكن تلخيص المعلومات حول أوائل الترجمات كما يلي:

□ احتمال وجود ترجمة بربرية مكتوبة سنة ١٢٧ هـ.

□ ترجمة فارسية شفوية قام بها موسى بن يسار الأسواري قبل سنة ٢٥٥ هـ.

□ ترجمة هندية كاملة قبل سنة ٢٧٠ هـ.

□ أما الترجمات التي وصلت عنها معلومات مؤكدة.. أو تم العثور على نصوصها بالنسبة للغات الشعوب الإسلامية.. فيمكن تلخيصها كما يلي:

أوائل الترجمات الفارسية

□ أول ترجمة معروفة لدينا في لغات الشعوب الإسلامية هي الترجمة الفارسية التي تمت في عهد الملك الساماني منصور بن نوح « ٩٦١/٩٧٦م » مع ترجمة مختصرة لتفسير الطبري « المتوفي سنة ٩٢٣م » وقد جاء في مقدمة هذه الترجمة:

□ « هذا الكتاب هو الترجمة الكاملة الصحيحة لتفسير محمد بن جرير الطبري رحمه الله تعالى إلى اللغة الفارسية.. ولقد أحضر هذا الكتاب من بغداد القائد المظفر الملك أبو صالح منصور بن نوح بن نصر بن أحمد بن إسماعيل رحمه الله وهو في أربعين مجلدا.. ولما حصلت صعوبة في قراءته بالعربية وفهمه أراد أن يترجم إلى الفارسية.. لذلك جمع نظرا من علماء بلاد ما وراء النهر واستفتاهم في جواز ترجمته إلى الفارسية.. فأفتوه بجواز ترجمته ليستفيد منها الذين لا يعرفون العربية استنادا إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِنَ لَهُمْ﴾ (سورة ابراهيم الآية ٤) وقد تمت ترجمة مختصرة لتفسير الطبري تعادل عشر الأصل من حيث الحجم.

□ وترجمة القرآن الموجودة في تفسير الطبري هي ترجمة حرفية.. حيث كتبت الكلمات الفارسية تحت آيات المصحف دون مراعاة لترتيب الجملة الفارسية.. أو سياق التعبير بها.. وقد أعقبت هذه الترجمات ترجمات أخرى كثيرة.. حفلت كتب التاريخ الفارسي في الأدب بذكرها.

أوائل الترجمات التركية

□ هناك رأيان حول تحديد بداية ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التركية.. الرأي الأول قال به من يرجح أن لجنة العلماء التي قامت بتفسير الطبري إلى الفارسية كانت تضم علماء الأتراك ايضا.. قاموا بترجمة القرآن الكريم إلى التركية في نفس الوقت.. وأن هذه الترجمة هي ترجمة حرفية على نسق الترجمة الفارسية كتبت بين سطور المصحف.

□ ويذهب اصحاب الرأي الثاني إلى أن أول ترجمة تركية ظهرت بعد الترجمة الفارسية السالفة الذكر بحوالي قرن من الزمان.. أي في القرن الخامس الهجري.. الحادي عشر الميلادي.. ولم يعثر بعد على أي من هذه الترجمات.. ولكن حسب المعلومات التي وصلت إلينا.. فإن الترجمة المكتوبة باللغة التركية الشرقية سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م والمحفوظة في متحف الآثار التركية الإسلامية باستانبول تحت رقم ٧٣ هي أقدم ترجمة تركية وصلت إلينا حتى الآن.. ويلاحظ ان هذه الترجمة كتبت على منوال الترجمة الفارسية.

□ وهناك معلومات حول وجود ست ترجمات تركية كتبت في الفترة ما بين القرن الثاني عشر والسادس عشر الميلادي.. ويلاحظ أن هذه الترجمات تنقسم إلى قسمين.. القسم الأول: الترجمات التي يمكن ان نسميها ترجمات حرفية.. حيث تترجم كلمات المصحف بين سطوره دون أي زيادة أو توضيح.. والقسم الثاني: يمكن أن نسميه ترجمات مطولة أو تفسيرا مختصرا.

□ وقد حقق أحد العلماء النص الكامل لترجمة تركية مكتوبة باللغة التركية الأناضولية من النمط الأول.. كتبها محمد بن حمزة في القرن الخامس عشر الميلادي.. وقام بنشر نشرة علمية دقيقة مع وافية حول الترجمة وأسلوبها.. ونظرات حول مصادرها.. وقد استفاد الدارسون من

هذه الترجمة والدراسة المعقودة حولها الكثير.

□ ومن الملاحظات الهامة حول أوائل الترجمات التركية أن الاصطلاحات العربية لم تكن قد دخلت بعد بنسبة كبيرة.. لذلك نرى المترجمين ينقلون معاني هذه الاصطلاحات بجمل وتراكيب لعدم استطاعتهم نقلها بكلمات مقابلة.. ويلاحظ من الترجمات المتأخرة أن كثيرا من الاصطلاحات العربية قد دخل التركية لكي تعبر عن مضامينها الإسلامية التي لم تكن معروفة من قبل لدى الأتراك.

□ كما يلاحظ أسلوب الترجمة في النمط الأول لا يراعي ترتيب الجملة التركية أو سياق التعبير بها.. كما يلاحظ في الترجمة الفارسية المشار إليها آنفا.

□ وقد استمرت حركة القرآن الكريم إلى اللغة التركية.. وهناك العديد من الترجمات المخطوطة.. كما ساعدت الطباعة على نشر الترجمات.. ويلاحظ أن حركة الترجمة قد زادت زيادة كبيرة في النصف الثاني من القرن العشرين.

أوائل الترجمات من لغات الشعوب الإسلامية الأخرى

□ تعتبر اللغات الأردية والملايوية والبنغالية.. هي أوسع اللغات الإسلامية انتشارا بعد التركية والفارسية.. ولا شك أن اللغة الأردية هي أوسع اللغات الإسلامية انتشارا.. وخاصة في شبه القارة الهندية.. وهي أيضا من أكثر اللغات الإسلامية التي كثر فيها التأليف والترجمة في الموضوعات الدينية قديما وحديثا.. ولكن للأسف لم نعثر من المعلومات التي وصلت إلينا إلى إشارة قاطعة حول بداية ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الأردية.

□ واللغة الملايوية هي أصل اللغة الأندونيسية الحديثة.. وقد قام الأستاذ عبد الرؤوف الغانسوري العالم المعروف بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الملايوية في منتصف القرن السابع عشر الميلادي.

□ أما اللغة البنغالية فهناك ترجمة منظومة للجزء الثلاثين مطبوعة بالحروف الخشبية.. ولم يعرف تاريخ طبعها ولكنه المرجح أنها أقدم نسخة باللغة البنغالية.. وهناك ترجمة كاملة للقرآن الكريم باللغة البنغالية سنة ١٨٨١م/١٨٨٦م.. قام بها «غريش شوند روشين» وهو من الديانة البرهمنية.

□ ويمكن أن يقال إن تأخر ظهور الترجمات باللغة البنغالية يرجع إلى أن اللغة العربية والفارسية والأردية كانت لغات رسمية وثقافية قبل ظهور الحركة القومية البنغالية.. وأن الناس كانوا يتهيبون الترجمة لقدسية القرآن الكريم.. وأنه بازدياد الحركة القومية.. وانتشار المطابع بدأت حركة الترجمة لمعاني القرآن الكريم.

□ أما اللغة الصينية فقد ترجم الشيخ ليوش اجزاء من القرآن الكريم قبل بداية القرن العشرين.. ثم تلاه الشيخ مافوشو الذي أكمل عشرين جزءاً قبل وفاته.. كما أن منظمة الثقافة الإسلامية في «شنغهاى» نشرت خمسة اجزاء من معاني القرآن الكريم مترجمة الى الصينية وذلك في عام ١٩٢٧م.. وضاع الباقي خلال الحروب الأهلية بالصين.. وفي عام ١٩٢٧م قام لي تيك تشينج بترجمة كاملة إلى الصينية.. نقلا عن الترجمة اليابانية المنقولة عن الترجمة الأنجليزية.. وكانت هذه أول ترجمة كاملة في اللغة الصينية.

□ وهناك ترجمات تمت في السنوات الأخيرة إلى اللغات التي بدأت مجموعة من المتكلمين بها الدخول في الدين الإسلامي.. مثل اللغة الكورية التي تمت بها أول ترجمة في شهر مايو عام ١٩٨١م.. وهناك

رغبة كبيرة في بلاد الشرق الأقصى لإعداد ترجمات للقرآن الكريم إلى لغات تلك المنطقة.. وعدم الرضا عن الترجمات حيث قام أكثر مترجميها بترجمتها عن الترجمة الإنجليزية للمرحوم يوسف علي.. ويلاحظ ان هناك العديد من ترجمات القرآن الكريم إلى مختلف اللغات الإسلامية.. وترجمات أخرى يتم إعدادها.. وهذا يدل دلالة قاطعة على أهمية ترجمة القرآن الكريم.. وعلى مدى إنتشار الشعور الديني لدى الشعوب الإسلامية من غير العرب.. وعلى اهتمامهم بتعلم كتابها المقدس.

أوائل الترجمات إلى اللغات الأوروبية

□ عندما ننظر إلى بداية ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأوروبية يسترعي انتباهنا تأخر الترجمة.. فبالرغم من وجود إشارات إلى ترجمات مبكرة إلى لغات شرقية غير إسلامية مثل السريانية والهندية.. فإن المعلومات المتوفرة لدينا تشير إلى أن أول ترجمة باللغة اللاتينية للقران الكريم قد تمت في عام ١١٤٣م قامت بها لجنة علمية.. ولم يتيسر طبع هذه الترجمة إلا في عام ١٥٤٣م بناء على توصية مارتن لوثر.

□ وبعد هذه الترجمة ظهرت عدة ترجمات أخرى للقرآن الكريم.. بعضها كامل.. وبعضها يقتصر على عدة آيات أو سور.. ويقال إن أبراهام الطلوطلي قام بأمر الفونس العاشر ١٢٥٢م - ١٢٨٤م بترجمة سبعين سورة إلى الأسبانية.. وأن هذه الترجمة الأسبانية كانت نواة للترجمة الفرنسية فيما بعد.. وقد بدأت بعد ذلك الترجمة من النص العربي إلى اللغة الفرنسية المعروفة باسم: «قرآن محمد» سنة ١٦٤٧م في باريس.. وقد نشرت هذه الترجمة عدة مرات.. واتخذت أساساً لكثير من الترجمات الأوروبية.. وحسب الدراسة الأولية للفهارس المختلفة يتضح لنا أن أول ترجمة انجليزية للقرآن الكريم عن الترجمة الفرنسية قد

طبعت أول مرة عام ١٦٤٩م في لندن.. وبعد ذلك ظهرت ترجمة القرآن الكريم عن العربية مباشرة ونشرت سنة ١٧٣٤م في لندن.. وقد طبعت هذه الترجمة مرات عديدة في انجلترا وأمريكا.. وصارت بعد ذلك أساسا اعتمد عليه في الكثير من الترجمات الأخرى.

□ إن إنجيل عيسى الأصلي المصدق ضاع في حينه.. ولم يعثر له على أثر منذ ما يقرب من عشرين قرنا.. وخابت محاولات المبشرين.. كما سبق أن خابت الحملات الصليبية.. وبلغ عدد المسلمين اليوم ما يزيد على الألف مليون مسلم.. وأحست باقي الشعوب الأخرى.. وإن تعددت ألوانها وأجناسها وعقائدها ولغاتها.. بجلال مبادىء الإسلام.. وروعة أصوله.. فهو عقيدة وشريعة.. وهو دين ودنيا.. يقوم على العدل والحرية والإخاء والمساواة.. حتى قبل الفرنسية وغيرهم.. وأركان الدولة فيه هي الأخوة والوحدة.. والتكامل والتضامن الاجتماعي والشورى.. والسلم ركيزة السلام هو القاعدة.. والحرب لمجرد الدفاع هي الاستثناء.. والعهد وفاء.. والإيمان توحيد بلا تثليث.. والقرآن دستور الحياة في الدارين.. قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَعَلَكُمْ تَعقِلُونَ﴾ (سورة يوسف الآيات ١ - ٢).. وقال جل شأنه: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوَعِيدِ لَعَلَهُمْ يَتَقُونَ﴾.. (سورة طه الآية ١١٣) وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذا القُرآنِ مِنْ كُلِ مَثَلٍ لَعَلَهُمْ يَتَذَكَرُونَ. قُرآنا عَرَبِياً غَيرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَهُمْ يَتقُونَ﴾ (سورة الزمر الآيات ٢٧ - ٢٨).. وقال عز من قائل: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِياً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة فصلت الآية ٣) وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيكَ قُرْآناً عَرَبِياً لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (سورة الشورى الآية ٧).. وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَعَلَكُمْ تَعقِلُونَ﴾ (سورة الزخرف الآية ٣)

مراحل ترجمة
القرآن في اوروبا

□ كان أول العاكفين على الدراسات العربية الإسلامية في انجلترا هو «أديلارد الحمامي» سنة ١١٢٥م.. وكان مربيا للملك هنري الثاني.. قام بترجمة بعض الآيات القرآنية من العربية إلى اللاتينية.. وتبعه في ذلك مفكر آخر هو: «دانيل مورلي» في القرن الثاني عشر.. وبعده «ميخائيل سكوت» في القران الثالث عشر الميلادي.. ويلاحظ أن البلاط البابوي ظل يتابع عنايته بتعليم اللغة العربية.. ابتغاء توحيد نصارى الشرق «القسطنطينية» وربطهم بالبابوية الغربية «الفاتيكان في روما» وقد تكون زيارة البابا يوحنا بولس عام ١٩٧٩م إلى تركيا صدى لهذه الفكرة القديمة التي ترجع إلى قرون خلت.. سعيا وراء ربط المذهب الكاثوليكي والبروتستانت.. والأمل في توحيد الكنيستين المسيحيتين الفاتيكان والقسطنطينية.. وهكذا يجري التقريب بين المذاهب المسيحية لعل في ذلك عظة وعبرة.

□ وكانت جماعة الإنجيليين يتبعون دائما التجار والمستعمرين والسياسيين والعلماء الباحثين حيثما اتجهوا إلى الشرق.. ليمكنوا لسيادة سادتهم حكام بلادهم.. ولينشروا في كل ركن في العالم رسالة المسيحية والإنجيل بين الناس.. ونشطت أسبانيا في وضع المعاجم العربية التي تعين المبشرين في اداء مهمتهم.. وأهمها القاموس العربي الأسباني الذي ظهر في غرناطة سنة ١٥٠٥م.. وفي أوائل القرن السابع عشر الميلادي كانت سياسة العنف في اسبانيا المسيحية تهدف الى التخلص من المسلمين.. ومن كل أثر باق للثقافة الإسلامية في أسبانيا.. وارتكب الكاردينال «خمنيس» جناية كبرى حتى أمر بجمع كل الكتب العربية

من أهالي غرناطة وحرقها في ميدان باب الرملة علنا.. وكان فيها كثير من المصاحف والتفاسير.. وآلاف من كتب العلوم والآداب والفلسفة العربية الإسلامية.. فأكلتها النيران كلها.. وكانت هي خلاصة ما بقي من التراث الإسلامي في الأندلس..

□ وهكذا تخلت أسبانيا بعد قرون طويلة كانت مصدر إشعاع للدراسات الإسلامية والعلوم العربية عن مهمتها.. فتلقفت الشعلة منها دول اوروبا الغربية.. وفي مقدمتها انجلترا وفرنسا وألمانيا.. وأدرك المستعرب الفرنسي «جيوم بوستيل» قيمة اللغة العربية.. ومرآتها القرآن الكريم.. للاتصال بالشام ومصر والمغاربة وشعوب الشرق قاطبة.. وكانت المخطوطات التي جمعها هذا العالم الفرنسي من الشرق هي النواة التي بنيت حولها الكتب السماوية.. فشجعت الكنيسة في المانيا المستشرقين على ترجمة «العهد الجديد» مبادىء السابقين إلى اللغة الإنجليزية.. وفي سنة ١٥٨٠م أنشأ «فرديناند ميديتش» كاردينال توسكانا.. مطبعة بحروف عربية في مدينة روما.. وكان أول أهداف هذه المطبعة بحروفها العربية هو التبشير بنشر الأناجيل الأربعة باللغة العربية في البلاد الشرقية.. وخلق التقارب بين الكنيستين الشرقية والغربية.. فكان أول نص عربي للإنجيل ظهر سنة ١٥٩٠م.. وبدأت المطابع بالحروف العربية تزداد وتنتشر في باريس سنة ١٦١٥م.. وأخرى في هولندا سنة ١٥٩٧م.. ورابعة في ألمانيا سنة ١٦٤٠م.. وأخرجت مطبعة اكسفورد أول كتابين بالحروف العربية سنة ١٦٤٨م للمستشرق الإنجليزي «ادوار بوكوك» كبير المستشرقين في عصره الأنجليزي.

□ ومن أوائل القرن السابع عشر الميلادي تكاثر عدد المستشرقين في انجلترا وخصوصا بعد اختراع المطابع بالحروف العربية.. وبعد الأندلس وجامعاتها.. ومدارس الترجمة والتبشير واللغات الشرقية.. ويعتبر «وليم

بدول » سنة ١٦٣٢م أبا الدراسات العربية الإسلامية المتأخرين.. فكان أول من أخرج ترجمة انجليزية للقرآن الكريم.. وتبعه في ذلك الفتح « ألكساندر روص » بترجمة ثانية للقرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية.. وقبل نهاية القرن السابع عشر الميلادي ظهرت طبعتان أخريان للقرآن الكريم: الأولى تتضمن النص العربي لكتاب الله الكريم نشرها « هنكلمان » في هامبورج سنة ١٦٩٤م.. والثانية تشمل النص العربي مع ترجمة لاتينية نشرها « ماراتش » سنة ١٦٩٨م.

□ وبهذه الترجمات للقرآن الكريم إلى الإنجليزية بدأت تظهر في أوروبا تقاليد ومفاهيم جديدة للاستشراق والإسلام ومحمد بن عبد الله ﷺ.. فظهر علماء إنجليز لدراسة وترجمة القرآن الكريم ومبادىء الإسلام.. والرسول ﷺ.. ويعتبر ظهور هذه الترجمات في تاريخ الدراسات القرآنية في انجلترا وأوروبا ايضا.. كما ظهرت ترجمات دقيقة اعتمدت على تفسير البيضاوي والسيوطي وغيرهما.. وكتبت مقدمات طويلة عن أصول الإسلام وعقائده.. وفروضه ومذاهبه.. فكانت ترجمات مستنيرة.. والغريب أن العلماء الذين كانوا يقومون بهذه الترجمات في أوروبا كانوا يتركون وراءهم اطفالا وزوجات فقراء في حالة مالية سيئة.. وهذا شأن العلماء العاكفين المتوكلين على ربهم.. ولو كانوا من أهل الكتاب.. وقد تكلموا عن العصر الجاهلي.. وعن سيرة النبي محمد ﷺ في كتاب عيسى بن هشام.

□ ويلاحظ أن الرأي العام في غرب اوروبا كان قد بدأ يتغير في اوائل القرن الثامن عشر الميلادي.. وظهر فيه اتجاه جديد حميد نحو الإسلام.. والنبي محمد رسول الله ﷺ.. فجاءت آراء العلماء الذين قاموا بترجمة القرآن الكريم من أمثال « جورج سيل » أقرب إلى حقيقة الإسلام.. مما كان في كتب أخرى لمؤلفين آخرين أمثال: « همفرى بريدو » سنة ١٦٦٨م والذي كان متخصصا في اللغة العبرية لا العربية.. وكان

« بريدو » ضائعا بأصحاب المذاهب الدينية بانجلترا يومذاك.. فكتب في مقدمة كتابه عن سيرة النبي محمدﷺ قال: « أليس هذا سببا كافيا يثير الخوف والقلق في بريطانيا سنة ١٦٨٨م أن يبعث الله لنا بنفس الطريقة محمدا آخر عقابا لنا على ما يسود بيننا من نزاع ومذاهب وعقائد.. إن انتشار آراء المؤمنين بوحدانية الله الأحد الصمد.. الذي لا هو والدولاولد.. والمنكرون من الناحية الأخرى لألوهية المسيح بن مريم.. فيه سبب كاف لاستنزال غضب الله علينا نحن الإنجليز.. إن الطاعون قد بدأ ينتشر فعلا بين ظهرانينا للصراع حول مذاهبنا ».. وكان الدافع لقول بريدو هو نشاط الجدل المذهبي في تلك البلاد حول فكرة الوحدانية والتثليث ولهذا كتب « بريدو » عن حياة محمدﷺ.. والثابت أن ترجمة القرآن إلى الإنجليزية بقلم « جورج سيل » قد طبعت ستا وعشرين مرة كان آخرها سنة ١٩١٣م.. وهي ما تزال حتى الآن موجودة في المكتبات.

□ وقد ظهرت بعض الكتب باللغة الفرنسية عن حياة النبي محمدﷺ سنة ١٧٢٢م.. كما ظهرت طبعات ونسخ مترجمة بالإنجليزية عن هذه الكتب سنة ١٧٣١م عالجت الموضوعات الإسلامية بروح التعاطف.. وعارضت بشدة الاتجاهات المسيحية التقليدية في معاداتها الأولى بتعصب كريه للإسلام والمسلمين.

□ وإذا كان أول من ترجم القرآن الكريم وسيرة النبي محمدﷺ إلى اللغة الإنجليزية هو « وليم بدويل » « وألكسندر روص » « وجورج سيل » فقد أقدم كل من هؤلاء على ذلك في عصر النهضة العلمية الأوربية وتبعهم بعد ذلك آخرون عندما تقابل المسلمون والأوروبيون في ساحات الحروب الصليبية.. فكما أن بلعام خرج ليدعو على بني إسرائيل.. فإذا به ينقلب على عقبيه ويدعو لهم.. كذلك الصليبيون خرجوا من أوربا

لقتال المسلمين بالشرق.. فإذا هم جلوس عند أقدامهم.. يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة.. وقد بهت أشباه الهمج من الأوروبيين الصليبيين عندما رأوا المسلمين على حضارة دنيوية ترجح حضارتهم الأوربية المسيحية رجحانا لا تصح المقارنة بينهما بحال من الأحوال.

□ ولقد وجدوا «المسعودي» المسلم العربي يعرض في كتابه «مروج الذهب» عرض خبير ما هو شعب غرب آسيا. وشمال افريقيا. وشرق اوربا.. ووجدوا «ابن خلكان» الدمشقي - ١٢٨٢م - يخطط قاموسا في تراجم العظماء.. وصفات الرجال جديرا بأن يقرن إلى تراجم «فلوطرح».. ووجدوا شيخ علماء العرب «عبد الرحمن بن خلدون» التونسي سنة ١٤٠٦م قد كتب مقدمته.. التي بلغت من سعة الإحاطة.. وصدق النظر.. وعمق الفلسفة.. ما حيرهم حقا.. وباتوا يتساءلون.. فبهت الذي كفر.. أحقا هذا الدين الجديد من عند الله رب إبراهيم وموسى وعيسى؟

□ وقد قام أخيرا عالم إسلامي جليل هو العالم الهندي عبد الله يوسف علي بترجمة القرآن الكريم ترجمة دقيقة أمينة صادقة.. وطبع هذا الكتاب لأول مرة في لاهور سنة ١٩٣٤م.. وقد وصلت إلى البحرين مؤخراً.. وقام بترتيبها وتنسيقها وطبعها ونشرها من جديد لفيف عربي مسلم من المؤمن.. الدارسين للعلوم الحديثة والتكنولوجيا بأمريكا سنة ١٩٧٧م باسم رابطة الطلبة المسلمين بالولايات المتحدة وكندا.. والكتاب ليس ترجمة للقرآن الكريم فحسب.. وإنما هو أيضا شرح وتفسير لمعاني كتاب الله وعباراته.. ويحوي النص العربي والأنجليزي لكل المجلد الضخم حوالي ١٩٠٠ صفحة من الحجم الكبير.. وهو جهد خارق بكل المقاييس.. فالترجمة إلى جانب دقتها والتزامها واضحة ومبسطة بحيث يستطيع فهم النص أي ملم باللغة الإنجليزية..

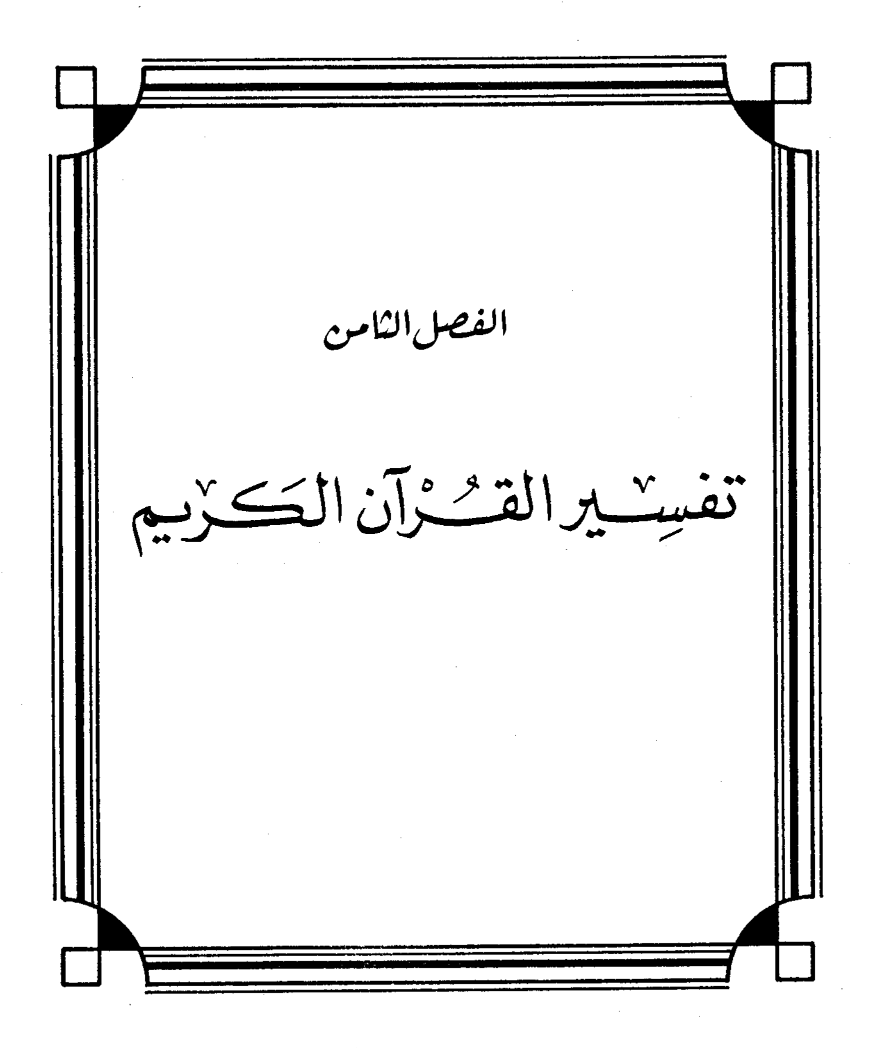
□ والترجمة المبسطة الواضحة لمعاني القرآن الكريم وتعاليمه ومبادئه وتوجيهاته أشمل فائدة.. وأعم نفعا باعتبار أن القرآن الكريم هداية للناس كافة عدلا وصلاحا.. وسلاماً وإسلاما.. والتفاسير الكثيرة الثرية هي التي تميز هذا العمل الجليل الخارق حقا من ترجمات معاني القرآن الكريم.. التي تعتمد على أمهات كتب التفسير الإسلامي.. كالطبري.. والأصفهاني.. والزمخشري.. وأكرازي.. والبيضاوي.. وأبو الفداء.. ومحمد عبده.. ورشيد رضا وغير ذلك من التفاسير القرآنية الدقيقة الصحيحة.

□ ولم تقتصر ترجمات القرآن الكريم على اللغة الإنجليزية.. فقد صدر منها أيضا إلى اللغة الفرنسية ١٢ اثني عشر ترجمة لعدد من العلماء الفرنسيين هي أقرب إلى ترجمات معاني القرآن الكريم ومبادئه وتوجيهاته ومفاهيمه.. وهذا مجهود نافع ومفيد إذا كانت الترجمة دقيقة.. وارتفعت إلى مستوى معاني السماء تحت رقابة شرعية إسلامية عربية.. لا يؤذن بطبعها ونشرها إلا بعد مراجعتها.. للتحقق من صحتها وسلامتها.. كي تأمن الزلل والخطأ وسوء القصد.

□ وقد أحصى الأستاذ أنور الجندي في كتابه عن الإسلام سنة ١٩٦٤م عدد العلماء الذين ترجموا القرآن الكريم إلى اللغة الألمانية فإذا هم ثلاثة عشر عالما.. وترجم القرآن الكريم إلى اليونانية سنة ١٩٨٠م وإلى اللاتينية ١٥٤٣م و ١٦٩٨م.. وإلى البولندية سنة ١٨٥٨م وترجم القرآن الكريم إلى اللغة الإيطالية في ثمان ترجمات من سنة ١٥٤٧م إلى اليوم.. وإلى اللغة البرتغالية سنة ١٨٨٢م.. وإلى الاسبانية سنة ١٨٤٤م من أربع ترجمات.. وقد ترجم القرآن الكريم من جديد إلى اللغة الأسبانية في طبعة ثانية عام ١٩٧٩م لدول أمريكا اللاتينية.. وصدق على هذه الطبعة المؤتمر الإسلامي الموقر في الرياض.. وتشمل هذه

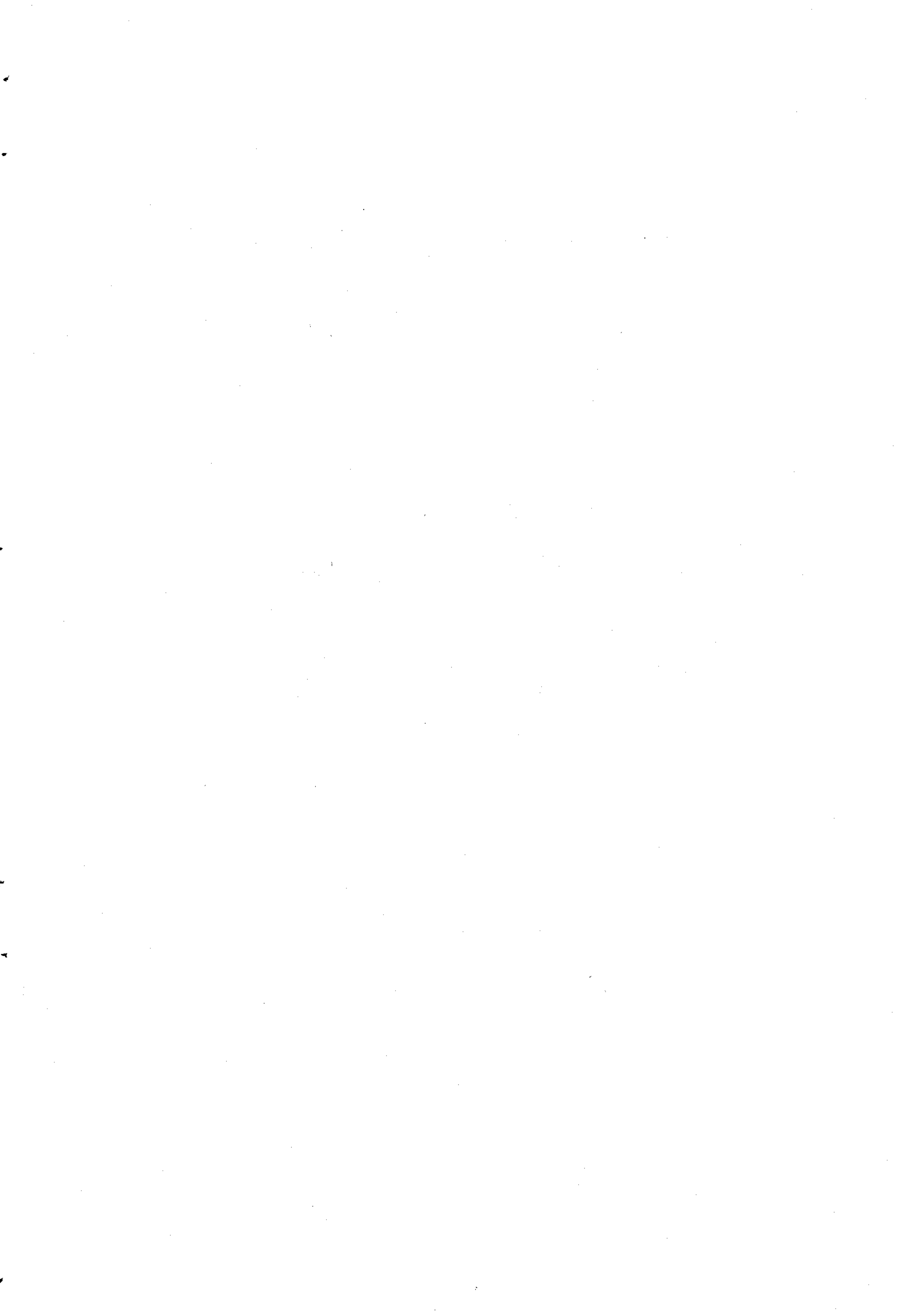
النسخة لكل سورة من عدد السور ١١٤ مائة وأربع عشرة سورة.. كما ترجم القرآن الكريم إلى اللغة العبرية سنة ١٨٩٥ م وإلى اللغة الهولندية خمس ترجمات بدأت سنة ١٩٤١ م.. وترجم القرآن الكريم إلى اللغة الدانمركية سنة ١٩١٩ م.. وإلى اللغة الأرمنية سنة ١٩٠٩ م.. وإلى اللغة البلغارية سنة ١٩٣٣ م.. وإلى البنغالية سنة ١٩٧١ م.. وإلى اللغة الرومانية سنة ١٩١٢ م.. واللغة المجرية سنة ١٨٥٤ م.. وإلى اللغتين اليابانية والبوهمية سنة ١٩٢٥ م.. وإلى اللغة الصينية إلى أربع ترجمات مختلفة أولها سنة ١٩٣٥ م.. وإلى اللغة البنجابية سنة ١٩١٩ م.. واللغة السواحلية سنة ١٩٢٣ م.. وإلى اللغة السويدية سنة ١٨٤٣ م.. وإلى اللغة الأفغانية سنة ١٩٤١ م..وإلى اللغة السندية سنة ١٩١٠ م.. وإلى اللغة النواجدانية أربع ترجمات أولها سنة ١٨٧٩ م.. وأخيرا ترجم إلى اللغة الجاوية سنة ١٩٠٣ م.

□ وجميع هذه الترجمات للقرآن الكريم موجودة في جميع مكتبات العالم بمختلف اللغات.. لكن يمكن الاطمئنان إليها.. وكيف تجري الرقابة عليها من العالم الإسلامي وعلى رأسه المملكة العربية السعودية في هذه الأيام؟ إن الأمل معقود على مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.. الذي سيقوم بطبع النسخ الصحيحة من القرآن الكريم.. وترجمات معاني القرآن الكريم.. وتوزيعها على مختلف أنحاء العالم.



الفصل الثامن

تفسير القرآن الكريم



□ الفسر.. بفتح الفاء وسكون السين في اللغة البيان.. والتفسير في اللغة معناه البيان.. والفسر: كشف المغطى.. وكل شيء يعرف به تفسير الشيء ومعناه.. فهو تفسرته.. واستفسرته هكذا: سألته أن يفسره لي.. وتفسير القرآن الكريم هو بيان كلام الله عز وجل.. بذكر مفهومات الكلمات والعبارات الموجودة في القرآن الكريم.

□ ويقول بعض العلماء: التفسير في الاصطلاح هو علم نزول الآيات وشئونها وأقاصيصها.. والأسباب النازلة فيها.. ثم ترتيب مكيها ومدنيها.. ومحكمها ومتشابهها. ونسخها ومنسوخها وعاملها.. ومطلقها ومقيدها.. ومجملها ومفصلها.. وحلالها وحرامها.. ووعدها ووعيدها.. وأمرها ونهيها.. وعبرها وأمثالها.

□ ومن الواضح أن كلمة تفسير تدل بصفة خاصة في الإسلام على تفاسير القرآن الكريم.. وعلى علم التفسير نفسه الذي يعرف باسم «علم القرآن والتفسير» ولا شك أن عدم الوقوف على تفسير القرآن الكريم يجعل الإنسان جاهلا بمقاصد هذا الكتاب الإلهي المجيد.. ومن هنا قال سعيد بن جبير: «من قرأ القرآن ولم يفسره كان كالأعمى أو كالأعرابي» يقصد البدوي الجاهل الذي لم يتعلم.

□ وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على الدعوة إلى العناية بتفسير القرآن كقوله تعالى: ﴿وإذَا جَاءَهُم أمْرٌ من الأمن أو الخَوفِ أذَاعُوا بِهِ ولَو ردُّوهُ إلى الرَّسُولِ وإلى أولِي الأمْرِ مِنهُم لعلمَهُ الذينَ يَستَنْبطُونَهُ مِنهُمْ﴾ (سورة النساء آية ٨٣ وقوله عز وجل: ﴿أفَلاَ يَتَدبَّرُونَ القُرآنَ أم على قُلُوبٍ أقفَالهَا﴾ (سورة محمد آية ٢٤) وقوله سبحانه وتعالى: ﴿كِتَابٌ أنزَلنَاهُ إلَيكَ مُبارَكٌ لِيَدبَّروا آيَاتِهِ وليَتَذكَّرَ أُولُواْ الألبَابِ﴾. (سورة ص آية ٢٩)

□. وجاء في الأحاديث النبوية الشريفة ما يدل أيضا على الدعوة إلى

تطلب التفسير والعناية بأمره.. وذلك مثل قول الرسول ﷺ: « القرآن ذلول « سهل تنطلق به الألسنة ».. ذو وجوه.. فاحملوه على أحسن وجوهه ».. وقول ﷺ: « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله.. ويتدارسونه بينهم.. إلا نزلت عليهم السكينة.. وغشيتهم الرحمة.. وحفتهم الملائكة.. وذكرهم الله فيمن عنده ».

□ والمفسر لكتاب الله سبحانه وتعالى يتعرض لمهمة علمية دقيقة وشاقة.. ذلك لأنه لا يفسر كلا ما عاديا لفرد من البشر.. ولا يحكم على حديث مخلوق مثله.. وإنما هو يفسر كلام الخالق جل وعلا.. وهذه مهمة من أدق المهات.. وأكثرها جهدا وخطرا.. ولكي يستقيم المفسر في تفسيره لآيات الله.. ويوفقه ربه سبحانه وتعالى لقول الحق والنطق به.. لا بد له من أن يضرب بسهم وافر في علوم يحتاجها.. لكي يكون قادرا على القيام بهذا العمل الجليل.. وهذه العلوم يمكن إجمالها فيما يأتي:

أولا: اللغة.. ليعرف بها شرح المفردات ومدلولاتها بحسب الوضع ولا يكفي في حقه معرفة اليسير من اللغة.. فقد يكون اللفظ مشتركا وهو يعلم أحد المعنيين ولا يعلم الآخر بينما هو المراد.. ويقول الإمام مجاهد: « لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب ».

ثانيا: النحو.. لأن المعنى يتغير ويختلف بإختلاف الإعراب.. فلا بد من معرفة وجوه الإعراب.. لتحديد المعنى المراد من التركيب بناء على معرفة إعرابه.

ثالثا: التصريف.. وبه يفسر المفسر أبنية الكلمات وموازينها وصيغتها فإذا وجد كلمة مبهمة استطاع تصريفها.. فيعرف مادتها ومعناها.. ومن جهل علم التصريف تعرض

لأخطاء شائكة في التفسير.

رابعا: الاشتقاق.. وهو معرفة المصدر الذي صدرت عنه الكلمة.. فالاسم إذا كان من مادتين مختلفتين اختلف معناه باختلافهما.. كالمسيح مثلا.. أهو من السياحة؟ أم من المسح؟

خامسا: علوم البلاغة الثلاثة.. المعاني والبيان والبديع.. فعن طريق علم المعاني يعرف المفسر خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى.. وبعلم البيان يعرف المفسر خواص التراكيب من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة على المعنى المراد أو إخفائها.. وبعلم البديع.. يعرف المفسر وجوه تحسين الكلام.. ويقول الإمام السيوطي: «وهذه العلوم الثلاثة هي علوم البلاغة.. وهي من أعظم أركان المفسر.. لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز.. وإنما يدرك بهذه العلوم».

سادسا: علم القراءات.. لأن هذا العلم هو الذي يجعل الإنسان يعرف كيف ينطق القرآن الكريم.. وبهذه القراءات يترجح بعض الوجوه التفسيرية المحتملة على البعض الآخر.

سابعا: أصول الدين.. أي قواعده المتعلقة بصفات الله تعالى.. وبالأيمان لأن العالم بأصول الدين يستطيع أن يستدل من القرآن على ما يستحيل وما يجب وما يجوز.

ثامنا: أصول الفقه.. لأن المفسر يستطيع بمعرفته أن يدرك وجه الاستدلال على الأحكام.

تاسعا: أسباب النزول.. لأن معرفة سبب النزول للآية توضح المراد منها.

عاشرا: الناسخ والمنسوخ.. ليعلم المفسر به الآيات المحكمة والآيات المنسوخة إذا وجدت.

حادي عشر: الحديث.. لأن أحاديث رسول الله ﷺ الشريفة تبين للمفسر المجمل والمبهم.. فالقرآن يذكر الأحكام الشرعية غالبا بصورة كلية.. وهذا يحتاج إلى بيان وتفسير.. والسنة تتكفل بهذا.. يقول الله تعالى: ﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾.. ويقول الرسول ﷺ: «لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري.. مما أمرت به أو نهيت عنه.. فيقول لا ندري.. وما وجدنا في كتاب الله اتبعناه».

فلا بد عند تفسير القرآن من الرجوع إلى السنة الشريفة إن وجد منها شيء يفسر النص القرآني.. وإلا نظرنا في تفسير السلف الصالح.. وإلا اتبعنا مطلق الفهم العربي الصحيح.

ثاني عشر: علم الموهبة.. ويقول عنه الإمام السيوطي: «إنه علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم» وإليه الإشارة بحديث «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم».

قصة تفسير القرآن

١ - تفسير الله سبحانه وتعالى: إن قصة تفسير الآيات القرآنية تبدأ بتفسير الله سبحانه وتعالى.. لأنه الأعلم بكلامه ومراده.. وأنه هو المبين الأول للقرآن الكريم.. يقول سبحانه وتعالى: ﴿كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ ويقول تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾.. ويقول تعالى: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾ ويقول تعالى: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق

وأحسن تفسيرا﴾ ويقول تعالى: ﴿ثم إن علينا بيانه﴾.

□ وقد روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «ما كان رسول الله ﷺ يفسر من كتاب الله إلا آيا بعدد علمه إياهن جبريل» وجبريل هو سفير الرحمن إلى نبيه الكريم ﷺ.. فلا شك في أنه نقل هذا التفسير عن الله سبحانه وتعالى.. وإذا راجعنا الآيات التي فيها كلمة «يسألونك» أو «يستفتونك» ووقفنا على تفسيرها وأسباب نزولها فهمنا منها أن الله سبحانه وتعالى تولى بيان أمور وتفسير الأحكام.. وفي تحريم الخمر مثلا تروي السيرة أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كان يدعو الله فيقول: «اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا» حتى نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّما الخَمرُ والميسرُ والأنصَابُ والازلامُ رِجسٌ من عَمَلِ الشَّيطَانِ، فاجتَنِبُوه لعَلَّكُم تُفلِحُونَ، إنما يُرِيدُ الشَّيطَانُ أَنْ يُوقعَ بَينكُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ في الخَمرِ والميسرِ، ويَصُدُكُم عن ذِكرِ اللهِ وعن الصَّلاةِ، فهَلْ أنتُمْ مُنتَهونَ﴾ (سورة المائدة الآيات ٩٠ - ٩١) فقال عمر في صوت متهدج.. وفي إيمان عميق: «انتهينا ربنا انتهينا..!».

□ ومن تفسير الله سبحانه وتعالى لكتابه العزيز أنه قد يذكر أمرا مطلقا في آية.. ثم يقيده في آية أخرى.. وقد يذكر أمرا عاما في موضع.. ثم يخصصه في موضع آخر..

٢ - تفسير الرسول عليه الصلاة والسلام: ويأتي تفسير الرسول ﷺ بعد تفسير الله سبحانه وتعالى.. ذلك لأن الرسول الكريم هو الذي كان يتلقى الوحي.. ويبلغ عن الله جل جلاله.. وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وأنزلنَا إليكَ الذِّكرَ لتُبيِّنَ للنَّاسِ ما نُزِّلَ إليهِم﴾ (سورة النحل آية ٤٤) ويقول تعالى: ﴿ومَا أنزَلنَا عَلَيكَ

الكِتَابَ إلاَّ لِتُبيِّنَ لَهُمُ الذِي اختَلَفُوا فِيهِ﴾. (سورة النحل آية ٦٤)

□ ومن الطبيعي أن يسأل الصحابة رضي الله عنهم النبي ﷺ عن معاني آيات القرآن الكريم.. وأن يجيب الرسول عن ذلك.. وهو بداهة لم يفسر هذه الآيات من عنده.. بل بوحي من الله سبحانه وتعالى.. وكأن النبي ﷺ يسأل جبريل ملك الوحي عن تفسيرها.. وجبريل لا يفسرها من عنده.. بل يتلقى تفسيرها عن الله جل جلاله.. صاحب القرآن والمفسر الأول له.

□ ولقد تحاشى رسول الله ﷺ أن يعطي للقرآن الكريم شرحا مستفيضا.. أو تفسيرا مطولا لا رغبة منه في أن يقرأ القارئون بالأسلوب الإلهي النضر اليانع.. وتوجيها منه ﷺ من أن يقرأ القارىء وكأنما يتلقاه من فم الوحي مباشرة غضا متألقا.. فيكون له مصدر هداية.. وباعث رشاد.. ونبعا فياضا بالحكمة والموعظة الحسنة.

٣ - تفسير الصحابة رضي الله عنهم: أما أصحاب الرسول الأعظم ﷺ فما كانوا يجرأون على تفسير آيات القرآن الكريم.. والنبي ﷺ بين أظهرهم.. يتحمل العبء العظيم.. ويؤديه حق الأداء.. حتى إذا قضى الرسول الكريم نحبه.. لم يكن بد للصحابة الحافظين لكتاب الله.. الواقفين على أسراره.. من أن يقوموا بقسطهم في شرح ما علموه وتفسير ما فهموه.

□ وتحاشى كبار الصحابة رضي الله عنهم أن تستفيض أقلامهم بشرحه وتفسيره.. متأسين في ذلك بالرسول ﷺ.. ورغبة منهم في ألا تسدل الآراء البشرية ستائر تحجب النور القرآني من أن يصل إلى القلوب مباشرة صافيا رقراقا.. وأنهم لم يحاولوا أن يقيموا حجبا بين القرآن الكريم وقلوب قرائه.. وكان في استطاعتهم أن يكتبوا في تفسيره

وتأويله ما شاء الله أن يكتبوا.. لكنهم لم يفعلوا ذلك لأنه مما لا ريب فيه أن التفسير تحديد.. وأن الشرح تقييد.. وأن التأويل يتخلله عنصر من الحدس والتخمين.. وذلك كله تحديد لما لا يمكن أن يحد.. وتقييد للانطلاق النوراني.. وتخمين في مجال يتسامى عن التخمين.

□ والمفسرون من الصحابة الأجلاء رضي الله عنهم لآيات القرآن الكريم كثيرون، اشتهر منهم عشرة هم: الخلفاء الراشدون الأربعة.. وابن عباس.. وابن مسعود.. وأبي بن كعب.. وزيد بن ثابت.. وأبو موسى الأشعري.. وعبد الله بن الزبير.

□ أما الخلفاء الراشدون فأكثر ما روي عنه منهم الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.. وكان إمامهم في ذلك.. وهو القائل: «لو أردت أن أملي وقر «حمل» بعير على الفاتحة.. «أي سورة الفاتحة» لفعلت».. أما الرواية عن الثلاثة الآخرين فنادرة جدا.. وأعتقد أن السبب في ذلك هو تقدم وفاتهم.

□ وأجدر هؤلاء العشرة الكرام جميعا بلقب المفسر هو عبد الله بن مسعود.. ويذكر الإمام النووي أنه ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ ضم ابن عباس إلى صدره وقال: «اللهم علمه الكتاب».. وفي رواية للبخاري: «اللهم علمه الحكمة».. وفي رواية لمسلم: «اللهم علمه الفقه».. وقال فيه الإمام مجاهد: «كان إذا فسر آية من القرآن رأيت على وجهه النور» وعبر عنه البعض بأنه: «الحجة الكبرى في مسائل التفسير» وقال عنه ابن مسعود: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس».

□ وكان عبد الله بن عباس يستعين في تفسيره لآيات القرآن الكريم بشواهد من الشعر العربي.. فهو صاحب أول مدرسة في التفسير استعانت باللغة والشعر.. واتسع نطاقها فيما بعد.. وكان يقول: «إذا تعاجم شيء من القرآن «أي خفى معناه» فانظروا في الشعر.. فإن الشعر عربي»..

ومعنى هذا أن ابن عباس شجع الطريقة اللغوية في تفسير القرآن الكريم.. وذلك حين استعان بالشعر وكلام العرب في تفهم أسلوب القرآن وتعبيره.. وقد روي لابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ ألف وستمائة وستون حديثا.. اتفق البخاري ومسلم على خمسة وتسعين.. وانفرد البخاري بمائة وعشرين منها.. ومسلم بتسعة وأربعين.

□ وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس: «ما رأيت أحدا أعلم من ابن عباس بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ.. وبقضاء أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.. ولا أفقه منه.. ولا أعلم بتفسير القرآن بالعربية والشعر.. والحساب والفرائض.. وكان يجلس يوما للفقه.. ويوما للتأويل «للتفسير» ويوما للمغازي.. ويوما للشعر.. ويوما لأيام العرب.. وما رأيت عالما قط جلس إليه إلا خضع له.. ولا سائلا سأله إلا وجد عنده علما».. وكان علي بن أبي طالب يقول فيه: «كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق».

□ ولكن الناس تزيدوا في الرواية عن ابن عباس.. وتجرأ بعضهم في الوضع عليه.. والدس في كلامه.. حتى قال الإمام الشافعي: «لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث».

□ وقد وجد مفسرون آخرون من الصحابة بجوار ابن عباس.. ومن أشهرهم عبد الله بن مسعود الذي قال عنه عبد الله بن عمر كما ورد في صحيح البخاري: «لا أزال أحبه.. سمعت النبي ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود.. وسالم.. ومعاذ.. وأبي بن كعب».

□ وكان عبد الله بن مسعود يقول: «والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت.. ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت.. وما أنا بخيركم.. ولو أعلم أحدا أعلم

بكتاب الله مني تبلغنيه الإبل.. لركبت إليه ».

٤ - تفسير التابعين: وقد تتلمذ على هؤلاء الصحابة الأبرار نفر من كرام التابعين في الأمصار الإسلامية.. فنشأت طبقة للمفسرين في مكة.. وطبقة ثانية في المدينة.. وأخرى ثالثة في العراق.. وكان أعمل الناس بالتفسير هم أهل مكة.. لأنهم أصحاب عبد الله بن عباس مثل مجاهد وطاووس وعطاء ابن رباح.. ثم أهل الكوفة بالعراق.. لأنهم أصحاب عبد الله بن مسعود.. ثم أهل المدينة مثل زيد بن أسلم.. ومالك بن أنس.

□ وعن هؤلاء التابعين أخذ تابعو التابعين.. فجمعوا أقوال من سبقوهم.. وصنفوا التفاسير المختلفة كما فعل سفيان بن عيينة.. ويزيد بن هارون وغيرهم.. فكانوا لذلك أئمة لابن جرير الطبري الذي يوشك المفسرون جميعا أن يكونوا عالة عليه من بعده.

□ وبعد ذلك اتجه علماء التفسير في كتاباتهم اتجاهات متباينة.. فكانوا مناهج مختلفة في التفسير منها:

أولا: التفسير بالمأثور.. وهو امتداد للتفاسير السابقة المسندة إلى الصحابة والتابعين وتابعيهم.. وأعظم هذه التفاسير « جامع البيان في تفسير القرآن » لابن جرير الطبري المتوفي سنة عشر وثلاثمائة للهجرة.. وهو يعد حجر الأساس في أدب التفسير القرآني.. والطبري مفسر ومحدث وفقيه ولغوي.. ويعد من أعظم المؤرخين في التاريخ الإسلامي.. ويسميه الأوربيون بأبي التاريخ الإسلامي.. وطريقته في التفسير هي أن يعرض لأقوال الصحابة والتابعين منسقة بعضها عقب بعض مع ذكر أسانيدها.. وترجيح بعضها على بعض.. واستنباط الكثير من الأحكام.. كما يعنى.. مع حرصه على الرواية.. بالاستعمال

اللغوي العربي.. لأن هذا الاستعمال هو المرجع الموثوق به في تفسير العبارات التي لم يرد في تفسيرها أثر صحيح.. وهو يكثر من الاستشهاد بالشعر العربي متأثرا في ذلك بمدرسة عبد الله بن عباس.. ويؤخذ على تفسير الطبري أنه كان يغفل أحيانا عن ذكر بعض الأسانيد عند سرده لوجوه التفسير المروية.. اعتمادا منه على معرفة الناس بها.. وأحيانا أخرى يذكر منها غير الصحيح دون أن يشير إلى ذلك.

□ والطبري واسع المعرفة بقراءات القرآن.. وقد ألف كتابا في القراءات يتكون من ثمانية عشر جزءا.. جمع فيه كل القراءات الواردة.. وتناولها بالتمحيص والنقد.. ويعد كتاب الطبري مرحلة أولى في التفسير مهدت لفتح الباب أمام المرحلة الثانية من مراحله.

□ ويقرب من تفسير ابن جرير الطبري.. وربما يفوقه في بعض الأمور تفسير «ابن كثير».. ومن مزاياه الدقة في الإسناد.. وبساطة العبارة.. والوضوح في الفكرة.. كذلك سار على هذا المنهج الإمام السيوطي في تفسيره المعروف باسم «الدر المنثور في التفسير المأثور».. وقد اعتمد فيه على الأخبار الصحيحة المأثورة التي تجعله أقرب إلى الفكرة الإسلامية منه إلى الشروح الإنسانية.

□ ولكن غالبا ما تعرض التفسير بالمأثور إلى النقد الشديد.. لأن الصحيح من الروايات كثيرا ما اختلط بغير الصحيح.. ولزيادة نشاط زنادقة فارس وأحبار اليهود الذين اعتنقوا الإسلام للإضرار به وتشويه تعاليمه.. فقد تنقل اليهود في المجتمع الإسلامي.. وبثوا فيه ما بثوا من قصصهم ومفترياتهم التي اصطلح العلماء على تسميتها بالإسرائيليات..

هذا بالإضافة إلى ما لأصحاب المذاهب والشيع من ولع غريب بجمع معاني القرآن وتفسيرها وفق هواهم.. فكان لزاما على المفسر بالمأثور من

أن يدقق في تعبيره.. ويحترس في روايته.. ويحتاط كثيراً في ذكر أسانيده.

ثانياً: التفسير بالرأي.. اختلف علماء التفسير حوله اختلافا كبيراً.. فمنهم من حرمه استنادا الى حديث شريف يقول: «من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ» لان القرآن لا يجوز تفسيره بالرأي.. أي بالتفكير الذاتي.. ولا بالهوى.. أي الميل الاختياري.. ومن فسر القرآن بالرأي.. أو بالهوى.. أي بغير علم فقد كفر.

▫ ومن العلماء من أجازه.. ذلك لان القرآن نفسه دعا الى هذا الاجتهاد في تدبر آياته.. والتفقه في تعاليمه «كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته، وليتذكر أولو الالباب».

▫ ومهما يكن من أمر فقد ذكر الامام السيوطي في كتابه «الاتقان» خلاصة الشروط التي لا بد منها لاباحة التفسير بالرأي.. ولخصها بأربعة شروط هي:

١ - النقل عن رسول الله ﷺ.. مع التحرز عن الاحاديث الضعيفة والموضوعة.

٢ - الاخذ بقول الصحابي.. فقد قيل: انه في حكم المرفوع مطلقا.. وخصه بعضهم بأسباب النزول ونحوها مما لا مجال للرأي فيه.

٣ - الأخذ بمطلق اللغة مع الاحتراز عن صرف الآيات الى ما لا يدل عليه الكثير من كلام العرب.

٤ - الاخذ بما يقتضيه الكلام.. ويدل عليه قانون الشرع.،. وهذا الشرط الرابع هو الذي نص به الرسول ﷺ.. ودعا من آجله لابن عباس في قوله: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل».

□ ومن أشهر التفاسير التي تـوافرت فيها هذه الشروط تفسير الامام فخر الدين البـرازي واسمه «مفاتيح الغيب».. وفيه يسلك مسلك الحكمـاء في الاستدلالات الكلامية المنطقية.. ويعني ببحث الكونيات عناية خاصة.. ويقسم الآية أو الآيات التي يكون بصدد تفسيرها الى عدد من المسائل.. ثم يسترسل في تأويلها مدافعا عن عقيدة أهل السنة والجماعة.

□ وكذلك تفسير الامام البيضاوي واسمه «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» وفيه يعني مؤلفه بتقرير الادلة على أصول أهل السنة.. ولا يفوته التنبيه على قواعد اللغة.. الا أنه ليس بالحجة فيما يرويه من الاحاديث في ختام كل سورة لبيان فضلها.. فأكثر ما روي فيها غير صحيح.. وله حواس كثيرة أفضلها حاشية الشهاب الخفاجي.. وهي أكثرها تداولا.

□ ومنها تفسير أبي السعود للامام الطحاوي المسمى «ارشاد العقل السليم بمزايا القرآن الكريم».

□ وفيه يقرر الامام الطحاوي أدلة دامغة على عقائد أهل السنة.. وعن تبيـان المباحث المتعلقة باعجاز القرآن.. مع اشراقة في الاسلوب.. وتذوق سليم للبلاغة القرآنية.

□ ومنها أيضاً تفسير الامام النفسي الذي أسماه «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» وقد عني فيه بالدفاع عن وجهة نظر أهل السنة والجماعة.. والرد على أهل البدع والاهواء.. هذا بالاضافة الى أن تفسيره جامع لوجوه الاعراب والقراءات.. وفيه اشارات دائمة الى روائع البلاغة القرآنية في عبارات شديدة الايجاز.

□ على أن التفسير بالرأي حتى مع استيفائه جميع الشروط التي تجعله محموداً.. لا مسوغ له اذا عارضه التفسير بالمأثور الذي ثبت لنا بالنص

القطعي.. لان الرأي اجتهاد.. ولا مجال للاجتهاد مع وجود النص.

ثالثا: تفسير الفرق الاسلامية المختلفة: وترجع كلها الى منهج التفسير بالرأي ومن أشهرها:

١ - تفسير المعتزلة.. ويغلب على تفسير أهل هذه المدرسة الطابع العقلي.. وتسوده مذاهب علم الكلام طبقا لقاعدتهم المشهورة «الحسن ما حسنه العقل.. والقبيح ما قبحه العقل» ومن أمثلة استخدام العقل بالرأي في التفسير عند أهل هذه المدرسة أن بعض المفسرين تكلم عن قوله تعالى: ﴿عَسى أن يَبْعثَكَ رَبُّكَ مقَاماً محُموداً﴾ (سورة الاسراء آية ٧٩) فقال: إن المقام المحمود هو أن الله تعالى يجلس محمدا على العرش ثوابا له على تهجده.. فجاء المعتزلة وقالوا: «إن المراد بالمقام هو: مرتبة الشفاعة».. ووجدوا لهم سندا في قول الإمام الطبري إن حديث الجلوس على العرش محال..

وفي إنشاده:

سبحان من ليس له أنيس ولا له على عرشه جليس

□ وفسروا قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمئذ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (سورة القيامة الآيتين ٢٢ - ٢٣) بأن المراد بالنظر هنا ليس النظر بالعين.. بل هو «الرغبة في انتظار جزاء الله».

□ وخير من يمثل هذه النزعة العقلية في التفسير الامام الزمخشري في كتابه «الكشاف» الذي يمتاز بايراد التراكيب البلاغية.. وتحقيق بعض وجوه الاعجاز.. بالاضافة الى أنه خال من الاسرائيليات التي تكثر في بعض كتب التفسير بالمأثور.. وعبارته بليغة موجزة.. ليس فيها حشو وتطويل.

٢ - تفسير المتصوفة: حاول الصوفية منذ نشأة فرقهم أن يجدو لمبادئهم

وتعاليمهم مستنداً خلال النصوص القرآنية.. وهم يرون أن النص القرآني تحتجب وراء دلالته اللفظية أفكار عميقة.. ومعان دقيقة.. ويرون أن المعنى الحقيقي للتنزيل الالهي لا يتناهى عند هذه البسائط البادية من ظاهره.. وأن هناك معنى ظاهراً ومعنى باطناً.. وأن الاهم هو المعنى الباطني.. ولذلك يقول ناصر الدين خسرو: «تفسير النص بالظاهر هو بدن العقيدة.. بيد أن التفسير الأعمق يحل محل الروح.. وأينا يحيا بدن بلا روح».

□ والصوفية أيضاً يقولون أن تحت كل حرف من حروف القرآن كثيراً من الفهم.. وهو مذخور لاهله على قدر ما قسم لهم من ذلك.. ويستندون على ذلك بقول الله تعالى: ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ وقوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾.

□ وقالوا: إن معنى «من شيء»: من شيء من علم الدين.. وعلم الأحوال التي بين الخلق والخالق سبحانه.. وغير ذلك.. وإنما يصل الإنسان إلى ذلك إذا تدبر في القرآن.. وتفكر وتيقظ.. وأحضر قلبه عند تلاوته.. لأن الله تعالى يقول: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾.

□ ويغلب على تفاسير الصوفية الشطحات الخيالية التي تبعدهم عن النسق القرآني.. وعن المعنى الحقيقي للآيات الكريمة.. وتجعل كلامهم غامضا لا يؤدي إلى معنى واضح.. ولكنه يثير الكثير من الشك والبلبلة.

□ فمثلا يقولون في تفسير الآية الكريمة: «أنزل من السماء ماء.. فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا».. يقولون: «أنزل من السماء

ماء يعني القرآن.. «فسالت أودية بقدرها» يعني حفظها القلوب بمقاديرها من القلة والكثرة.. «فاحتمل السيل زبدا رابيا».. يعني ما يحمل ألفاظه ومظاهره من معاني متشابهاتها.. حفظتها قلوب المنافقين الزائفة.

□ وإن كان المشهور في التفسير غير ذلك.. وقد أدخلوا بهذا التفسير الخيالي البعيد عن روح النسق القرآني.. الكثير من البدع والخرافات.. والضلالات والشعوذة.. والدجل والأوهام والأباطيل.. وأفسدوا بهذه الانحرافات والبدع والضلالات البلاد والعباد.

□ يقول الإمام الزركشي في «البرهان» عن تفسير الصوفية للقرآن الكريم: «فأما كلام الصوفية في تفسير القرآن.. فقيل: ليس تفسيرا.. وإنما هي معان ومواجيد يجيدونها عند التلاوة.. كقول بعضهم في: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ إن المراد النفس.. فأجرنا بقتال من يلينا.. لأنها أقرب شيء إلينا.. وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه».

□ وهذا ظاهر الكذب والبطلان والافتراء على الله سبحانه وتعالى.. كما يقرر ذلك الإمام الزركشي في كتابه «البرهان» وأن هؤلاء قوم ضالون ومضلون.

٣ - تفسير الشيعة: لا مراء في أن الخلاف السياسي الذي استعر بين الفرق الإسلامية قد تسلل بدوره إلى تفسير القرآن الكريم.. ولعل أكثر الأنشطة السياسية في تفسير القرآن الكريم تفسيرا مذهبيا أو سياسيا هم الشيعة.. وقد توسعوا في ذلك الأمر كثيرا.. وصارت لهم تفاسير خاصة.. وغالى البعض في هذا المجال مغالاة سيئة.. بمحاولاتهم إخضاع النص القرآني للتفسير السياسي

كالذي روو عن سعيد بن جبير أنه روى عن ابن عباس أنه قال: لما نزلت: «إنما أنت منذر ولكل قوم هاد» وضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال: «أنا المنذر».. وأشار بيده إلى منكب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقال: «وأنت الهادي يا علي.. بك يهتدى المهتدون من بعدي».

□ وقد فسر العلويون قوله تعالى: ﴿وأت ذا القربى حقه» فأن المراد بالقربى هنا هم أهل النبي ﷺ.. مع أن النص كما يبدو عام في التحريض على صنع المعروف إلى ذوي القربى.. وأداء حقوقهم.. وهم يقولون إن ربع القرآن جعل أمر العلويين موضوعا له.. والربع الثاني يتعلق بأعدائهم.. والربع الثالث يشتمل على النظم التشريعية.. وأخيرا يحتوي الربع الرابع على القصص والأمثال.. ويتعلق بعلي وحده سبعون آية من القرآن.

□ ونسجل هنا نموذجا من التفسير المغالى الذي يعد أخف من غيره.. وهو يتعلق بالآيات التالية: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار﴾.

□ قيل إنه سئل الأمام أبو جعفر عن مثل هذا التمثيل ففسره كما يلي: «الشجرة: رسول الله.. ونسبه ثابت في بني هاشم.. وفرع الشجرة: علي بن أبي طالب.. وغصن الشجرة: فاطمة عليها السلام.. وثمرتها الأئمة من ولد علي وفاطمة عليها السلام.. وشيعتهم سلام الله عليهم ورقها.. وأن المؤمن شيعتنا ليموت فيسقط من الشجرة ورقة.. وإن المؤمن ليولد فتورق الشجرة ورقة». ثم قيل إنه سئل الإمام عن معنى الكلمات: تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها».

□ فقال: يعني بذلك ما يفتي به الأئمة شيعتهم في كل حج وعمرة من الحلال والحرام.. ثم ضرب الله لأعداء محمد مثلا فقال: ﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار﴾.. قال: «أولئك الكافرون لا تصعد أعمالهم إلى السماء.. وبنو أمية لا يذكرون الله في مجلس ولا في مسجد.. ولا تصعد أعمالهم إلى السماء إلا القليل منهم».

□ هكذا يروون ويفسرون القرآن الكريم على مذهبهم.. ولذلك يقول المستشرق المجري «جولد تسهير» في كتاب «مذاهب التفسير الإسلامي»: «وفيما عدا كتب التفسير المنهجي المنظم.. يفيض كل كتاب من كتب الدين الشيعية فوق ذلك باستخدام طريقة هذه الفرقة في التفسير.. وتطبيق القرآن بالقسر والإكراه على مذهبهم العقائدي.. وعلى أساطيرهم التي نموها في نطاق تصوراتهم عن الأئمة ومناقبهم الخارقة للعادة».

رابعا: حركة التجديد في التفسير «التفسير المعاصر» لقد أصيب العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر بالتأخر والجمود والاحتلال الأجنبي.. فجاء السيد جمال الدين الأفغاني.. وصرخ صرخته المدوية لإيقاظ العالم الإسلامي من سباته العميق.. وكان أول تلاميذه الإمام الشيخ محمد عبده الذي أخذ يلقي دروسا في تفسير القرآن الكريم على طريقة توحي بتجديد مبادىء الإسلام.. وربط التعاليم الدينية بالحياة المدنية.. وإظهار أن الإسلام لا يتعارض أبدا مع العلم والحضارة والمدنية والتقدم في الحياة.. ويرى الشيخ محمد عبده أن عناية المفسرين بالنحو أو البلاغة أو الفلسفة يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهي الكريم.. ويذهب بهم في مذاهب شتى تنسيهم معناه الحقيقي.. والتفسير الذي يطلبه الشيخ محمد عبده هو فهم

الكتاب الكريم من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في الحياة الدنيا.. وحياتهم الآخرة.. فإن هذا هو المقصود الأعلى منه.

□ وتلى ذلك تفسير الشيخ طنطاوي جوهري المعروف باسم: «الجواهر في تفسير القرآن» الذي قال عنه بعض العلماء: إن تفسيره فيه كل شيء ما عدا التفسير.. أما «تفسير المنار» للسيد محمد رشيد رضا فإنه نمط خاص في تفسير كتاب الله عز وجل.. يرجع فيه مؤلفه غالبا إلى آثار السلف.. محاولا التوفيق بينها وبين مقتضيات العصر الحاضر.. ويحالفه النجاح في أكثر هذه المحاولات.. إلا أنه أحيانا يتمسك ببعض الآراء الضعيفة.. ويدافع عنها بقوة وعناد.. وإذا كان المألوف في تفسير آيات القرآن الكريم هو أن يتناول المفسر الآيات آية.. آية.. كما جاءت في ترتيب المصحف.. ويفسرها على التوالي.. فإننا نجد أن «تفسير المنار» لا يتقيد بهذه الطريقة.. بل يذكر الشيخ رشيد رضا طائفة من الآيات ذات غرض عام.. ثم يفسرها.. فإذا انتهى من ذلك انتقل إلى تفسير طائفة أخرى بعدها وهكذا.

□ والمنهج الذي يصدر عن هذا التفسير يدل بوجه عام على تعمق الشيخ محمد رشيد رضا في الأسلوب القرآني.. ودراسته له على أنه كتاب هداية وتشريع.. وليس كتابا لتفصيل العلوم والفنون.. وفي هذا يقول: «أيها المسلمون.. إن الله تعالى أنزل عليكم كتابه هدى ونورا ليعلمكم الكتاب والحكمة.. ويزكيكم.. ويعدكم لما يعدكم به من سعادة الدنيا والآخرة.. ولم ينزله قانونا دنيويا جافا كقوانين الأحكام.. ولا كتابا طبيا لمداواة الأجسام.. ولا تاريخا بشريا لبيان الأحداث والوقائع.. ولا سفر فنيا لوجوه الكسب والمنافع.. فإن ذلك مما جعله الله تعالى باستطاعتكم.. لا يتوقف على وحي من ربكم».

□ وقد توسع في هذا المنهج الجديد من التفسير الأستاذ سيد قطب في كتابه: «في ظلال القرآن».. فهو يذكر الربع من القرآن كاملا.. ثم يفسره.. فإذا انتهى منه أورد الربع الذي يليه وفسره.. وهكذا.. ونلمس في ذلك لمحات موفقة جميلة في فهم أسلوب القرآن في التعبير والتصوير.. نحس فيه أن الغرض الأسمى للمفسر هو تبسيط المبادىء القرآنية للناشىء المسلم الصغير.. فهو يهدف إلى التوجيه أكثر منه إلى التعليم.

□ على أن التفسير بالمأثور إذا اجتمع إليه حسن الاستنباط.. وسعة الثقافة.. والقدرة على الترجيح.. يصبح أولى التفاسير بالاعتبار والتقدير.. ومع ذلك فنحن لا ننصح بالاقتصار عليه.. والاعتماد على آراء علمائه.. إذ لا بد لنا لتفسير الآية أو الآيات.. من الرجوع إلى مختلف المناهج في التفاسير.. ثم نحاول أن نختار لأنفسنا أصح الآراء فيها.. إلا إذا ثبت لنا على وجه اليقين أثر صحيح في الموضوع.. فنأخذ به.. ونطرح ما عداه.. إذ لا مسوغ للاجتهاد مع وجود النص الصريح.

□ كان جيل الصحابة رضي الله عنهم أجمعين هو الجيل الذي رباه القرآن الكريم.. وأخرجه للناس جيلا مثاليا لم يسبق له وجود في تاريخ الإنسانية.. وكان هذا الجيل الكريم الأمثل هو الجيل الذي تمثل فيه الهدف العملي للقرآن الكريم.. أو الهدف العملي الواقعي القريب في هذه الحياة الدنيا.. وهو إنشاء الأمة الوسط.. أو الأمة المثال والأنموذج.. وتبديل واقع الناس من الضلال إلى الهدى.. وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

□ ولقد تحقق ذلك في هذا الجيل القرآني الفريد.. وهو جيل الصحابة الذي تربى خطوة خطوة.. ويوما بعد يوم.. وقام بناؤه الشامخ لبنة..

لبنة.. على نحو نزول القرآن الكريم آية وراء آية.. ومجموعة من الآيات وراء مجموعة أخرى.. على اختلاف الأوقات والأزمان.. والدواعي والأسباب.. حتى تحقق ذلك الغرض العملي من كتاب الله الكريم.. ويدل على ذلك بإيجاز قول أنس بن مالك رضي الله عنه: «كنا إذا نزلت الآيات لما نتجاوزها حتى نعمل بما فيها.. فتعلمنا العلم والعمل جميعا.. هذا العمل أو هذا السلوك الحي.. أو هذا الاستلهام للروح القرآنية.. والعمل بموجبها ومقتضاها.. هو ما انصرفت إليه همة الصحابة.. وتجردوا له رضي الله عنهم.

□ ولهذا نجد أن الصحابة.. وكثيرا من التابعين من بعدهم.. لم يعنوا بتدوين التفاسير المطولة للقرآن الكريم.. يثقلونها بتفصيل القول في علوم القرآن.. أو علوم التفسير الواسعة.. ومدلولات الآيات البعيدة.. أو اشاراتها العميقة.. ولم يكن ذلك لنقص في علمهم بكتاب الله تعالى كما زعم بعض الجهال.. بل لمزيد من هذا العلم من حيث الفهم الصحيح والمتكامل لكتاب الله تعالى.. نظرا لمعرفتهم باللغة.. ومعاصرتهم للتنزل.. وفهمهم لجميع نصوصه في سياقها وسباقها الصحيح.. ومناسبتها الواضحة.. بناء على ذلك التدرج.. ولاستلهامهم لتلك الروح القرآنية العالية.. وعملهم بموجبها يوما بعد يوم.. يخلون أمامها الطريق وهي تهدم كل رواسب الجاهلية.. وأفكارها.. وتصوراتها.. وقيمها.. وموازينها.. حتى علا ذلك البنيان الشامخ الفريد.

□ ولهذا فإن ما خلفه لنا الصحابة والتابعون في تفسير القرآن الكريم لا يصور لنا الغرض الأساسي الذي نزل القرآن من أجله.. والذي وعاه رضوان الله عليهم وطبقوه.. وعاشوه واقعا وعملا.. وإذا رجعنا إلى ما أثر من تفسيرهم للقرآن الكريم لوجدنا أنه نوع من التفسيرات اللغوية.. أو شرح لبعض الجمل والتراكيب.. بالإضافة إلى بيان المناسبات ونحوها مما له علاقة بالأماكن والوقائع والأرقام والأعلام.. والذي كانوا يجدون

فيه ما يكفي لرفع مبادىء القرآن الى مستوى إدراكهم وتحسسهم للغرض الأساسي من القرآن الكريم.

□ وقد كان اختلاف الصحابة والسلف في التفسير اختلاف تنوع.. لا اختلاف تضاد.. كما لاحظ ابن تيمية رحمه الله وذكره في «مقدمته في أصول التفسير».. ولهذا أيضا كانت كتب تفسير القرآن الكريم في مرحلة نشأتها كتبا شارحة للقريب.. لأن من الراجح أن سبيل التفسير في ذلك العصر القريب من عصر التنزيل كان يستوي بمثل هذا الشرح.. ومن هنا كان من الصواب ما ذكره بعض المحققين من أن هذه الأسماء: «غريب القرآن».. و«معاني القرآن».. و«مجاز القرآن» كانت في عرف المتقدمين مترادفة.. أو كالمترادفة.

□ أما فيما وراء ذلك.. فالقرآن الكريم النابض بالحياة.. المبدل للنفوس والعقول.. والذي أوجد ذلك الجيل.. وأوجد هذه الأمة.. وفي العصور الأولى على وجه الخصوص.. هذا القرآن لا يمكن تحصيل معانيه من خلال تراث الصحابة رضي الله عنهم في تفسير القرآن الكريم.. وإنما ينبغي تحصيله.. لمن قدر على ذلك من خلال ذلك التمثيل الكامل للقرآن الكريم.. والذي تجلى في حياة الصحابة وسلوكهم وفهمهم عن الله سبحانه وتعالى.. ومن خلال روحهم العظيمة.. تلك التي سرت في العالم فأحيت موات النفوس.. وأنارت الطريق للعقول.. ووصلت الخلق بالخالق بحبله المتين.. ونوره المبين.. هذا القرآن الكريم.

□ بل ينبغي تحصيل هذا التفسير قبل ذلك.. من خلال السيرة النبوية الشريفة.. وخلق النبي الكريم ﷺ.. هذا الخلق الذي كان الصورة العملية الكاملة للقرآن الكريم.. كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها.. وقد سئلت عن خلقه ﷺ.. فأجابت بتلك الكلمة العبقرية الفذة: «كان خلقه القرآن».. ولهذا صح للعلماء السابقين ما قالوه فى

تعريف التفسير بالمأثور من أنه: «ما أثر عن النبي ﷺ.. والصحابة والتابعين.. تفسير للقرآن الكريم».. ولكن ما أثر عنهم لا ينبغي أن يكون مقصورا على الأقوال.. بل يجب أن يتعداه أو يسبقه إلى السلوك والأعمال.

□ ولهذا لم يشتغل جميعهم بكتابة تفسير القرآن.. ولعل من أشتغل به منهم كان يرى ان جلاء تلك المفردات أو الكلمات.. وبيان تلك الشروح والمناسبات.. كاف لرفع قارىء القرآن إلى مستوى إدراكهم هم. وتحسسهم للغرض الأساسي العمل لكتاب الله تعالى.

□ وحين يتقرر هذا كقاعدة عامة.. نقيم بها ما ورد عن الصحابة والتابعين في تفسير القرآن الكريم.. لا ينبغي ان يكون هذا فتحا لمجال الترخص بإهمال ما ورد عنهم.. وإهمال آرائهم وأقوالهم.. وهم أدرى الناس به لما شاهدوه وعاصروه.. ولما اختصوا به من المنازل والأحوال.. وإنما نعني أن ما ورد عنهم من الأقوال لا يكفي وحده لفهم المدلولات العملية للقرآن الكريم.. في ضوء فهمهم العميق للغرض الأساسي لنزول القرآن الكريم.. والذي لم يدونوه بأقلامهم رضي الله عنهم.. أما الاستظهار بما ورد عنهم.. والاستفادة من أقوالهم وتعليقاتهم فأمر لازم لكل من أراد فهم القرآن وتفسيره من جديد.

□ ومن المعلوم كما سبق.. أن شيخ المفسرين والمؤرخين الإمام أبا جعفر محمد ابن جرير الطبري.. المتوفي سنة ٣١٠ هـ قد ضم تفسيره: «الموسوم بجامع البيان عن تأويل آي القرآن» والمشهور بتفسير الطبري.. قد ضم كتابه هذا على تفسير الصحابة التابعين وغيرهم من عصور السلف الأولى.. أو القرون المشهود لها بالخيرية والفضل.. ولكن تفسير الطبري ينطوي كذلك على ما يسمى بالتفسير بالرأي.. يظهر ذلك على أحلى ما يكون في اختيارات الطبري نفسه.. وترجيحاته.. وما يذهب إليه في

تفسير الآية أو الآيات.. لأن هذه الاختيارات والآراء تجاوزت الرواية المأثورة إلى ما هو أعم وأوسع.. كل ذلك على ما تقتضيه اللغة والشريعة وأصول التفسير.. ولهذا يعتبر تفسير الطبري أول خطوة هامة.. أو أبرز خط في السلم البياني الذي يمكن فهمه لتاريخ التفسير.. لا يضارعه في ذلك سوى تفسير «يقي بن مخلد الأندلسي» المتوفي سنة ٢٧٦ هـ.. وهما الاثنان يمثلان هذه المرحلة من التفسير.. ثم تلت ذلك معالم بارزة.. وخطوط عريضة لعلها تتمثل بعد ابن جرير.. أو ابن مخلد - وإذا تجاوزنا مجموعة كبيرة من التفاسير المخطوطة.. والتي يأتي في طليعتها تفسير «الخازن» أو «المختزن» لأبي الحسن الأشعري.. و«تأويلات أهل سنة» لأبي منصور الماتريدي في تفسير ابن عطية «المحرر الوجيز».. وتفسير الزمخشري «الكشاف توفي ابن عطية سنة ٥٤٦ هـ ويعتبر كتابه أصلا لكتاب القرطبي.. وتوفي الزمخشري سنة ٥٢٨ هـ.. ثم في تفسير الفخرالرازي المتوفي سنة ٦٠٦ هـ.. وأخيرا في تفسير الحافظ بن كثير الدمشقي المتوفي سنة ٧٧٤ هـ.. الذي يمثل علامة بارزة في ذلك الخط البياني حتى العصر الحديث.

□ وقبل أن نبحث في تحقيق هذه التفاسير للغرض الأساسي الذي نزل القرآن الكريم من أجله.. والذي يتمثل في إقامة الشخصية الإسلامية.. وبناء أمة لها خصائصها ومميزاتها.. وإنشاء جيل على قواعد من التربية الاسلامية.. تجعله صورة ناطقة عن الحق الذي نزل به القرآن.. ليكون بذلك خير أمة أخرجت للناس.. تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر.. وتجاهد في سبيل.. قبل أن نبحث هذا.. علينا أن نتذكر البيئة التي كان يعيش فيها هؤلاء المفسرون الأعلام.. والجو الذي كانوا يتنسمونه.. وينطلقون فيه.. لأن الجزء الذي أغفلوه من ذلك الغرض الأساسي كان متحققا من حولهم في مجتمع إسلامي.. وشريعة حاكمة.. وسلطان إن لم يأخذ نفسه بأحكام الإسلام.. فإنه لا يستطيع الخروج عليها.. فضلاً عن

استحالة اقدامه على محاربتها.. أو تنشئة الأطفال على خلافها.. ولذلك كان هم المفسرين القدامى مصروفا إلى «تثقيف» المسلم.. وتقديم القدر الذي يتمكن منه المفسر.. من العلوم والمعارف اللغوية والتاريخية.. ونحوها.. لقارىء التفسير.. وبخاصة الأحكام الشرعية التي يستفيد منها ويخاطب بها المكلف.. ومن هنا طال وقوفهم وتشعب.. أمام آيات الأحكام أكثر من سواها.. حتى صارت عماد بعض التفاسير كما هو معلوم.. الشخصية المسلمة موجودة.. والمجتمع الإسلامي قائم.. والقرآن الكريم هو الذي أوجد من الأصل هذا المجتمع.. وتلك الشخصيه ثم بقي.. وسيبقى هو زاد هذا المجتمع.. ومحوره ودليله.. والمفسرون خلال التاريخ الإسلامي.. كانوا يقدمون هذا الزاد.. ويدورون حول هذا المحور.. بحيث يمكن القول.. إن من أراد أن يؤرخ للحياة العقلية أو الاجتماعية عند المسلمين.. فعليه أن يفعل ذلك من خلال تفاسيرهم للقرآن الكريم في الاعتبار الأول.. والسؤال الآن: هل نجح المفسرون خلال العصور في تقديم هذا الزاد الكافي أو اللازم للمجتمع الإسلامي.. والشخصية الإسلامية.. ترميا تارة.. وإعادة صياغة مرة.. وإحياء للروح مرة أخرى؟.

□ وللإجابة على هذا السؤال نجد أنفسنا أمام ملاحظتين هامتين: الملاحظة الأولى: أن المفسرين على وجه الإجمال.. بقو على طريقتهم السابقة في التعامل مع النص القرآني.. تثقيفاً للمسلم.. وإغناء له بأنواع العلوم والمعارف.. ولكنهم لم يتجهوا إلى السياق الذي وردت فيه الآيات.. والذي يشكل الخلفية أو الجو المساعد الذي يخاطب الفرد المسلم ليتقبل الأحكام.. لم يتجهوا إلى السياق ليسبطوا عليه الأضواء.. وليكون موضع الدراسة والبحث والوقوف الطويل.. بل ظل قائما في الظل.

□ وهذه الملاحظة تبرز مدى المحاكاة والنقل والتقليد الذي ساد

المجتمعات الإسلامية بعد عصر ابن كثير على وجه الخصوص.. حتى انتهى الأمر إلى مجموعة من الحفظيات.. يستعرض المفسر من خلالها عشرات الأقوال.. ليقال إنه بحر في العلم.. وجهد في التفسير.. بعيد اعن الصورة القرآنية المحركة للنفوس والقلوب والعقول جميعا.. حتى إذا صحا العالم الإسلامي على حقيقة أحواله.. بعد مداهمة الحضارة الأوربية الاستعمارية لدياره وعقيدته.. نهض ليدفع عنه تهمة الجهل بالعلوم الطبيعية.. والمعارف الإنسانية.. وليعيد للشخصية الإسلامية من خلال القرآن الكريم توازنها وفاعليتها.. إذ به في أول عهد الصدام.. لا يهتدي إلى الغرض الأساسي أو الرئيسي من نزول الكتاب الكريم.. وأنه دستور شامل للحياة الإنسانية.. وأنه كتاب هداية وتشريع.. هدفه الأساسي إنشاء أمة لها خصائصها ومميزاتها.. إذا به لا يهتدي لذلك.. فيضيع البقية الباقية التي انحدرت إلى المفسرين قبله.. أو التي ظلوا محافظين عليها.. منطلقين في ظلها.. فكانت تفاسير طنطاوي جوهري.. وجمال الدين الأفغاني.. ومحمد رشيد رضا.. ومحمد عبده.. وسيد قطب.

□ الملاحظة الثانية: هو أن حركة التفسير منذ عصر التدوين.. أو منذ أن تأصل الخلاف بين المتكلمين وأصحاب الفرق.. كانت صورة عكست نقاط الخلاف.. وكانت في بعض الأحيان استجابة لها.. أو محاولة لتأكيدها.. ولانتصار عليها.. كما يلاحظ ذلك في كتابي: الأشعري والماتريدي.. وفي كتاب الرازي.. الذي مثل من وجه آخر اهتمامات العصر الطبيعية والاجتماعية والفلسفية على منهج لا يمكن وصفه بالأصالة والوحدة.. وهذا فضلا عن تفاسير المعتزلة الكثيرة التي انطلقوا فيها من مجموعة من المسلمات.. التي أسموها أصولا.. وحاولوا حمل الآيات عليها.. بتأويل قريب مرة.. وتأويل بعيد مرات أخرى.

□ وهذه الصورة تمكن من تلخيص الملاحظة الثانية.. بأن معظم المفسرين على اختلاف نزعاتهم الكلامية والمذهبية.. دخلوا الى النص

القرآني بصورة عامة.. بمقرر فكري.. أو موقف سابق.. حتى صار ميزان المحكم والمتشابه على سبيل المثال.. متأرجحاً بين الآيات الموافقة من حيث الظاهر للمذهب.. أو المخالفة له.. ومن هنا مهد المتكلمون جميعا الطريق أمام التأويل.

□ وبكل تأكيد فإن هذا المقرر الفكري المسبق.. لم يكن شيئا آخر خارجا عن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.. من موروثات أو آثار مترجمة أو منقولة.. كما يزعم بعض المستشرقين.. ولكنه موقف اجتهادي نابع من طبيعة اللغة العربية.. وطبيعة اختلاف الفكر والنظر العقلي.

□ ومعنى ذلك أن المقرر الفكري المسبق الذي لم يكن شيئا خارجا عن النص القرآني نفسه.. لأن هذه هي حال جميع الفرق والمذاهب التوحيدية في الإسلام.. لم يحصل في الوقت ذاته.. لأن الخلف كان عندهم من العلم في كتاب الله تعالى ما ليس عند السلف.. أو لأنهم ،بعد انتهاء المد الروحي الأول.. تفرغوا لملاحظة التعارض في بعض النصوص القرآنية.. لأن مصدر التعارض هنا أو سببه.. ليس هو نصوص القرآن الكريم.. ولكنه فهم المفسر أو عقله.. أو تجزيئه للصورة القرآنية الواردة في موضوع واحد.. بغض النظر عن أسباب هذا التجزيء.

□ وإذا ربطنا بين هاتين الملاحظتين.. وبين التفسير بالمأثور.. أدركنا الأهمية القصوى لكتابه تفسير القرآن الكريم الذي يمتاز بثلاثة أمور هامة:

□ الأول: انطلاقه.. أو ملاحظته للغرض الأساسي الذي نزل القرآن الكريم من أجله.. والمتمثل في إنشاء أمة لها خصائصها ومميزاتها.. وتربية جيل على قواعد من التربية الإسلامية السليمة.. تجعله صورة ناطقة عن الحق الذي نزل به القرآن الكريم.. كل ذلك بما يتناسب

في هذا العصر.. مع غياب المجتمع الإسلامي.. والدولة الإسلامية.. بل بما يذكر بظروف نشأة الإسلام الأولى.. وأعداء الإسلام يتربصون بالمسلمين.. وهم قلة.. ويتآمرون على دعوتهم.. بحيث لا يكون الانطلاق من فكرة تقديم زاد ثقافي للمسلم.. بل إعادة صياغته وفقا لمنهج كتاب الله من جديد.

□ الثاني: تسجيله لمعاني القرآن الكريم التي فهمها الصحابة رضي الله عنهم.. واستلهموها وعاشوا تطبيقها العملي الواقعي الذي لم يعرف تفريقا بين النظرية والتطبيق. والتي يمكن الاهتداء إليها في ضوء اختلاف التنوع فيما أثر عنهم من كلام مكتوب.. وفي ضوء الاهتمامات العملية لحركة المجتمع في مواجهة أعدائه.. لتكون كلمة الله هي العليا.. كما تتضح في موقف الصحابة رضي الله عنهم.. على سبيل المثال.. يوم بني قريظة حين عجل بعضهم صلاة العصر.. وأخرها البعض الآخر.

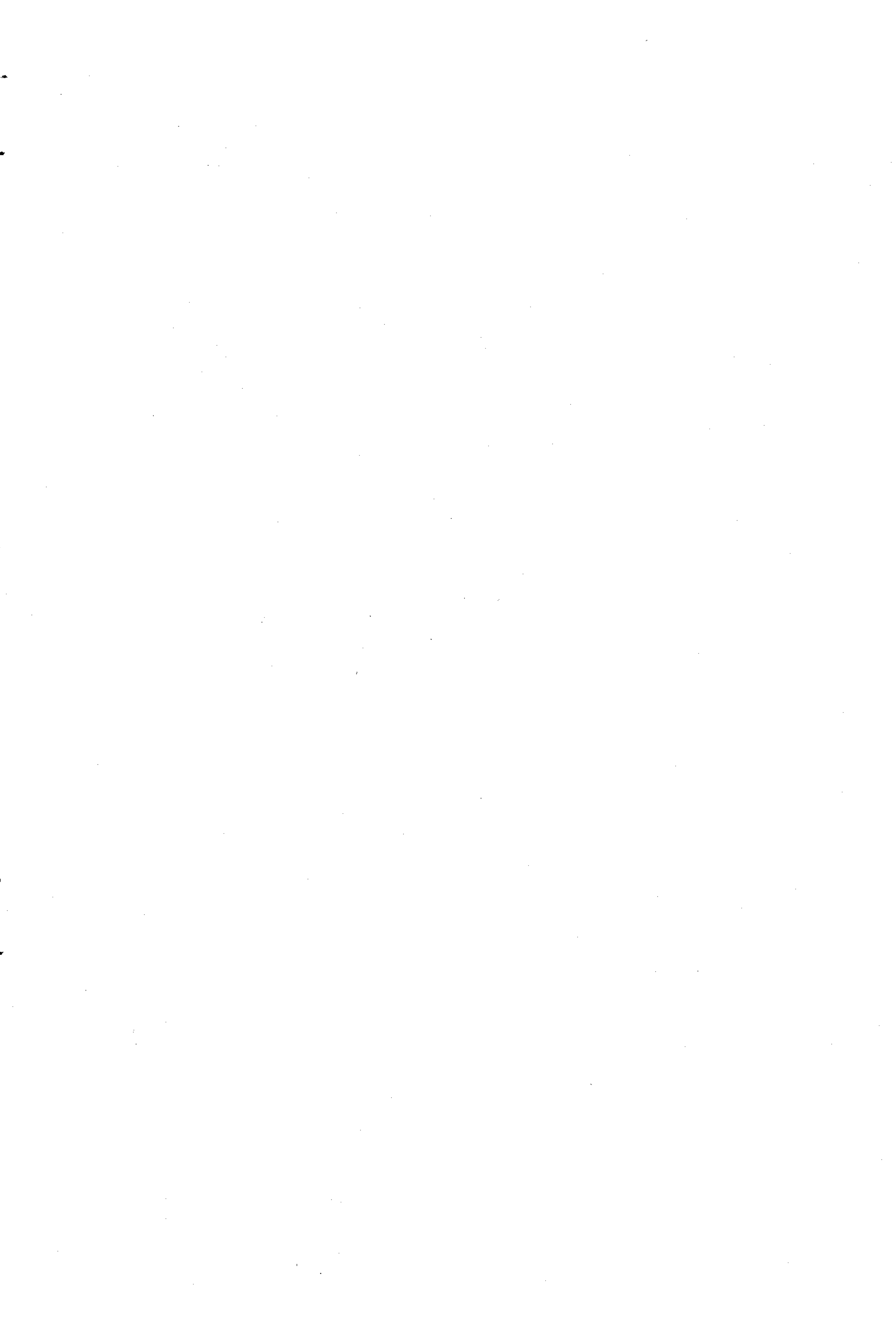
□ الثالث: محاولته تجاوز عصر الخلاف.. أو عصر المذهبية الفكرية في تفسير القرآن الكريم.. التي وقعت في خطأ المقرر الفكري المسبق كما أشرنا من قبل.. وذلك خضوعا للمدلولات القرآنية المباشرة.. أو بصورة مباشرة.. على ما يحتاج إليه هذا الأمر من ثقافة واسعة.. وحس مرهف.. وتمكن علمي.. ورؤية صادقة تمكن صاحبها لمثل هذا الفهم المتكامل لكتاب الله تعالى.. والذي يتخلص من التجزيء.. أو من أخذ الصورة القرآنية مفرقة.





الفصل التاسع

القرآنُ الكريمُ .. وَالعِلْم !!



□ إن إعجاز القرآن الكريم لم يتوقف.. ولن يتوقف.. وإذا كان القرآن الكريم قد تحدى الكفار في عصر نزوله.. وأنبأهم بما يدور داخل صدورهم.. بل أنبأهم بمصائرهم.. فإنه قد تحدى البشرية في هذا الزمان.. بل ويستدل بهم في إثبات قضية الإيمان.. وقد جاء القرآن الكريم.. وبعد أكثر من أربعة عشر قرنا ليستخدم الكفار في إثبات أن دين الله حق.. وأن القرآن الكريم هو كلام الله المنزَّل على رسول الله ﷺ !!.

□ وعندما يقول الله عزَّ وجل: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الروم آية ٦).. ويقول تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (سورة الروم آية ٧).. يكون قد أعطى معلومات أن الإنسان يعلم عن الحياة في هذه الدنيا.. ولكنه يغفل أمر الآخرة.. أي أن مدى علم الإنسان هو الحياة الدنيا التي يحياها فقط!!.

□ أما نشاطات الحياة الأخرى.. وآيات الله في الكون.. فالمطلوب أن نبحث فيها.. وأن نتأمل.. ونصل إلى حقائق ننتفع بها.. وإذا أردنا أن نحدد هذه الموضوعات نجدها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرات مُخْتَلفاً أَلْوانُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُها وَغَرَابِيبُ سُودٌ.. وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِ وَٱلأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ..﴾ (سورة فاطر الآيتان ٢٧ - ٢٨).

□ وهكذا نرى الله سبحانه وتعالى تكلم عن الجماد.. وتكلم عن النبات.. وتكلم عن الحيوان والإنسان.. وجاء سبحانه وتعالى بالمتناقضات الموجودة في النوع الواحد: ﴿ومِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوابِ

وَٱلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ..﴾.. وهذه أجناس الوجود كلها.. وهو علم يحتاج إلى مجلدات ومؤلفات.. فسبحان الله!!.

□ يقول العلماء: من أكثر الاختلافات وضوحا.. بين شتى الحيوانات.. الاختلافات في الأحجام.. إلا أن ذلك لبعض أسباب لم يثر إلا قليلا من الإهتمام بين بعض المشتغلين بعلم الحيوان.. فقد تخلو بعض المراجع من أية إشارة إلى أن النسر أكبر حجما من العصفور.. وأن فرس البحر أكبر حجما من الأرنب البري.. ولو أن هناك بعض اعترافات عن ذلك في حالة الفأر والحوت.. ومع ذلك فإن اليسير إظهار أن الأرنب البري لا يمكن أن يصل إلى ضخامة فرس البحر أو الحوت.. أو إلى صغر سمكة الرنجة.. لأن هناك حجما يعد أنسب الأحجام لكل طراز من الحيوان.. ومما لا مفر منه أن التغيير الكبير في الحجم يصاحبه تغيير في الشكل!!.

□ ولنتخذ أكثر الحالات الممكنة وضوحا.. ولنتأمل حالة رجل عملاق.. يبلغ طوله ستين قدما.. يكاد يكون في طول إحدى السمكات العملاقة.. «بوب العملاق» أو «بيجان العملاق».. الذي كنا نراه في طفولتنا مصورا في كتب الرحلات هذه المخلوقات الهائلة لا تبلغ فقط في طولها عشرة أمثال طول الرجل العادي.. بل تبلغ كذلك عشرات المرات في اتساعها وسمكها.. بحيث أن وزنها الكلي يبلغ ألف مرة من وزنه.. أو حوالي ثمانين إلى تسعين طنا.. ومن سوء الحظ أن القطاعات المستعرضة لعظامها لا تتجاوز مائة مرة مثيلاتها في الرجل العادي.. ومن ثم فإن كل بوصة مربعة من عظام العملاق لا بد أن تتحمل عشرة أمثال الوزن الذي تتحمله البوصة المربعة من عظام الإنسان.. ولما كانت عظمة الفخذ تتكسر تحت حوالي عشرة أمثال وزن الإنسان.. فإن السمكة العملاقة بوب.. أو بيجان قد تتكسر أفخاذها كل مرة يخطوان فيها خطوة.. وهذا بلا ريب هو السبب في أنها يجلسان في الصور.. ولكنها

قللت من احترام الفرد للإنسان!!.

□ وإذا اتجهنا إلى علم الحيوان وافترضنا أن الغزال.. وهو المخلوق الصغير.. ذو الأرجل الطويلة والرفيعة.. قدر له أن يصبح ضخما.. فإن عظامه سوف تتكسر ما لم يقم بأحد شيئين: إما أن يجعل أرجله قصيرة وسميكة كالخرتيت.. بحيث يظل كل رطل من الوزن له حوالي مساحة العظمة التي تتحمله.. وإما أن يستطيع ضغط جسده.. أو مط أرجله بميل.. لاكتساب الاستقرار مثل الزرافة!!.

□ والجاذبية الأرضية التي تقلق راحة الإنسان.. لا تعد في الواقع مصدر خطر للفأر أو ما شابهه من حيوانات صغيرة.. فإننا نستطيع إسقاط فأر في مدخل منجم لمسافة ألف ياردة.. وعندما يصل إلى القاع فلا تعتريه إلا هزة خفيفة.. ويجري بعدها.. على أن تكون الأرض رخوة إلى حد ما.. في حين أن الجرذ يقتل.. والإنسان يتكسر.. والحصان يتناثر.. لأن المقاومة التي يبديها الهواء ضد الحركة تتناسب مع سطح الجسم المتحرك.. فإذا قسم كل من طول وعرض وارتفاع الحيوان على عشرة.. فإن وزنه يختزل إلى واحد في الألف.. ولكن لا يختزل سطحه إلا إلى واحد في المائة.. ومن ثم فالمقاومة للسقوط في حالة الحيوان الصغير تكون نسبيا أكبر من القوة الدافعة بعشرة أمثال!!.

□ ولذلك فان الحشرة لا تخاف من الجاذبية الأرضية.. وتستطيع أن تسقط دون خطر.. وتلتصق بالسقف دون أدنى مشقة.. إلا أن هناك قوة مخيفة للحشرة.. كما تعد الجاذبية الأرضية مخيفة للثدييات.. لعلها هي التوتر السطحي.. فالإنسان عندما يخرج من حمام يحمل معه غشاء من الماء يبلغ سمكه حوالي واحد على خمسين من البوصة.. وهذه تزن حوالي رطل.. أما الفأر المبتل فإنه لا بد وأن يحمل وزنه من الماء.. كما لا بد من الذبابة المبتلة أن تحمل وزنها عدة مرات!!.

□ ومما هو معروف لكل إنسان أن الذبابة إذا ابتلت مرة بالماء.. أو بأي سائل آخر.. فتكون في الواقع في موقع حرج للغاية.. والحشرة التي تذهب لتشرب تكون في نفس الموقف الحرج الذي يتعرض له إنسان.. حين ينحني فوق جرف عال باحثا عن الماء.. فإذا وقعت مرة في قبضته التوتر السطحي للماء.. بمعنى أنها تبتل.. فمن المحتمل أنها تظل كذلك حتى تغرق.. وهناك قلة من الحشرات مثل الخنافس المائية.. ابتكرت طريقة لعدم الابتلال.. وتعمل غالبيتها على تناول شرابها بواسطة خرطوم طويل!!.

□ ومما لا ريب فيه أن الحيوانات الأرضية الطويلة تواجه صعوبات أخرى.. حيث لا بد لها من دفع دمائها إلى ارتفاعات أكثر من الإنسان.. ومن ثم فهي تحتاج إلى ضغط دم أكبر.. وأوعية دموية أصلب.. وهناك كثرة من الناس تموت من انفجار الشرايين.. لاسيما في المخ.. ويحتمل أن يكون هذا الخطر أكثر في الفيل أو الزرافة.. إلا أن الحيوانات من شتى الأصناف تجد صعوبات من حيث الجسم للسبب التالي:

□ إن حيوانا صغيرا نموذجيا.. مثل دودة مجهرية.. يكون لها جلد ناعم يمكن أن يتخلله جميع الأوكسجين اللازم لها.. وهي مستقيمة ذات سطح لامتصاص طعامها.. فإذا ازدادت أبعادها عشر مرات في كل اتجاه.. فإن وزنها يزيد ألف مرة.. فإذا أرادت أن تستغل عضلاتها بمثل كفاية النسخة المصغرة منها.. فإنها سوف تحتاج يوميا إلى طعام وأوكسجين يقدر بألف ضعف مما كانت تحتاج إليه.. وتفرز من النواتج التالفة ألف مرة قدر ما كانت تفرزه!!.

□ ولكن إذا احتفظت بشكلها فان سطحها لا يزيد إلا مائة مرة.. ولا بد من دخول كمية من الأوكسجين تقدر بعشرة أضعاف كل دقيقة

خلال كل ملليمتر مربع من الجلد.. وكمية من الطعام تقدر بعشرة أضعاف خلال كل ملليمتر مربع من الأمعاء.. حتى إذا بلغت المدى في قواها الامتصاصية فلا بد من زيادة سطحها بانتهاج خطة خاصة.. فيأخذ مثلا جزء من الجلد في استطالة إلى خصلات لتكوين خياشيم.. أو يدفع إلى الداخل لتكوين رئات.. وبذلك يزداد السطح الماص للأوكسجين بالنسبة إلى حجم الحيوان.. وعلى سبيل المثال تبلغ رئة الإنسان مائة ياردة مربعة.. ولذلك فبدلا من أن تكون المعدة ملساء ومستقيمة.. تصبح ملتفة.. ولها سطح مخملي.. وتزداد الأعضاء الأخرى في التعقيد.. وليست الحيوانات الراقية من الأدنى.. لأنها أكثر تعقيدا.. ولكنها أكثر تعقيدا لأنها أكبر حجما.. وينطبق نفس الشيء بالنسبة للنباتات.. فأبسط النباتات لا تعدو أن تكون خلاياه مستديرة مثل الطحالب الخضر التي تنمو في المياه الراكدة.. أو على قلف الأشجار.. وتعمل النباتات الراقية على زيادة سطحها بانبثاق جذور وأوراق.. ويمثل التشريح المقارن إلى حد كبير قصة النضال لزيادة السطح بالنسبة إلى الحجم!!.

□ وتكون بعض طرق زيادة السطح مفيدة إلى مدى محدود.. ولكنها لا تستطيع التأقلم إلى درجة كبيرة.. وعلى سبيل المثال فبينما تنقل الفقاريات الأوكسجين من الخياشيم أو الرئات إلى جميع أجزاء الجسد في الدم.. فإن الحشرات تأخذ الهواء مباشرة إلى كل جزء في جسدها بواسطة أنابيب دقيقة مقفلة النهايات.. تعرف بالقصبات الهوائية.. تفتح عند السطح في عدة مواضع مختلفة.. وفي مثل هذه الحالة ورغم أنها تستطيع تجديد الهواء في الجزء الخارجي من الجهاز القصبي بواسطة حركاتها التنفسية.. فلا بد من اختراق الأوكسجين للفروع الأكثر دقة بواسطة الانتشار.. وتستطيع الغازات الانتشار بسهولة لمسافات قصيرة للغاية لا تزيد كثيرا عن متوسط المسافة التي يخترقها جزىء من الغاز مع

غيره من جزئيات.. إلا أنه عندما تتم هذه السفريات الضخمة من وجه نظر الجزىء.. وتبلغ حوالي ربع بوصة.. فإن العملية تصبح بطيئة وتفتقر إلى الأوكسجين باستمرار أجزاء جسد الحشرة التي تبعد أكثر من ربع بوصة من الهواء.. ولذلك فقلما يزيد سمك أية حشرة عن نصف بوصة!!.

□ وتبنى أصناف السرطان الأرضية على نفس النسق العام للحشرات ولكنها غير متقنة البناء كاتقانها.. ومع ذلك فهي تحمل الأوكسجين في دمها.. ومن ثم تستطيع النمو إلى حجم أكبر بكثير من أية من الحشرات.. فإذا وفقت الحشرات إلى ايجاد خطة لتستمد الهواء خلال أنسجتها بدلا من أن تتركه ينفذ إليها لأصبحت ضخمة جدا.. ولو أن هناك من الاعتبارات الأخرى ما يحول دون أن تصبح في ضخامة الإنسان!!.

□ وعلى نفس المنوال توجد بعض صعوبات مرتبطة بالطيران.. فمن القواعد الأولية الخاصة بالطيران.. أن أقل سرعة لازمة للاحتفاظ بطائرة من شكل ما في الهواء.. تختلف باختلاف الجذر التربيعي لطولها.. فإذا ازدادت أبعادها الطويلة أربع مرات.. فلا بد لها من مضاعفة سرعة طيرانها.. وبما أن القوة اللازمة لأقل سرعة تزداد بشدة أكثر عن وزن الآلة.. فإن الطائرة الأكبر حجما.. والتي تزن أربعة وستين ضعفا قدر الأصغر منها.. تحتاج إلى قوة بالحصان تقدر بمائة وثمانية وعشرين لتحافظ على اتزانها في الهواء.. وعند تطبيق نفس القواعد بالنسبة إلى الطيور نجد أن حجمها لا يلبث أن يبلغ مداه.. فطائر الملك الذي تبدي عضلاته ثقلا قويا بالنسبة للوزن.. أكثر مما يبديه نسر أو حمامة.. لا بد أن يكون له صدر يبرز حوالي أربع أقدام.. ليهيء مكانا للعضلات المرتبطة بعمل أجنحته.. وتكون بالتالي أرجله مختزلة إلى مجرد «طوالات» للحد من وزنه.. ولكن الواقع فإن طائرا ضخما مثل النسر.. أو الحدأة.. لا تستمر في الهواء بمجرد تحريك أجنحتها.. ولكن

غالبا ما تشاهد محلقة بواسطة توازنها على عامود صاعد من الهواء.. وحتى التحليق يزداد صعوبة بازدياد الحجم.. ولو لم يكن هذا هو الشأن.. لبلغت النسور ضخامة النمور.. ولأصبحت مفزعة للإنسان كالطائرات المعادية!!.

□ إلا أنه قد حان الوقت لننتقل إلى بعض مميزات الحجم.. ولعل من أبرزها أنها تمكن الإنسان من الاحتفاظ بالحرارة.. فجميع الحيوانات ذات الدم الحار تفقد عند الراحة نفس الكمية من الحرارة من وحدة مساحة الجلد.. ولهذا السبب فهي تحتاج إلى مدد غذائي يتناسب مع سطحها.. وليس مع وزنها.. فخمسة آلاف فأر لها نفس وزن الإنسان.. ويبلغ طولها مجتمعة.. وغذاؤها أو استهلاكها الأوكسجين حوالي سبع عشرة مرة قدر الإنسان.. ويأكل الفأر في الواقع حوالي ربع وزنه من الطعام كل يوم.. وليس هناك زواحف أو ثدييات في المناطق القطبية.. وأصغر الثدييات في سبيز برجن هو الثعلب.. وتهاجر الطيور الصغيرة في الشتاء.. وتموت الحشرات.. ولو أن بيضها يستطيع البقاء لمدة ستة شهور أو أكثر في الصقيع.. وأكثر الثدييات نجاحا هي الدببة.. وعجول البحر.. وأفيال البحر!!.

□ وكذلك فإن العين تعد عضوا غير كفء إلى حد ما حتى تصل إلى حجم كبير.. ويتكون ظهر عين الإنسان الذي يتلقى الصورة من العالم الخارجي.. والمماثل للشريط في آلة التصوير.. من شبكة العصى والمخروطات التي لا تزيد أقطارها كثيرا على طول معدل الموجة الخفيفة.. ولكل عين ما يكاد يبلغ نصف المليون.. ولا بد للتمييز بين جسمين أن تقع صورهما على عصى ومخروطات مختلفة.. ومن الجلي أن رؤيتنا تكون أقل وضوحا إذا قل عدد العصى والمخروطات.. وازداد حجمها.. فإذا زاد اتساعها ضعفين فلا بد من مضاعفة المسافة بين نقطتين قبل أن نستطيع التمييز بينهما من مسافة معينة.. ولكن تبلغ

الرؤية أقصى مداها إذا قلت أحجامها.. وازداد عددها.. ومن المستحيل تكون صورة معينة أصغر من طول موجة الضوء.. ولذلك فإن عين الفأر ليست نموذجا مصغرا من عين الإنسان.. ولا تكون عصيها ومخروطاتها أصغر كثيرا مما لدينا.. ولذلك فلا يوجد إلا قلة منها.. ولا يستطيع الفأر أن يميز بين وجه إنسان وآخر على بعد ستة أقدام.. ولا بد لإمكان استغلال عيون الحيوانات الصغيرة أن تكون أكبر حجما بالنسبة لأجسادها عما لدنيا.. أما الحيوانات الضخمة فلا تحتاج إلا إلى عيون صغيرة نسبيا.. وعيون الحوت والفيل أكبر بقليل من عيوننا!!.

□ وتنطبق لنفس الأسباب القاعدة العامة بالنسبة إلى المخ.. وإذا قارنا بين أوزان الأمخاخ في مجموعة من الحيوانات الوثيقة الشبه مثل القط أو الفهد الهندي والببر والنمر.. فإننا نجد أنه كلما ضاعفنا وزن الجسم أربع مرات تضاعف وزن المخ.. ويستطيع الحيوان الضخم ذو العظام نسبيا الاقتصار على حساب المخ والعيون وبعض أعضاء أخرى!!.

□ وهذه بعض اعتبارات تعد من الضآلة بمكان.. لتبين أن لكل حيوان حجما نموذجيا.. ولو أن جاليليو أوضح عكس ذلك منذ أكثر من ثلاثمائة عام.. بل وما زال الناس يعتقدون أنه لو قدر للبرغوث أن يكون في ضخامة الإنسان.. لاستطاع أن يقفز في الهواء لمسافة ألف قدم.. والواقع أن الارتفاع الذي يستطيع أن يثب إليه الحيوان هو أقرب إلى عدم الاعتماد على حجمه من التناسب معه.. فالبرغوث يستطيع القفز لحوالي قدمين.. والإنسان يستنفد طاقة مع وزن القافز.. ولكن إذا كونت عضلات القفز نسبة ثابتة من جسم الحيوان.. فإن الطاقة المولدة من أوقية من العضل لا تعتمد على الحجم.. بفرض أنها تتولد بسرعة كافية في الحيوان الصغير.. وفي الواقع يبدو أن عضلات الحشرة تكون أقل فاعلية.. ولو أنها تستطيع التقلص بسرعة أكثر من عضلات الإنسان.. وإلا لاستطاع البرغوث أو الجرادة أن يرتفع

لمسافة ستة أقدام في الهواء!!.

□ فسبحان الله في خلقه!!.

□ لقد أعطانا الله عز وجل هذه المعلومات.. التي يحاول الإنسان والعلماء الآن التوصل إليها.. وإلى نسبياتها!!.

□ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ.. وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ..﴾ (سورة فاطر الآيتان ٢٧ - ٢٨).

القرآن الكريم وأطوار الجنين

□ يتحدث القرآن الكريم عن أطوار النمو الإنساني في مواضع متعددة.. ويجعلها دليلا قاطعا على إعادة الله الخلق كما بدأكم تعودون!!.

□ ولقد تحدثت الكثير من الآيات الكريمة عن هذه الأطوار مجملة ومفصلة: ﴿مَالَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَاراً. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ (سورة نوح الآيتان ١٣ - ١٤).. قال ابن عباس وقتادة وعكرمة والسدي وابن زيد معناه من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة إلى آخر أطوار الإنسان.. ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ (سورة الحج الآية ٥).. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً

فَخلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا ٱلعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشأْنَاهُ خَلْقاً آخرَ فَتَبَارَكَ ٱللهُ أَحْسَنُ ٱلخَالقينَ﴾ (سورة المؤمنون الآيه من ١٢ - ١٤).. ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدأ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِن طِينٍ● ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِن مَآءٍ مَهِينٍ● ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخ فيه من رُوحِهِ﴾ (السجدة الآية من ٧ - ٩).. ﴿يا أَيُّها ٱلإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ● ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعدَلَكَ● في أَيِّ صُورَةٍ ما شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (سورة الانفطار الآية من ٦ - ٨)!!.

□ من هذه الآيات الكريمة نستطيع أن نحدد معالم أطوار الجنين الإنساني وهي: ١ - نطفة ٢ - علقة ٣ - مضغة مخلقة وغير مخلقة ٤ - عظام ٥ - لحم يكسو العظام ٦ - التسوية والتصوير «خلق آخر» والتعديل ٧ - نفخ الروح «وروي عن الإمام علي رضي الله عنه أنه رد على من قال إن العزل هو الموءوده الصغرى قائلا: لا تكون موءودة حتى تمر على الأطوار السبع: تكون سلالة من طين.. ثم تكون نطفة.. ثم تكون علقة.. ثم تكون مضغة.. ثم تكون عظاما.. ثم تكون لحما.. ثم تكون خلقا آخر.. فقال عمر رضي الله عنه: صدقت أطال الله بقاءك»!!.

□ وكما عرفنا فإن أول هذه الأطوار هو: طور النطفة.. والنطفة تطلق على ثلاثة أشياء هي:

١ - نطفة الذكر وهي الحيوانات المنوية.

٢ - نطفة الأنثى وهي البويضة.

٣ - النطفة الأمشاج وهي النطفة المختلطة من ماء الرجل وماء المرأة.. أي البويضة الملقحة.. والنطفة الامشاج هي بداية مرحلة خلق الإنسان.. حيث يلقح الحيوان المنوي البويضة في الثلث الوحشي من قناة الرحم ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ

أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فجَعَلْنَاهُ سميعاً بصيراً﴾ (سورة الإنسان الآية ٢).

□ فإذا ما لقحت البويضة وصارت بويضة ملقحة ابتدأت انقسامات متعددة.. وتعرف هذه المرحلة بمرحلة الانقسام والانشقاق.. وتتحول البويضة الملقحة «النطفة الأمشاج» إلى ما يشبه التوتة.. فتسمى عندئذ التوتة.. ثم تنتقل بعد ذلك فتصير مثل الكرة المجوفة.. وتدعى عندئذ الكرة الجرثومية.. ويبقى قطر النطفة الأمشاج حتى بعد أن تصبح كرة جرثومية لا يزيد عن ١/٤ ملليمتر!!.

□ وتستغرق هذه المرحلة أسبوعا كاملا حتى تعلق هذه النطفة الأمشاج التي تحولت إلى كرة جرثومية لها خلايا آكلة وقاضمة تعلق بواسطتها وبواسطة حملات دقيقة بجدار الرحم.. وتتحول عندئذ إلى المرحلة التي تليها وهي العلقة!!.

□ وفي اليوم الرابع عشر والجنين في مرحلة العلقة لا يزيد حجمه عن نقطة.. وفي اليوم الثامن عشر لا يزيد حجمه عن حرف كتابي.. وفي اليوم الرابع والعشرين وقد بدأ مرحلة المضغة يكون حجمه أقل من حبة القمح أو الأرز.. وفي الأسبوع الرابع وهو في قمة مرحلة المضغة لا يزيد حجمه عن حبة القمح.. وفي الأسبوع السادس والنصف في أوج تكوين الأعضاء لا يزيد حجمه عن حبة فاصوليا بل أقل من ذلك.. وفي الأسبوع السابع والنصف وقد تكاملت الأعضاء تقريبا لا يزيد حجمه عن حبة الفاصوليا أو الفول.. وفي الأسبوع التاسع بعد انتهاء فترة الحميل ودخوله إلى مرحلة الجنين لا يزيد حجم الجنين عن ثلاثة سنتيمترات.. أي ما يزيد قليلا عن البوصة.. وفي الأسبوع الحادي عشر يكون الشكل الإنساني مميزا لدرجة لا يمكن أن يخطئها أحد.. وتبدأ في هذه الفترة الأعضاء التناسلية الخارجية في التمايز.. وفي الأسبوع الخامس عشر تستطيع الأم أن تحس حركة وليدها بكل وضوح.. وتكون الأعضاء التناسلية الخارجية واضحة جدا!!.

العلقة:

□ هي الطور الثاني الذي تنتقل إليه النطفة.. ويبدأ العلوق منذ اليوم السابع «منذ التلقيح» عندما تلتصق الكرة الجرثومية بجدار الرحم.. وتمد الخلايا الخارجية الآكلة معاليق صغيرة متعددة لتلتقي بمثيلاتها الموجودة على الخلايا الطلائية في غشاء الرحم.. حتى تتمكن من الولوج إلى داخل الغشاء.. وتبدأ عندئذ تعلقها بواسطة الخلايا المخلاوية الآكلة التي تتحول الى الحملات المشيمية.. وهي تمثل تعلق الكرة الجرثومية بجدار الرحم!!.

□ ثم إن الكرة الجرثومية تنقسم إلى كتلة خلايا خارجية آكلة وظيفتها العلوق بجدار الرحم وامتصاص الغذاء منه..«وهي تشكل ٩٠ بالمائة من مجموع خلايا الكرة الجرثومية» وكتلة خلايا داخلية «تشكل ١٠ بالمائة من مجموع الكرة الجرثومية».. وهذه الكتلة الداخلية يخلق الله منها الجنين.. ويتعلق الجنين بواسطة معلاق يربطه بالغشاء المشيمي «الكوريون»!!.

□ فهناك إذن جملة تعلقات في هذه المرحلة.. تعلق أولي بواسطة الحملات الدقيقة.. ثم تعلق ثاني بواسطة الخلايا الآكلة.. ثم تعلق ثالث بواسطة الحملات المشيمية.. ثم تعلق رابع يربط بين الجنين الحقيقي وبين الغشاء المشيمي بواسطة المعلاق!!.

□ ولا شك أن أهم ما يميز هذه المرحلة هو هذا التعلق.. وأن وصف العلقة العالقة بجدار الرحم والمحاطة بالدم المتجمد «المتخثر» هو أدق وصف لهذه المرحلة!!.

□ وتستغرق هذه المرحلة أسبوعين تقريبا.. ينمو خلالها القرص الجنيني إلى لوح كمثري الشكل ذي ثلاث طبقات متمايزة:

أ - الطبقة الخارجية الأكتودرم.

ب - الطبقة المتوسطة الميزودرم.

جـ - الطبقة الداخلية الأنتودرم.

□ وفي نهاية هذه المرحلة تتكثف الطبقة المتوسطة القريبة من محور الجنين لتشكل الكتل البدنية.. ويبدأ ظهور أول كتلة بدنية في اليوم العشرين أو الواحد والعشرين منذ التلقيح.. وعندئذ تكون العلقة قد تحولت إلى مضغة!!.

□ وفي هذه المرحلة نجد أن الكرة الجرثومية التي كانت قبيل العلوق لا تزيد عن ١/٢ ملليمتر قد أصبحت بعد العلوق بأسبوع واحد فقط ملليمترا ونصفا.. وفي نهاية الأسبوع الثالث «منذ التلقيح» يصبح طول اللوح الجنيني «من الآن فصاعدا لا يحسب إلا طول الجنين الحقيقي فقط» ملليمترين ونصف!!.

□ والطور الثالث حسب التقسيم القرآني هو طور المضغة.

«الأسبوع الرابع»:

□ ويبدأ هذا الطور بظهور الكتل البدنية ويكون أول ظهورها في أعلى اللوح جهة الرأس.. ثم يتوالى ظهور هذه الكتل من الرأس إلى مؤخرة الجنين.... ويبدأ ظهورها في اليوم العشرين أو الواحد والعشرين منذ التلقيح.. ثم تستمر في الظهور واحدة على كل جانب من محور الجنين حتى تبلغ ٤٢ إلى ٤٥ زوجا من الكتل البدنية!!.

□ وهذه الكتل البدنية ليست إلا تكثفا لطبقة الميزودرم المتوسطة بجانب محور وميازيب في الطبقة الخارجية «الأكتودرم» وبروز ونتوء في الطبقة المتوسطة «الميزودرم» وتتكون بذلك خمسة أزواج من الأقواس البلعومية في المنطقة العليا من الجنين «تحت قمة الرأس مباشرة».. ويكون وصف المضغة أو القطعة من اللحم التي مضغتها الأسنان ولاكتها ثم قذفتها هو أصدق وصف وأدقه لهذه المرحلة.

□ مرحلة العظام واللحم:

□ وهي مرحلة تستغرق الأسبوع الخامس والسادس والسابع.. وتتحول الكتل البدنية إلى جزئين:

١ - جزء أمامي وأنسي ويسمى القطعة الهيكلية.. وهي تكون عظام الفقرات.. كما أن انسياب خلاياه في المنطقة العنقية «٤ - ٨» يشكل عظام الأطراف العليا.. وانسياب خلاياه في المنطقة القطنية «١ - ٥» والعجزية «١ - ٤» يشكل عظام الأطراف السفلى.. كما تشكل الأربع كتل البدنية الواقعة في منطقة الرأس «الجزء المؤخري القاعدي» من الجمجمة.. وتتكون الأضلاع من نتوءات من العمود الفقري في المنطقة الصدرية «١ - ١٢»!!.

□ وبذلك يتشكل معظم الجهاز الهيكلي من هذه الكتل البدنية.. أما عظام الوجه والفكين وعظام الأذن الوسطي «المطرقة والسندان والركاب» فإنها جميعا تشكل من القوس البلعومي الأول.. ويتكون العظم اللامي من القوس البلعومي الثاني!!.

□ ولا يبقى إلا قحفة الجمجمة التي تتكون من الخلايا الميزودرمية «المتوسطة» المتكثفة في قمة الرأس.. والتي تتحول مباشرة من غشاء إلى عظم دون أن تتحول إلى غضاريف.. كما هو معهود في أغلب عظام الجسم!!.

٢ - جزء خلفي وظهري ويسمى المقطع العضلي الآدمي الذي سرعان ما ينقسم بدوره إلى قسمين:

أ - آدمي وهو يشكل أدمة الجلد وما تحت الجلد من أنسجة.

ب - عضلي وهو يشكل معظم عضلات الجسم وخاصة تلك الموجودة في

الجذع.. كما ينساب هذا القطاع العضلي في المنطقة العنقية « ٤ - ٨ » لتكون عضلات الطرف العلوي وفي المنطقة القطنية والعجزية لتكون عضلات الأطراف السفلية.. ولا يزال هناك من علماء الأجنة من يقول: إن عضلات الأطراف تتكون في موضعها.. ويكون تكون العظام سابقا ولو ببضعة أيام لتكون العضلات.. وتأتي العضلات بعد ذلك لتكسو العظام!!.

□ ويقول الدكتور «لانجمان» في كتاب علم الأجنة الإنساني: وفي الأسبوع السادس تكون هذه الهياكل الغضروفية لعظام الأطراف العلوية والسفلية قد ظهرت بوضوح.. وإن كان الطرف العلوي يسبق الطرف السفلي ببضعة أيام.. وأول علامة على وجود عضلات الأطراف تظهر في الأسبوع السابع.. وعندما يتحدث «لانجمان» عن الفقرات والعمود الفقري يقول: وبعد أن تتحرك خلايا القطع الهيكلية إلى الجهة الأنسية مكونة العمود الفقري.. تعرف الخلايا المتبقية من الكتلة البديلة باسم المقطع الآدمي والمقطع العضلي.. ونتيجة لتكون جسم الفقرة من قطعتين هيكليتين متجاورتين فإن ذلك الالتحام يؤدي إلى تحرك القطع العضلية لتغطيتها!!.

□ ومعنى ذلك أن العظام تسبق العضلات.. ثم تكسو العضلات العظام.. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿فخلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً﴾!!.

□ ثم أنشأناه خلقا آخر:

□ وهو طور التصوير والتسوية والتعديل.. ثم النفخ في الروح.. والآيات الدالة على التصوير كثيرة منها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (سورة آل عمران الآية٦).. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ (سورة الأعراف الآية ١١).. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ

وإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (سورة التغابن الآية ٣) ﴿يَا أَيُّها الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ • ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ • فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (سورة الانفطار من الآية ٥ - ٧).. ومن أسماء الله الحسنى المصور ﴿هُوَ اللهُ الخَالِقُ ٱلْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (سورة الحشر الآية ٢٤)

□ وأما التسوية فهي تتم مع التصوير وقبله وبعده.. وهي تشمل جميع الأعضاء.. فالأطراف مثلا عند أول ظهورها تبدأ كبرعم صغير مكون من تكثف لخلايا الميزودرم « الطبقة المتوسطة » مغطى بغطاء من الطبقة الخارجية الأكتودرم.. ثم تتكون في الطبقة المكثفة من الميزودرم خلايا غضروفية.. وترسب النسيج الغضروفي في موضع النسيج الغشائي.. ثم ما تلبث الخلايا العظمية أن تظهر فتقوم بتفتيت النسيج الغضروفي كما تتكون خلايا آكلة فتأكل الغضاريف وخلاياها.. وتضع الغضاريف عظاما تكون مراكز للتمعظم وينتشر منها التمعظم في أجزاء الهيكل الغضروفي!!.

□ إن عملية الهدم والبناء والتسوية والتعديل مستمرة في الجنين بشكل مثير.. إذ كل يوم.. بل كل ساعة تشهد جديدا.. هذه أنبوبة القلب المستطيلة تتحول إلى شكل حرف كتابي S ثم تتكون الغرف المتتالية الأذين العام.. والبطين العام.. وبصلة القلب.. والجيب الوريدي.. ثم يعاد التركيب ليدخل الجيب الوريدي في الأذين الأيمن.. وتدخل بصلة القلب في البطين الأيمن والأيسر.. ومن بصلة القلب أيضا تنشأ جذور الشريان الأورطي والشريان الرئوي!!.

□ ومن له أدنى إلمام بعلم الأجنة.. وعلم التشريح.. وعلم وظائف الأعضاء.. يعرف كيف أن أجهزة الجسم المختلفة تهدم ويعاد بناؤها باستمرار.. وتتجلى هذه التسوية والتعديل في أجلى صورها في الجنين.. ثم تقل نسبيا بعد الولادة.. ثم تقل كذلك بعد البلوغ.. ولكنها لا

تتوقف حتى في الشيخوخة!!.

□ وهناك جهاز واحد فقط لا يشمله التغيير والتبديل المستمر.. ألا وهو الجهاز العصبي.. فالجهاز العصبي الدماغ والنخاع الشوكي والأعصاب لا تتغير بعد الولادة من حيث الهدم والبناء.. ولكنها تتغير من حيث اتصالات الخلايا العصبية ببعضها.. أما قبل الولادة في الجنين.. وخاصة في الشهر الثاني من الحمل فإن التغيير يكون فيها على أشده.. ففي كل لحظة هناك تغيير في الشكل أو في الوظيفة أو في إزالة مجموعة من الخلايا قد أدت وظيفتها.. أو في بناء مجموعة أخرى!!.

□ إن ما يحدث في الجنين شبيه إلى حد ما بما يحدث عند بناء عمارة.. فهناك السقالات والأعمدة التي تقام ثم تهدم وتزال بعد أداء وظيفتها.. وهناك بناء الأساس أولا.. ثم بناء الأعمدة والجدران.. ثم بعد ذلك تأتي مرحلة الأبواب والنوافذ.. ثم تأتي بعد ذلك مرحلة التبليط والتزيين والتحسين «الديكور».. ولا يمكن ان تقوم مرحلة التبليط قبل بناء الأعمدة والجدران.. ولا يمكن وضع الموزاييك والتحسينات قبل إقامة الأبواب والنوافذ.. وهكذا كل مرحلة تدلف إلى المرحلة التي بعدها!!.

□ وكذلك في بناء جسم الإنسان.. كل مرحلة تدلف إلى المرحلة التي بعدها.. وما استخدم من أدوات في المرحلة السابقة ولم يعد له حاجة فلا بد من ازالته حتى لا يعوق الطريق!!.

□ وهذه باختصار هي التسوية والتعديل.. وهي مرحلة مستمرة في بناء جسم الإنسان منذ أن كان جنينا.. إلى أن يصبح شيخا هرما.. ولكن هذه التسوية والتعديل أبرز ما تكون في الجنين!!.

□ ولا يمكن أن تتم التسوية والتعديل إلا بعد وضع الأسس.. والأسس لجميع الأعضاء توضع في الفترة ما بين الأسبوع الرابع والثامن.. ولهذا

تعتبر هذه الفترة هي الفترة الحرجة التي تكون فيها الجينات أشد ما تكون قابلية للتغيير.. ولذا فإن تأثير الأدوية والعقاقير أو الأشعة أو الحميات مثل الحصبة الألمانية تكون في أوج تأثيرها على الجنين في هذه الفترة!!.

□ ولذا ينبغي أن تجتنب الحامل التعرض لتأثيرات الأدوية والعقاقير والأشعة والأمراض المعدية مثل الحصبة الألمانية.. طوال فترة الحمل بصورة عامة.. وفي هذه الفترة الحرجة «الأسبوع الرابع حتى الأسبوع الثامن» على وجه الخصوص!!.

□ هذا هو ملخص للتقسيم القرآني لنمو الجنين الإنساني:

١ - نطفة «الأسبوع الأول منذ التلقيح».
٢ - علقة «الأسبوع الثاني والثالث».
٣ - مضغة «الأسبوع الرابع».
٤ - العظام والعضلات «الأسبوع الخامس والسادس والسابع».
٥ - التصوير «الأسبوع الخامس والسادس والسابع».
٦ - التسوية والتعديل.
٧ - نفخ الروح.

□ أما تقسيم جهابذة علم الأجنة فيتفق فيما يأتي:

مرحلة البويضة الملقحة «النطفة الأمشاج» ويختلفون بعد ذلك.. فمنهم من يجعل من الأسبوع الثاني حتى الأسبوع الثامن مرحلة واحدة.. هي مرحلة الحميل.. ويقسم بعد ذلك ما يحدث في مرحلة الحميل إلى:

أ - الانغراز «العلقة».
ب - الجنين ذو الطبقتين.
جـ - مرحلة الجنين ذي الثلاث طبقات.
د - الكتل البدنية.

هـ - تكون الأعضاء.

□ ومنهم من يقسم هذه المرحلة إلى ثلاثة أقسام فقط هي:

أ - مرحلة العلوق.. وتستمر حتى تظهر أغشية الجنين والدورة الدموية.. وتتمايز طبقات اللوح الجنيني إلى ثلاث طبقات.. وتدعى أحيانا هذه المرحلة ما قبل الكتل البدنية.. وهذا التقسيم ينطبق تماما على مرحلة العلقة.. لأنها تبدأ بعد العلوق مباشرة.. وتنتهي بظهور الكتل البدنية «أي المضغة».. ومدة هذه المرحلة أسبوعان فقط.. «أي منذ نهاية الأسبوع الأول للتلقيح وحتى نهاية الأسبوع الثالث للتلقيح».

ب - مرحلة الكتل البدنية.. ولا يختلف علماء علم الأجنة في هذه المرحلة.. وهي تبدأ من اليوم العشرين أو الواحد والعشرين.. وتنتهي باليوم الثلاثين.. وهذه المرحلة حسب التعريف القرآني هي مرحلة المضغة.

جـ - مرحلة تكون الأعضاء.. وتبدأ من الأسبوع الرابع.. وتنتهي في الأسبوع الثامن.. وهي الفترة الحرجة بالنسبة للجينات لقابليتها الشديدة للتأثر بعوامل البيئة في هذه الفترة!!.

□ وفي هذه المرحلة نرى التقسيم القرآني يربط بين المضغة التي تتحول إلى عظام فيكسوها اللحم.. ﴿فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما﴾.. كما يربط التقسيم القرآني التصوير والتسوية والتعديل بما يحدث بعد المضغة ﴿ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾!!.

□ وتشرحها الأحاديث النبوية الشريفة: «إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها.. وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها.. ثم قال يا رب ذكر أم أنثى فيقضي ربك ما يشاء ويكتبه الملك» أخرجه مسلم!!.

□ ففي نهاية الأسبوع السادس تكون النطفة قد بلغت أوج نشاطها في تكوين هذه الأعضاء.. وهي قمة المرحلة الحرجة الممتدة من الأسبوع الرابع وحتى الأسبوع الثامن.. فيوجهها التوجيه الذي أمر به.. ونحن نعلم أن المبيض والخصية لا يمكن التعرف عليها قبل دخول الملك.. فإذا دخل الملك أمكن في الأسبوع السابع والثامن التعرف على الغدة التناسلية أخصية هي أم مبيض؟ وفي حديث آخر رواه مسلم أيضا: «أن النطفة إذا استقرت في الرحم أربعين ليلة ثم يتسور عليها الملك فيقول يا رب ذكر أم أنثى؟» وفي رواية «لبضع وأربعين ليلة» وفي رواية أخرى «لخمس وأربعين ليلة».. وفي الصحيحين عن أنس رضي الله تعالى عنه: «وكل الله بالرحم ملكا يقول: أي رب نطفة.. أي رب علقة.. أي رب مضغة.. فإذا أراد الله أن يقضي خلقا قال: يا رب أذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه»!!.

□ وهكذا نرى من مجموع الآيات والأحاديث أن قمة تكوين الأعضاء.. وتحديد الذكورة والأنوثة أعلى مستوى الغدد التناسلية إنما يكون في الأربعين.. وهذه هي الفترة التي تسمى فترة تكوين الأعضاء.. وهي تبدأ من الأسبوع الرابع.. وتنتهي في الأسبوع الثامن.. وتكون في أوج نشاطها في الأسبوع السادس!!.

□ الأسبوع الخامس إلى الأسبوع الثامن:

□ وفي هذه الفترة يستطيل الحميل من ٥ ملليمترات إلى ٢٣ ملليمترا.. وتظهر عليه علامات خارجية كثيرة واضحة.. وإن كان بعضها لم يكتمل في هذه الفترة.. وأول مظاهر هذه الفترة:

١ - اعتدال ملحوظ في تقوس الجسم عامة.

٢ - بدء تكوين الوجه.

٣ - ظهور واضح لبدء العينين والأذنين والأنف.
٤ - بدء ظهور أزرار الطرفين العلويين فالطرفين السفليين وربما أول تقسيمها.
٥ - صغر نسبي في الذيل..
٦ - استطالة العنق البدني ليكون الحبل السري.
٧ - انبعاج واضح للكبد والقلب يرى على سطح الجسم.
٨ - تحديد منطقة العنق وظهور الأقواس البلعومية على جانبيها.
٩ - أعضاء التناسل الظاهرة «الغدد التناسلية» وإن كانت غير مميزة الجنس «يمكن تمييزها في نهاية هذه الفترة».

□ وفي نهاية الأسبوع الثامن تكاد تكون الأعضاء الداخلية كلها قد اتخذت موضعها.. وإن بدت بشكل أولي.. وتعتبر في نهاية الأسبوع الثامن اكتمال دورة الحميل.. وبدء دورة الجنين.. فإذا ما انتهت مرحلة تكوين الأعضاء فإن مرحلة الحميل تكون قد انتهت.. وبدأت مرحلة أخرى تعرف لدى علماء علم الأجنة بمرحلة الجنين.. وهي تبدأ من بداية الشهر الثالث وتنتهي بالولادة!!.

□ ولا يكون في هذه المرحلة إلا تخليق يسير.. وأبرز سمة في هذه المرحلة هي ظاهرة النمو المتصل السريع.. وتستمر هذه المرحلة حتى تنتهي بآلام الطلق والولادة!!.

□ ومما تقدم يبدو أن التقسيم القرآني لمراحل نمو الجنين الإنساني أدق من وصف علم الأجنة.. وإن كان التقسيم القرآني يتفق مع كثير من هذه التقسيمات كالنطفة.. المضغة.. العظام.. واللحم.. ولا يركز بعض علماء علم الأجنة على مرحلة العلقة كما يركز عليها التقسيم القرآني.. وكذلك مرحلة التصوير والتسوية والتعديل.. أما نفخ الروح فهو لا يزال في طي الغيب الذي لا يعلمه: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا

بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ (سورة آل عمران - آية ٧).

□ وسنعرض بإيجاز لما يحدث في فترة الجنين «أي منذ الشهر الثالث إلى الولادة».

□ الشهر الثالث: «الشهر القمري يحسب ٢٨ يوما».

- تبدو العنق ظاهرة.
- يلتصق الجفنان.
- تتخذ الأطراف شكلا قريبا من شكلها عند الولادة.
- بداية ظهور الأظافر في أطراف الأصابع.
- يتميز غشاء المذرق إلى جزئيه: البولي التناسلي والشرجي بوضوح.
- تبدو أجزاء القلب بوضوح ويكون له غشاء التكور.
- تتميز أجسام الفقرات وتظهر بعض مراكز التمعظم.
- ينمو الطحال والغدتان فوق الكليتين «الغدتان الكظريتان».
- يبلغ طول الجنين من الرأس إلى العقب ٩٠ ملليمترا.

□ الشهر الرابع:

- يظهر على الرأس ثم الجسم وبر «أي شعر خفيف».
- ويكتمل تكوين المشيمة.
- تتميز أعضاء التناسل الظاهرة فيبدو القضيب في الغلام والشفران والفرج في البنت.
- تتراجع الأمعاء التي كانت بمنطقة الحبل السري إلى تجويف البطن.

□ الشهر الخامس:

- يغطي الزغب الرأس والجسم بأكمله.. وتحس الأم أول حركات الجنين وذلك في بداية هذا الشهر.
- تدخل الأمعاء بأكملها من منطقة السرة إلى تجويف البطن.
- يبدأ ظهور الشعر لفروة الرأس والحاجبين.

- ينمو القلب والكبد.
- يبدأ الرحم والمهبل نموهما.

□ الشهر السادس:

- يزداد السائل الأمنيوس «الرهل» وهو كيس السلى زيادة كبيرة.
- تظهر طبقة دهنية تغطي بشرة الجنين.
- ينمو الجنين في هذا الشهر أكثر من أي فترة أخرى.. إذ يصل طول الرأس العقبي ٣٥٠ ملليمترا ووزنه كيلوجراما كاملا.

□ الشهر السابع:

- يصل السائل الأمنيوس إلى غايته ويبلغ لترا ونصف لتر ثم يقل في الأشهر التالية.
- يمتلىء الجسم بازدياد الطبقة الدهنية تحت الجلد.
- نمو كبير للجهاز العصبي والهضمي.. وتكتمل أجزاؤهما.

□ الشهر الثامن:

- تتخذ السرة موضعها المحدد في المولود.
- يظهر الجسم مليئا.. ويزول الوبر «الزغب».
- يغزر شعر فروة الرأس.
- يغطى جسم الجنين بطبقة دهنية متجبنة.
- تصل الأظافر إلى أطراف الأصابع.

□ الشهر التاسع:

- يزداد النمو واستدارة الجسم وامتلاؤه.. وينفتح الجفنان.. وتنزل الخصيتان إلى كيس الصفن خارج الجسم.

□ الشهر العاشر:

- يكتمل النمو.. وخاصة في الرئتين.. وتنمو الجيوب الهوائية..

وإذا ذكرنا عشرة أشهر للجنين.. فالمقصود عشرة أشهر قمرية بالحساب هو ٢٨ يوما فقط.. فتكون الجملة ٢٨٠ يوما ويبدأ حسابها منذ بداية آخر حيضة حاضتها المرأة الحامل.. وبذلك يكون العمر الحقيقي للجنين هو ٢٨٠-١٤ = ٢٦٦ يوما فقط.. وهذا هو العمر التقديري للجنين منذ لحظة التلقيح.. وبما أن الحساب منذ لحظة التلقيح.. أو حتى من الاتصال الجنسي الذي حصل بعده الحمل.. عسير جدا.. فإن الحساب في الغالب لا يكون منذ بداية آخر حيضة حاضتها الأم.

القرآن الكريم
وأمراض الوراثة

□ لعل القرآن الكريم كان أول من أشار إلى انتقال الأمراض الوراثية إلى الأبناء وإلى الجنين.. فكان أول دليل وأول برهان منذ أربعة عشر قرنا من الزمان.. في حين كان العلم ما يزال يحبو.. ولم يتم اكتشاف ذلك إلا حديثا.. وبعد تجارب طويلة.. قال الله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا، يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾!! (سورة مريم الآيتان ٢٧ - ٢٨).

□ هنا قد تعجب قوم مريم كيف تأتي أمرا فريّاً.. وأبوها لم يكن امرأ سوء.. وأمها لم تكن بغيا.. فبين الله تعالى في هذه الآية أنه حتى الأخلاق تنتقل بالوراثة.. وأن الأب إن كان غير حميد.. والأم إن كانت فاسدة.. نقلا إلى ذريتها سوء الأخلاق بالتوريث.. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى ٱلأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّاراً● إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُواْ إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ (سورة نوح الآيتان

٢٦ - ٢٧).. ومعنى ذلك أن الخلف يأخذ من السلف صفاتهم بالوراثة.. فهؤلاء الكفار الفجار لا يلدون إلا أمثالهم.. ولا جرم أن الولد سر أبيه.. ولا تلد الحية إلا حية.. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ (سورة يوسف آية ٧٧) أي إن سرق فذلك شيء وراثي فيه.. سبق أن سرق أخ له من قبل.. فالسرقة وراثة في هذا الفرع.. وهذا بطبيعة الحال على حسب اعتقادهم.. وإن كان لا يطابق الواقع فيما يتعلق بسيدنا يوسف عليه السلام!!.

□ هذا وفي أحاديث رسول الله ﷺ ما يؤيد تأثير المرأة في توريث أخلاقها لأنسالها.. فيقول ﷺ في الحديث الشريف: «تزوجوا من الحجر الصالح فإن العرق دساس».. ويقول في حديث آخر: «تخيروا لنطفكم ولا تضعوها في غير الأكفاء» فنرى في هذين الحديثين الشريفين أن رسول الله ﷺ قد وضع أسس علم الوراثة.. فحذر من زواج المرأة إن لم تكن من الحجر الصالح.. أو لم تكن من الأكفاء.. لأن العرق دساس ينقل إلى النسل ما فيها من خير وما فيها من شر!!.

□ وحقا إن تكن المرأة سيئة الخلق ورثت بويضتها نطفة الرجل.. فيخرج الجنين كأمه سيء الخلق.. وإن تكن غير كفء بأن تكون ضعيفة العقل.. أو ذات بله.. فتنقل بويضتها وراثة البله والجنون وغير ذلك من الأمراض إلى نسلها!!.

□ ولذلك أمر الرسول ﷺ باختيار المرأة ذات الدين والخلق.. فقال ﷺ في حديث آخر.. «تنكح المرأة لأربع: لمالها.. ولحسبها.. ولجمالها.. ولدينها.. فاظفر بذات الدين تربت يداك».. فإن النسل سيرث منها خلقها.. فيكون ملكا رحيما إن صلحت.. وشيطانا رجيما إن فسدت..

وهي مرآة أبنائها.. وهم صورة مصغرة منها.. وفضل الرسول ﷺ دينها وخلقها.. وهذه وجهة نظر الدين في الوراثة من الأبوين.. وسنرى بعد ذلك رأى الطب في ذلك!!.

□ الطب والوراثة:

□ يقول الطب: إن الجنين يعتمد في خلقته وتكوينه على نوع الحيوان المنوي في الرجل.. ونوع البويضة في المرأة.. فيخرج الولد يشبه الأبوين جسما وعقلا.. فإن اختلف عنهما كان موضع غرابة وشذوذ.. وهذه قاعدة!!.

□ وقانون «ماندل» يقول: بأن هناك وحدات تمثل صفات خاصة موجودة في الحيوان المنوي وفي البويضة.. وهذه الوحدات تنتقل بعضها أو كلها إلى النسل.. وعندما تتحد وحدات الأبوين المختلفة مع بعضها باتحاد الحيوان المنوي والبويضة تتغلب وحدة على الأخرى.. أو بمعنى آخر قد تطغى إحدى خواص الوحدات من إحداهما على الأخرى في الذرية.. ولنضرب لذلك مثلا يسهل علينا فهم هذه النظرية:

□ إذا توالد خنزيران بريان.. وقد اختير الخنزيران لسهولة عمل التجارب عليهما في المعامل.. أحدهما «الذكر أو الأنثى» أبيض اللون.. والثاني أسود.. كان أول نسل منهما أسود اللون كأحد الأبوين.. وذلك لأن اللون الأسود يطغى ويمسح اللون الأبيض.. وليس معنى ذلك أن يذهب اللون الأبيض إلى غير رجعة.. فإن هذا النسل سوف ينتج إذا تناسل نسلا بعضه أسود.. وبعضه أبيض.. وقد وجد أن ثلاثة أرباع النسل في هذه الحالة أسود.. كأحد الأجداد السود.. والربع أبيض كالجد الأبيض!!..

□ ومن هذا المثال السابق ندرك كيف يطغى اللون الأسود في الإرث التناسلي.. فكذلك الخلق الفاسد.. يطغى على الخلق الحسن.. كما طغى

اللون القاتم الأسود على الأبيض.. فإن كان أحد الأبوين شرير الخلق.. نشأ النسل أكثر ميلا إلى الفساد.. وجرى ذلك في أنسال متعاقبة.. ينشأ بعضهم إن لم يكن كلهم وقد التوت طرقهم.. وسقطت مروءاتهم.. وضلت عقولهم!!.

□ وهناك أمثلة من واقع الحياة.. وسجل الأطباء.. ولنبدأ بذكر إرث الجنين من الأب:

□ بدأت أسرة بأكملها.. وهي أسرة «جيوكسي» في نيويورك.. برجل كانت مهنته صيد السمك.. وكان شريرا فاسد الأخلاق.. نزاعا إلى الشر.. ميالا إلى الاستهتار.. كما كان كسولا في عمله.. خاملا في مهنته.. وقد ولد في سنة ١٧٢٠ م ورزق بخمس بنات فتزوجن فأتين في ستة أنسال متعاقبة بحوالي ١٢٠٠ شخص.. بما فيهم مائتان ضموا إلى هذه الأسرة برابطة الزواج.. وقد عرف تاريخ ٥٤٠ منهم تمام المعرفة.. وعرف عن ٥٠٠ آخرين جزء من تاريخهم.. فكانوا بين أشخاص التزموا مهنة التسول.. وعاشوا في ملاجىء الإحسان.. وبين رجال ونساء فاسدين.. وأكثر من نصف النساء عاهرات.. وبعضهم حذق أساليب الإجرام.. وتفنن في الاحتيال والنهب والسرقة والقتل!!.

□ ولم يعثر في سجل هذه الأسرة من بداية تاريخها على واحد قد تعلم في مدرسة.. أو تخرج في جامعة.. ولكن وجد فيها عشرون شخصا قد تعلموا صناعات مختلفة.. ولكن أين تعلموها؟ لقد تعلموها بين جدران السجون.. وسبب هذا النسل الفاسد كله ليس إلا رجلا واحدا فاسدا.. قد لقحت نطفته الفاسدة المرأة.. فنقلت إلى بويضتها الفساد.. فورث البنات والبنين الشر!!.

□ هذا مثل طبي أوردته كتب الطب.. وأثبتت كيف نشأ النسل فاسدا كأبيه.. وقد سبقه القرآن الكريم فقال: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُواْ

يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا ، يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ (سورة مريم الآيتان ٢٧ - ٢٨)!!.

□ إن إدمان الخمور هو مرض عائلات بأسرها.. وإن عدواه لتنتقل إلى الذرية بالتوريث ثم بالتقليد.. فإن مرض الخمور أسوأ مرض للذرية يقتدونه.. ثم إن المخ يتأثر بالخمور.. فيصبح مدمنها ضعيف العقل لا يبرم امراً.. ولا يعي شيئا.. فالخمور تسمم خلايا الجسم.. ولا سيما المجموعة العصبية منه.. وتؤثر في الحيوانات المنوية فتفسد « بروتوبلازمها » وتشوهه.. فينشأ النسل كذلك مريضا.. ضعيف المخ!!.

□ وليس فساد النطفة من الخمر مقصورا على أنسال نسل ضعيف المخ.. أو فاسد الأخلاق.. بل إنها تسبب أمراضا أخرى في ذريات مدمن الخمور.. وما أمراض الفساد الباهي.. والشهوة الضالة كمرض « الساديزم » و « الماسوشيزم » إلا نتيجة ذلك!!.

□ وهذه الأمراض الوراثية هي علامة نقص في المخ.. وضعف في الإرادة.. ونزوع إلى الجريمة.. وما هذا النزوع للجريمة إلا مرض عقلي.. فكما أنه لا يوجد فاصل حقيقي بين حدي العقل والجنون.. فكذلك لا يوجد فاصل حقيقي بين حدي الجريمة والجنون.. فإنه لتوجد أنواع من الجرائم غريزية في الإنسان لا يمكن أن تميز من السفه.. أو انحلال المخ.. أو الجنون.. حتى إنه من الصعب تقرير علاج أصحاب هذه الجرائم.. هل يكون بين جدران السجون؟ أو فوق أسرة المستشفيات؟!!.

□ إرث الجنين التناسلي من الأم:

□ ١ - أثبت الطب أن للبويضة تأثيرا كبيراً في تكوين الجنين.. فالبويضة تنتج طفلا مشوه الخلقة.. وقد ذكر الدكتور « هيجار » حالة سيدة استؤصل لها أحد المبيضين اللذين يفرزان البويضات.. وذلك

لوجود مرض خبيث فيه.. ثم بعد ذلك حملت.. ثم وضعت طفلا مشوه الخلقة.. فعجب لذلك حيث قد أزيل المبيض.. فأعاد الفحص.. ووجد أن المبيض الثاني مصاب بورم خبيث.. وقد نشأ الطفل مشوها لمرض هذا المبيض الثاني!!.

□ ويذكر الدكتور «مارشان» أن تأثير التركيب يتضح أثره.. ويبدو تأثيره في البويضة من المبيض.. لأنه ينقل كل خواص الأم إلى البويضة أثناء نموها في الرحم!!.

□ ٢ - وبويضة المرأة الفاسدة تنتج نسلا فاسدا.. فيصف «بويلمان» حالة أسرة بدأت بفتاتين أنسلتهما امرأة شريرة سكيرة.. وأعقبتا في خمسة أو ستة أنسال ٨٣٤ شخصا.. عرف تاريخ ٧٠٩ منهم.. وكانوا بين أولاد لقطاء.. وأطفال عاشوا في الملاجىء.. وأشخاص اتخذوا التسول مهنة لهم.. وبين نساء عاهرات.. ورجال أشرار ولصوص وقتلة!!.

□ ٣ - وهذا مثل آخر عن بويضة المرأة ضعيفة العقل ذكره الدكتور «هنري جودارد» عن أسرة بدأت برجل انجليزي طيب العنصر.. قد تزوج من فتاة ضعيفة العقل بلهاء.. فرزقهما الله ولدا أبله.. ثم تزوج هذا بامرأة سليمة.. فأنجبا خمسة أطفال ضعاف المخ.. واثنين سليمين!!.

□ ثم تتبع تاريخ هؤلاء.. فكانوا إما مرضى بأمراض عقلية نتيجة انحراف جهازهم التناسلي.. أو مدمني خمور.. أو مصابين بالصرع.. أو مجرمين.. أو ضعاف عقول.. ولم يوجد فيهم بحالة اعتيادية إلا عدد قليل جدا.. وهناك أمراض تنتقل في النطفة وفي البويضة للنسل كمرض الزهري.. فإن كان أحد الأبوين أو كلاهما مريضا بالزهري انتقل هذا المرض إلى نسلهما في أجيال متعاقبة!!.

□ وهكذا كان رسولنا الكريم ﷺ أول من أشار إلى انتقال الأمراض بالوراثة «تخيروا لنطفكم ولا تضعوها في غير الأكفاء»!!.

□ إن الطب الحديث قد أثبت بما لا يدع مجالا للشك أن هناك بعض الأمراض تنتقل إلى الطفل بالوراثة.. لأن الحالة الصحية للأبوين.. والسيرة الطيبة للعائلة لهما تأثير على الجنين.. وعلى صحته.. وعلى وضعه الصحي!!.

□ ولقد بدأ العالم الغربي يأخذ بمبدأ الفحص قبل الزواج.. لضمان أن يولد الأطفال وهم سالمون على قدر الإمكان من الأمراض الوراثية!!.

□ أما عن الأمراض الوراثية فلا يمكن حصرها وتعدادها.. ولكننا نؤكد ما أكده العلم الحديث من أن الجنين يحمل صفات الوالدين.. وصفات العائلة.. وأن وضعه الصحي يتأثر بهذه الصفات.. والأمراض الوراثية في معظمها هي الأمراض التي لا يمكن معالجتها بالوسائل الطبية المتعارف عليها مثل: الهيموفيليا «صعوبة تخثر الدم»!!.

□ وفي بعض الأحيان.. هناك من ينحدر مريضا من أب سليم.. والجواب على ذلك: أن السبب في مرض الأجداد السابقين.. كما رأينا فيما سبق الخنزير البري الأبيض.. قد ينشأ في ثالث دور من التناسل من أبوين أسودين.. راجعا إلى لون جده الأبيض الأول!!.

□ فالأب والأم والأجداد ينقشون صفاتهم في الأولاد.. ويورثونهم ما فيهم من صفات.. حتى ليرى المولود كأنه نسخة طبعت مرة أخرى.. من صحيفة لوح موجود.. وقد نرى عائلات قد انتشر في أفرادها جميعا شمم الأنوف.. وعائلات غيرها قد تفشى بينهم فطس الأنوف.. ونرى طول القامة وضخامتها في أفراد.. وقصرها وضآلتها في أفراد آخرين.. ونرى عائلات قد انتقل فيها.. نسلا بعد نسل.. مرض البول السكري.. وإلى عائلات غيرها قد انتقل فيها الميل إلى الانتحار.. حتى إن

أفرادها ليتشابهون في طريقة الانتحار!!.

□ وقد رأينا أن بني إسرائيل قد توارثوا حب جمع المال ينتقل فيهم جيلا بعد جيل.. وشاهدنا العرب الرحل وقد كرهوا سكنى المدن وعرفوا بحب الخيام.. يتوارث الأبناء منهم ذلك عن الآباء.. وهذه أدلة على أن الوراثة تنتقل من الآباء إلى الأبناء.. وأن هذه الوراثة جسمانية وعقلية ونفسية!!.

□ فكما تتجلى في الجسم في خلقته وقامته وصورته وحركاته.. تتجلى في العقل نموه أو ضعفه وصحته أو مرضه.. وذكائه أو بلاهته.. وتتجلى كذلك في النفس في صفاتها وسجاياها وغرائزها وطباعها!!.

□ هذا وقد رأينا أن النطفة هي العامل في ذلك.. والناقل لما في الأب إلى نسله.. وحيث أن الدين الإسلامي قد ألم من قبل بتأثير الوراثة.. فقد عبَّر القرآن الكريم عن النطفة بأنها أمشاج.. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (سورة الملك آية ١٤).. وكلما تعمقنا في الدراسة ظهرت لنا حقيقة قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (سورة الأنعام آية ٣٨).. و ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ (سورة المؤمنون آية ١٣).

□ والقرار المكين هو رحم المرأة.. وحقا إنه لقرار مكين.. إذ تربطه ألياف قوية في موضعه.. وتثبته أربطة متينة.. ويحمله حوض من عظام متينة.. ففوقه الحجبتان.. وعلى جانبيه الحرقفتان.. وعظام العجز والعصعص من خلف له ساندان.. ثم إنه ليغطى من أعلى بالمثانة.. ومن أسفل بالمستقيم!!.

□ ثم نتأمل كيف بني جداره.. وقوي إزاره.. وتتالت عضلاته.. وتكاثرت انحناءاته.. وتجوف داخله.. ثم كيف تقسم هيكله إلى جزء أقل حجما من الأول.. وهو عنق الرحم!!.

□ ثم نتأمل كيف تكوَّن وتركب من ثلاث طبقات.. طبقة بريتونية.. وطبقة أخرى عضلية.. وغشاء مخاطي.. ثم كيف تكونت الطبقة العضلية أيضا من ثلاث طبقات.. فالأولى سطحية ضفيرية الشكل.. والثانية غائرة سميكة مكونة من ألياف حلقية.. والثالثة موجودة بين هاتين الطبقتين.. وتتكون من ألياف طويلة!!.

□ هذا هو الرحم.. بيت الجنين ومعقله.. لم يغفل الخالق العظيم أن يحصن بابه.. كما حصن حيطانه.. حتى يكون قرارا مكينا.. وبيتا كاملا أمينا.. فكيف حصن بابه؟!!.

□ باب الرحم هو عنقه الذي يخرج منه دم الطمث في غير وقت.. فماذا يحدث لهذا العنق بعد أن يحدث الحمل؟ يسد تجويفه بكتلة مخاطية صلبة تصير للعنق بابا كما تغلق السدادة عنق الزجاجة.. وتنشأ هذه السدادة من ازدياد إفراز الغدد العنقية.. وليست هذه السدادة طبقة واحدة.. بل هي ثلاث طبقات بعضها فوق بعض.. أو بمعنى آخر هذا الباب يتكون من ثلاثة أسوار خلف سور وقاية من الجراثيم.. وضمانا من عدم تخطيها!!.

□ أما السور الأول فقد وجد بالفحص أنه يحوي جراثيم.. أما السور العنقي الأوسط فهو خط الدفاع الهام.. حيث يحتوي على كرات بيضاء تفتك بما يصل إليها من جراثيم.. أما السور الثالث وهو الأقرب إلى الجنين.. فهو لذلك خال من الجراثيم بعد خطوط الدفاع الأولى!!.

□ وقد ثبت طبيا أن جميع الجراثيم لا تستطيع اختراق خط الدفاع الأوسط.. ما عدا جرثومة السيلان.. والسيلان مرض معد ينتقل بالزنا.. وكأن الله تعالى لم يشأ بذلك أن يحمي نسل الزاني.. ويؤكد ذلك عدم استقرار الأجنة في أرحام المصابات بمرض الزهري.. وهو أيضا من أمراض الزنا.. وإن كان ينتقل بالتوريث التناسلي إلى الأبرياء

والبريئات.. فكم من امرأة صارت بالزهري سقاطا!!.

□ هذا وإن الجنين نفسه وهو في الرحم قد لف في ثلاثة أكسية.. كساء من فوق كساء.. وبينه وبين الأكسية ماء وقاية للجنين يمنع عنه تأثير الصدمات.. ويحفظ فيه حرارة جسمه.. قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِن بَعدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ ذَلِكُم اللهُ ربُّكُم لَهُ المُلكُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصرَفُون﴾ (سورة الزمر آية ٦)!!.

□ هذا هو الرحم وقد تثبت بالأربطة القوية.. وتحصن بالعظام.. وتوثق منه بنيانه.. وتحصنت أبوابه وجدرانه.. سور خلف سور.. وسياج بعده سياج.. ليكون للجنين قرارا.. وفيه يتدرج أطوارا.. ويحميه تسعة أشهر طوالا!!.

□ ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ (سورة المؤمنون آية ١٤)!!.

□ ولكي نفهم كيف تصير النطفة علقة في هذه الآية الكريمة.. لا بد من أن نشرح بإيجاز شيئا من متعلقات الرحم.. وأنها البوقان والمبيضان وأربطتها!!.

□ البوق:

□ قناة تصل تجويف الرحم بتجويف البريتون.. وهو معد لنقل البويضة.. ولمرور الحيوانات المنوية!!

□ المبيض:

□ هو عضو بيضاوي الشكل.. موضوع على جانب الرحم.. وهو الذي ينتج البويضات للتناسل.. ويفرز إفرازات تؤثر على نظام النمو لسائر الجسم.. يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ (سورة المؤمنون آية ١٤).. وهنا فليتأمل الإنسان كلمة العطف «ثم».. فلم يقل سبحانه: ﴿خلقنا النطفة علقة﴾ لأن هنا دورا يحدث.. وفترة تمضي قبل أن

تتحول النطفة إلى علقة!!.

□ فإن النطفة لتصير علقة.. يجب أن يعيش منها حيوان واحد.. يمكنه أن يصل إلى بويضة المرأة في البوق.. فإن لم يلتق بها حتى الطرف الوحشي للبوق فلا يحصل حمل.. فإن البويضة إذا تجاوزت هذا الطرف أحيطت بمادة زلالية تعوق بل تمنع دخول الحيوان المنوي فيها.. ثم إن هذه النطفة كثيرا ما تموت في طريقها.. فإن وصل أحدها إلى البويضة حصل الحمل.. وإلا فالنطفة تمنى.. ثم تموت وتذوي فلا يحصل الحمل.. وهذا هو السبب في تأخر الحمل عند بعض السيدات.. فقد تكون النطفة ضعيفة.. فلا تستطيع الوصول إلى البويضة.. فتموت في طريقها ولا تبلغ هدفها.. أو قد تكون هذه الحيوانات المنوية غير تامة النمو.. وقد يكون خاليا منها المني.. كما هو الحال في مني بعض الناس.. حيث يكون ذلك خلقة فيهم.. أو يكون قد أصابهم مرض الخصيتين.. فيخرج المني خاليا من الحيوانات المنوية.. وفي حالة خلو المني من الحيوانات المنوية لا يحدث حمل أبدا.. وإذا التقى الحيوان المنوي بالبويضة في البوق.. فهناك طور يمر قبل حدوث الحمل.. أو قبل تحويل النطفة إلى علقة!!

□ كيف يحصل التلقيح؟:

□ إذا سرى الحيوان المنوي في داخل الرحم.. جذب بجاذبية خاصة إلى بويضة المرأة.. فيلتقيان في البوق.. ثم يخترق رأسه البويضة.. وينفصل ذيله خارجا ويختفي.. ثم تدخل البويضة الملقحة إلى الرحم مدفوعة بانقباض البوق.. ومساعدة أهداب البشرة المغطية للطبقة المخاطية.. وعند دخول البويضة الملقحة إلى الرحم تأخذ طريقها في الغشاء المخاطي.. ثم تعلق فيه وتنغرس في داخله.. ثم يسد مكان دخولها.. فإذا نظرنا إلى هذه البويضة الملقحة في مكانها.. رأينا جسما

متعلقا في داخل الغشاء المخاطي للرحم.. وهذا دور العلقة.. ففي اللغة أعلق ظفره بالشيء أنشبه.. فكذلك البويضة الملقحة قد تعلقت في داخل الغشاء المخاطي للرحم.. واستمسكت فيه!!.

□ تفسير آخر لدور العلقة:

□ قال الله تعالى: ﴿اقْرَأْ باسمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَق● خَلَقَ الإِنْسَانَ مِن عَلَق﴾ (سورة العلق الآيتين ١ - ٢).. إثباتا لوجود الحياة فيها.. ولاسيما أن الحيوان المنوي بعد أن يتحد بالبويضة.. يتطاول باستطالة.. حتى يصبح شكله كالعلقة تماما.. وهو في ذلك الوقت لا يمكن أن يرى بالعين المجردة.. ولا يميز إلا بالمجهر.. فمن يستطيع أن ينبىء عن ذلك إلا رب العالمين.. ومن يستطيع أن يصون هذه العلقة.. وهي لا ترى إلا بالمجهر حديثا.. غير الخلاق العظيم؟!!.

□ وهكذا يثبت المولى عز وجل كيف تنقل خواص الأب والأم إلى الجنين.. وكيف أن خواص الوراثة تنتقل عبر الحيوان المنوي للذكر.. وبويضة الأنثى.. ولماذا حرم الزنا في الإسلام حفاظا على النسل.. ومنعا من انتقال الأمراض!!.

□ والسائل المنوي للذكر عبارة عن سائل رخوي أصفر له رائحة خاصة تنشأ من اختلاطه بإفرازات تأتي من الحويصلات المنوية وغدد كوبر ومن غدة البروستاتا وغدد مجرى البول.. ولاسيما باختلاطه بإفراز غدة البروستاتا.. والكمية التي تخرج في الدفعة الواحدة تتراوح بين جرام وعشر جرامات.. وهذا السائل يحتوي على الحيوانات المنوية.. وبعض خلايا بشرية وكريات بيضاء.. وبه مواد زلالية ودهنية وبعض الأملاح.. ويخرج من الدفعة الواحدة من هذه الحيوانات المنوية أكثر من ٢٢٠ مليونا ويحتاج حدوث الحمل إلى حيوان منوي واحد لا أكثر!!.

□ والحيوان المنوي لا يرى بالعين المجردة.. إذ يبلغ طوله ٥٥ ميكرونا

والميكرون واحد من ألف من المليمتر.. ويتكون الحيوان المنوي من رأس وعنق وجسم وذيل!!.

□ يقول الله تعالى في سورة الإنسان: ﴿هَل أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لم يَكُنْ شَيئاً مَذْكُوراً• إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ (سورة الانسان الآيتان ١ - ٢).. ولقد فسر المعتدلون النطفة الأمشاج بأنها اختلاط من مني الرجل وماء المرأة الممتزجين المختلطين.. وفي اللغة العربية مشج الشيء أي خلطه!!.

□ والنطفة المقصود بها الحيوان المنوي.. أي أنها خاصة بالرجل.. ويقول عليه الصلاة والسلام: «تخيروا لنطفكم ولا تضعوها في غير الأكفاء»!!.

□ إن الحيوان المنوي يتحد بالبويضة.. وينقل إليها صفات الذكر.. فينشأ الجنين يشبه أباه.. ويرث منه أمراضه.. ولقد أثبت العلم الحديث بما لا يدع مجالا للشك أن نواة الحيوان المنوي.. ونواة البويضة هما الحاملان لخواص الوراثة.. وذلك بانقسامها إلى وحدات تسمى «كروموزومات».. وهي التي تنقل الإرث التناسلي!!.

□ فسبحان الله العظيم.. إن العلم كلما تقدم.. وظهرت لنا نظرياته الحديثة.. ازداد إيماننا بالله عز وجل.. وازداد إيماننا بالدين الإسلامي الحنيف.. والقرآن الكريم.. وسبحان الله القائل: ﴿مَا فَرَّطْنَا في الكِتَابِ مِن شَيءٍ﴾ (سورة الانعام آية ٣٨)!!.

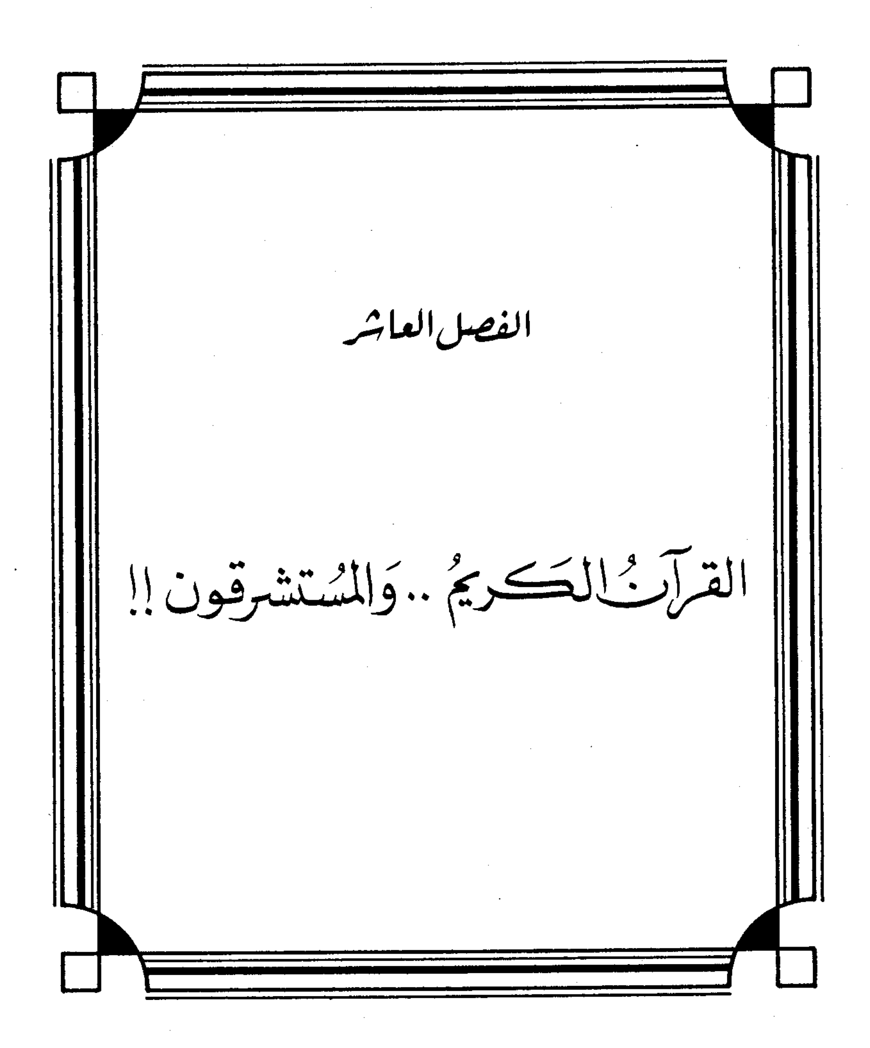
□ إن جوانب عطاء القرآن الكريم.. كتاب الله الخالد.. للناس كثيرة ومتعددة.. لا يحيط بها إنسان مهما استبحر في العلم.. وظن أنه بلغ من المعرفة ذروتها.. فكلما بلغ الإنسان شأوا من المعرفة.. وجد القرآن الكريم أبعد مدى.. لأنه كلام الله الذي أحاط بكل شيء علما.. يقول تعالى: ﴿وَلَو أَنَّ مَا في الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ والبَحْرُ يَمدُّهُ مِن بَعْدِهِ

سَبْعَةُ أَبْحُر مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾ (سورة لقمان آية ٢٨).. ويقول تعالى: ﴿وَمَا أُوْتِيتُم مِنَ العِلْمِ إِلاَّ قليلاً﴾ (سورة الاسراء آية ٨٥)!!.

□ وكلما تقدم العلم.. وأعطت الأفكار أحسن ما وصلت اليه بحوثها للحياة والأحياء.. وجد الباحثون ما يحثهم على الجد والتشمير إلى المزيد من هدو إليه.. وحصلوا عليه من مثل قوله تعالى: ﴿وَقُل الحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُم آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ (سورة النمل آية ٩٣).. ويقول تعالى: ﴿سَنُرِيهم آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّه الحَقُّ أولَم يَكفِ بِربِّكَ أَنَّه عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيد »!! (سورة فصلت آية ٥٣).!!.

□ والقرآن الكريم يحدو قافلة الذين يسبرون أغوار الكائنات.. ويحاولون الإفادة من كل ما خلق الله في أرضه وسمائه.. من حيوان ونبات.. وجماد وأفلاك.. وظواهر كونية.. وفي بحار ومحيطات.. وأجواز فضاء.. تميط الأيام عنها لثاما وراء لثام.. فيبدو العجب العجاب الذي نقول ويقول غيرنا أمامه: «هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه».. أجل ماذا خلق الذين من دونه؟ وآيات الله وكلماته ما تزال تتحدى العتاة.. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللهِ لَنْ يَخلقُواْ ذُبَاباً وَلَو ٱجْتَمَعُواْ لَهُ، وإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْئاً لاَ يَسْتنقذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَٱلمَطْلُوبُ﴾ (سورة الحج آية ٧٣).. وماذا علم هؤلاء وهؤلاء؟ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء!!.





الفصل العاشر

القرآن الكريم .. والمستشرقون !!



□ إن القرآن الكريم لم تمسه يد التحريف أو التغيير والتبديل والتشويه.. بل توجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون من تأليف بشر.. لأن محتوياتها تعبر عن معان مختلفة متعددة.. من حيث مدلولاتها إلى تلك الحقيقة الناصعة.. يقول الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه «النبأ العظيم»: كان القرآن الكريم ينزل حسب مشيئة الله تبارك وتعالى.. لقد كانت تنزل بالرسول ﷺ نوازل من شأنها أن تحفزه إلى القول.. وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالا ومجالا.. ولكنه كانت تمضي الأيام والليالي ولا يجد في شأنها قرآنا يقرؤه على الناس!!.

□ ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجته عائشة رضي الله عنها.. وأبطأ الوحي.. وطال الأمر.. والناس يخوضون.. حتى بلغت القلوب الحناجر.. وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس: إني لا أعلم عنها إلا خيرا.. ثم إنه بعد أن بذل جهده في التحري والسؤال.. واستشارة الأصحاب.. ومضى شهر بأكمله والكل يقولون ما علمنا عليها من سوء.. ولم يزد على أن قال لها آخر الأمر: «يا عائشة أما أنه بلغني كذا وكذا.. فإن كنت بريئة فسيبرئك الله.. وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله».

□ هذا كلامه بوحي ضميره.. وهو كما نرى كلام البشر لا يعلم الغيب.. وكلام الصديق المتثبت الذي لا يتبع الظن.. ولا يقول ما ليس له به علم.. على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات.. حتى نزل صدر سورة النور معلنا براءتها.. ومصدرا الحكم المبرم بشرفها وطهارتها!!.

□ ولا يمكن للرسول أن يتقول على الله سبحانه وتعالى.. فماذا كان يمنعه لو أن أمر القرآن الكريم إليه أن يتقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحمي بها عرضه.. ويذب بها عن عرينه.. وينسبها إلى الوحي السماوي لتنقطع ألسنة المتخرصين؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس.. ويكذب على الله ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ• لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ• ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ• فَمَا مِنكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (سورة الحاقة - الآية من ٤٤ - ٤٧).

□ وأخرى كان يجيئه القول فيها على غير ما يحبه ويهواه.. فيخطئه في الرأي يراه.. ويأذن له في الشيء لا يميل إليه.. فإذا تلبث فيه يسيرا تلقاه القرآن بالتعنيف الشديد.. والعقاب القاسي.. والنقد المر.. حتى في أقل الأشياء خطرا.. ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ (سورة التحريم - الآية ١) ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أن تَخْشَاهُ﴾ (سورة الأحزاب الآية ٣٧).. ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الكاذِبينَ﴾ (سورة التوبة - الآية ٤٣).

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ﴾ (سورة التوبة الآية ١٣).. ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ• لَوْلاَ كِتَابٌ من ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة الأنفال الآيات من ٦٧ - ٦٨).. ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَى• فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى• وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى• وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى• وَهُوَ يَخْشَى• فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ (سورة عبس الآيات من ٥ - ١٠)!!

□ أرأيت لو كانت هذه التقريعات المؤلمة صادرة عن وجدانه.. معبرة عن ندمه.. ووخز ضميره.. حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه..

أكان يعلنها عن نفسه بهذا التحويل والتشنيع؟ ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه.. واستبقاء على آرائه؟ بلى إن هذا القرآن لو كان يفيض عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئا من ذلك الوجدان.. ولو كان كاتما شيئا لكتم أمثال هذه الآيات.. ولكنه الوحي لا يستطيع كتمانه.. «وما هو على الغيب بضنين»!!.

□ وفي كتاب الله تعالى حقائق لا يمكن لإنسان بعث قبل أربعة عشر قرنا أن يأتي بمثله من تلقاء نفسه.. وقد صدقتها التجارب الحديثة في عصر العلوم والاكتشافات.. ويحسن بنا أن نلفت الأنظار إلى حقائق ثابتة!!.

□ وقبل أن نلفت الأنظار إلى الحقائق العلمية الثابتة التي وردت في القرآن الكريم.. يجدر بنا أن ننبه إلى أن مبدأ التفسير العلمي للقرآن الكريم في حد ذاته سليم.. وواجب علمي وديني في نفس الوقت.. ولكن علينا أن نتوخى الدقة والسلامة فيما نسوق من حقائق العلم التي لا تتغير.. وأن لا نحمل الآيات ما لا طاقة لها به.. العلم هو الذي يبصرنا بآيات الخالق في هذا الكون.. وأقصد بها الحقائق الثابتة التي لا تتبدل.. ومن هنا كان التقاء العلم بالدين.. ومن هنا جاءت تلك القضايا العلمية التي أثارها القرآن الكريم معجزة في عصر العلم.. نحن نستمد من القرآن الكريم الحقائق التي نردها إليه.. لنتبين مدى صحتها.. فإن خالفت ما في الكون اعتبرت وهما وخيالا!!.

□ والآن نريد أن نشير إلى الحقائق الكونية.. التي وردت في القرآن الكريم.. وصدقتها الاكتشافات الحديثة.. بغاية من الحيطة والدقة.. يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ● ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي

ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة النحل - الآيات من ٦٨ - ٦٩)!!.

□ ما أصدق الآية الكريمة ﴿فيه شفاء للناس﴾ عند ذكر النحل.. وتركيبه الكيماوي هو:

٢٥ - ٤٠ جلوكوز

٣٠ - ٤٥ فروكتوز

١٥ - ٢٥ ماء.

□ والجولكوز الموجود فيه بنسبة أكثر من أي غذاء حر هو سلاح الطبيب في أغلب الأمراض.. واستعماله في ازدياد مستمر بتقدم الطب.. فيعطى بالفم.. وبالحقن الشرجية.. وتحت الجلد.. وفي الوريد.. ويعطى بصفته مقويا ومغذيا.. وضد التسمم الناشيء من مواد خارجية مثل الزرنيخ والزئبق والذهب والكلوفورم والمورفين.. وضد التسمم الناشيء من أمراض أعضاء في الجسم مثل التسمم البولي.. والناشيء من أمراض الكبد.. والاضطرابات المعدية المعوية.. وضد التسمم في الحميات مثل التيفوئيد والالتهاب الرئوي والسحائي المخي والحصبة.. وفي حالات ضعف القلب.. وحالات الذبحة.. وبطريقة خاصة في الارتشاحات العمومية الناشئة من التهابات الكلى الحادة.. وفي احتقان المخ.. وفي الأورام المخية!!.

□ وإذا علمنا أن الجلوكوز يستعمل مع «الأنسيولين» حتى في حالة التسمم الناشيء عن مرض البول السكري.. علمنا مقدار فوائده.. وإن القرآن الكريم لم يذكره بطريق المصادفة.. ولكنه تنزيل ممن خلق الإنسان والنحل.. وعلم علاقة كل منهما بالآخر!!.

□ وقد توصلت الباحثة الأمريكية «جوليا تشرسن» بعد تجارب متعددة على الخنازير الغينية إلى إثبات وجود مادة مجهولة في عسل النحل وشمعه.. لها القدرة على شفاء تصلب المفاصل.. ووجد أن العسل

المستخرج من القرص مباشرة دون أن يسخن.. أو يتعرض لأي معاملة صناعية.. يقضي على تصلب الرسغين الذي يصاب به الإنسان.. وقد تبين أن الخنازير الغينية التي تنقصها هذه المادة المجهولة أو فيتامين «س» كما تسميه الباحثة.. تتأثر أشكال عظامها تماما كما يحدث للآدميين المصابين بالتهاب المفاصل.. كما أن بعض العظام المتحركة تصبح تدريجيا عديمة الحركة!!.

□ واستطاعت الباحثة أن تشفي الحالات المتوسطة من تصلب المفاصل خلال أسبوع بواسطة جرعات يومية لا تتجاوز نصف الجرام من العسل وشمعه.. وقد أثار هذا الاكتشاف اهتماما كبيرا بين هيئات البحوث العلمية الأمريكية.. فانهالت على الباحثة الهبات والجوائز والمكافآت!!.

□ ومن الأخبار العلمية التي نشرت في الصحف أن أحد كبار الجراحين في مستشفى «نورفلك» الإنجليزي.. استخدم عسل النحل لتغطية آثار الجروح الناتجة عن العمليات الجراحية التي يجريها.. بعد أن ثبت أنه يساعد على سرعة التئام هذه الجروح.. وإزالة آثارها.. فلا تترك ندوبا وتشويها بعد العملية.. كما تبين له من التجارب التي أجراها أن طبيعة العسل وما يحويه من مواد تساعد على نمو الأنسجة البشرية من جديد.. فتلتئم الجروح بطريقة مستوية!!.

□ وأذيع من «بادن بادن» في عام ١٩٥٦م ما يفيد أنه قد افتتح في هذا التاريخ المؤتمر الدولي الثاني بتحسين الأوضاع.. وأعلن فيه البروفيسور «كلود هيليو» من علماء فرنسا أن هناك نوعا من النحل يسمى النحل الملكي.. له قدرة على إفناء جميع أنواع الجراثيم!!.

□ قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَهُ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ (سورة الفرقان آية ٢).. يقول الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة.. إنه مالك كل شيء.. وخلق كل شيء وسواه في صورة

متناسبة.. لا يطغى بعضه على بعض.. وأوجد قوانين خاصة.. وليس محض مصادفة عماء.. وقد درس علماء الطبيعة أشياء.. وقاموا بدراسات جدية عميقة في الأشياء على اختلاف أنواعها وأجناسها.. واضطروا إلى إبداء تلك الحقيقة الكبرى الكونية التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله المعجز الموجز: ﴿خلق كُلَّ شيءٍ فَقَدَّرَهُ تقديراً﴾.. وأخيرا اعترفوا بأن هناك إلها واحدا يقوم بتدبير هذه الأمور كلها.. وسنحاول هنا أن ننقل بعض التجارب التي قاموا بها!!.

□ يقول الدكتور «جون كليفلاند كوثران» رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة «دولت» أخصائي في تحضير «النترازول» وفي تنقية «التنجستين»: نظر إلى العناصر الكيماوية المعروفة التي يبلغ عددها اثنين بعد المائة.. ولاحظ ما بينها من أوجه التشابه والاختلاف العجيبة.. فمنها الملون وغير الملون.. وبعضها غاز يصعب تحويله إلى سائل أو صلب.. وبعضها سائل والآخر صلب يصعب تحويله إلى سائل أو غاز.. وبعضها هش والآخر شديد الصلابة.. وبعضها خفيف والآخر ثقيل.. وبعضها موصل والآخر رديء التوصيل.. وبعضها مغناطيسي والآخر غير مغناطيسي.. وبعضها نشيط والآخر خامل.. وبعضها يكون أحماضا والآخر يكون قواعد.. وبعضها معمر والآخر لا يبقى إلا لفترة محدودة من الزمان.. ومع ذلك فإنها جميعا تخضع لقانون واحد!!.

□ وقد أثبت الاكتشاف تركيب الذرة أو التفاعلات الكيماوية التي نشاهدها.. والخواص التي نلاحظها.. ترجع إلى وجود قوانين خاصة.. وليست محض مصادفة عماء!!.

□ إن التقدم الذي أحرزته العلوم منذ أيام لورد «كيلفن» يجعلنا نؤكد بصورة لم يسبق لها مثيل ما قاله من قبل.. من أننا إذا فكرنا تفكيرا عميقا فإن العلوم سوف تضطرنا إلى الإيمان بالله.

□ ويقول الدكتور «كليس مورشن» وهو يشير إلى نفس تلك الحقيقة.. ويتعجب من هذا التوافق التام.. والتنظيم المحكم: لنتخذ مثلا من الأوكسجين علم التنظيم المحكم إلى غير حدة: إن الهواء الذي فوق الأرض مكون من الأوكسجين والنتروجين والأرجون والنيون والكنسيون والكريبتون وهو يحتوي بخارا وكذا ثاني أوكسيد الكربون بنسبة $\frac{٣}{١٠٠}$ من ١٪ أو نحو ثلاثة أجزاء من ١٠,٠٠ والغازات النادرة تظهر نفسها في شكل الألوان الحمراء والزرقاء والخضراء بلافتات الإعلان.. أما الأرجون الذي يوجد في الهواء بنسبة $\frac{٦}{١٠}$ في ١٪ فإنه يعطينا النور الساطع الباهر الذي تتقدم به المدنية حيث يستخدم.. ويوجد النتروجين بنسبة ٧٨٪ والهواء في حين تحدد نسبة الأوكسجين عادة بـ٢١٪ والهواء في جملته يضغط على الأرض بمعدل خمسة عشر رطلا تقريبا على البوصة المربعة من السطح بمستوى البحر.. والأوكسجين الذي يوجد في الهواء هو جزء من هذا الضغط.. وهو بمعدل نحو من ثلاثة أرطال على البوصة المربعة.. وكل الباقي من الأوكسجين محبوس في شكل مركبات في قشرة الأرض.. وهو يكون $\frac{٨}{١٠}$ من جميع المياه في العالم.. والأوكسجين هو نسبة الحياة لكل الحيوانات التي توجد فوق الأرض.. وهو لا يمكن الحصول عليه لهذا الغرض إلا من الهواء!!.

□ ولنا الآن أن نسأل: كيف هذا العنصر ذا النشاط البالغ من الوجهة الكيماوية قد أفلت من الاتحاد مع غيره.. وترك في الجو بنفس النسبة اللازمة تقريبا لجميع الكائنات الحية.. لو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠٪ مثلا أو أكثر من الهواء بدلا من ٢١٪ فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال.. لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة حتى لتكاد تنفجر.. ولو أن نسبة الأوكسجين في الهواء قد هبطت إلى ١٠٪ أو أقل.. فإن الحياة ربما

طابقت نفسها عليها في خلال الدهور!!.

□ ولكن في هذه الحالة كان القليل من عناصر المدنية التي ألفها الإنسان.. كالنار مثلا.. تتوافر له.. وإذا امتص الأوكسجين الطليق ذلك الجزء الواحد من عدة ملايين من مادة الأرض.. فإن كل حياة حيوانية تتوقف على الفور!!.

□ وبعد ذلك يقول: ليس لدى العلم إيضاح لهذه الحقائق.. أما القول بأن ذلك نتيجة المصادفة.. فهو قول يتحدى العلوم الرياضية!!.

□ وقال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ (سورة يس - الآية ٣٨).. المكان المحدد هو تفسير كلمة «مستقر» وليس هناك أدنى شك في أن فكرة المكان المحدد مرتبطة بهذه الكلمة!!.

□ إن القرآن الكريم يعطي حدا لتطور الشمس.. ومكانا لوصولها.. وهو يحدد أيضا نهاية شوط القمر.. ولكي نفهم المعنى الممكن لهذه المقولات.. يجب التذكير بالمعارف الحديثة عن تطور النجوم عامة والشمس خاصة.. وبالتالي عن التشكلات السماوية التي تتبع بالضرورة حركة الشمس في الفضاء.. والتي يعد القمر جزءا منها!!.

□ الشمس نجم يقدر علماء الفلك عمره بحوالي ٤,٥ مليارات سنة.. وكما هو الحال بالنسبة لكل النجوم.. فيمكن تحديد مرحلة تطوره.. والشمس حاليا في مرحلة أولى تتسم بتحول ذرات الهيدروجين إلى ذرات الهليوم.. نظريا يمكن أن تدوم هذه المرحلة ٥,٥ مليارات سنة على حسب الحسابات التي أنجزت.. والتي تقدر لهذه المرحلة الأولى لنجم من نمط الشمس ديمومة زمنية قدرها ١٠ مليارات سنة.. تلي هذه المرحلة كما لوحظ ذلك بالنسبة إلى نجوم أخرى.. من نفس النمط.. فترة ثانية تتميز بتمام تحول الهيدروجين إلى هليوم.. ويكون نتيجة هذا التحول

تمدد الطبقات الخارجية.. وبرود الشمس.. وفي المرحلة النهائية تتناقص ضوئية الشمس بشدة.. وترتفع كثافتها بشدة أيضا.. ذلك ما يلاحظ في أنماط النجوم المسماة بالأقزام البيضاء!!.

□ ويحدد علم الفلك الحديث بشكل كامل هذا المكان.. بل لقد أعطاه اسم «مستقر الشمس» والواقع أن النظام الشمسي يتحرك في الفضاء نحو نقطة في فلك هرقل.. مجاورة لنجمة فيجا التي تحددت تماما حركتها.. ولقد أمكن تحديد سرعة هذه الحركة وهي تقريبا ١٩ كم ثانية.. لقد كان من الواجب ذكر معطيات علم الفلك هذه.. بمناسبة تفسير آيتي القرآن الكريم اللتين نستطيع أن نقول إنهما تتطابقان تماما فيما يتضح مع المعطيات العلمية الحديثة!!.

□ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شيءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الأنبياء - آية ٣٠).

□ إذا كان صحيحا أن درجة حرارة الكرة الأرضية وقت انفصالها عن الشمس كانت حوالي ١٢٠٠٠ درجة.. أو كانت تلك درجة حرارة سطح الشمس.. فعندئذ كانت العناصر حرة.. ولذا لم يكن في الإمكان وجود أي تركيب كيماوي ذي شأن.. ولما أخذت الكرة الأرضية.. أو الأجزاء المكونة لها في أن تبرد تدريجيا.. حدثت تركيبات.. وتكونت خلية العالم كما نعرفه.. وما كان للأوكسجين والهيدروجين أن يتحدا إلا بعد أن هبطت درجة الحرارة إلى ٤٠٠٠ درجة فهرنهايت.. وعند هذه النقطة اندفعت معا تلك العناصر وكونت الماء الذي نعرفه الآن.. إنه هواء الكرة الأرضية.. ولا بد أنه كان هائلا في ذلك الحين.. وجميع المحيطات كانت في السماء.. وجميع تلك العناصر التي لم تكن قد اتحدت كانت غازات في الهواء.. وبعد أن تكون الماء في الجو الخارجي سقط

نحو الأرض.. ولكنه لم يستطع الوصول إليها.. إذ كانت درجة الحرارة على مقربة من الأرض أعلى مما كانت على مسافة آلاف الأميال في خارجها.. وبالطبع جاء الوقت الذي صار الطوفان يصل فيه إلى الأرض.. ليطير منها ثانيا في شكل بخار.. ولما كانت المحيطات في الهواء.. فإن الفياضانات التي كانت تحدث مع تقدم التبريد.. كانت فوق الحسبان.. وفي هذا الاضطراب الذي لا يمكن إدراكه.. كان الأوكسجين يتحد مع جميع مواد قشرة الأرض تقريبا.. وقد اتحد أيضا مع كل الهيدروجين الذي فر من جاذبية الأرض قبل أن تبرد.. ولولا ذلك لكانت كتلة الماء قد بلغت الآن من الضخامة بحيث كانت تغرق الأرض إلى عمق أميال.. وربما هدأت الأشياء واستقرت منذ بليون سنة.. وبذلك كونت الأرض الصلبة والمحيطات والجو.. أي ذلك الراسب الذي نسميه بالهواء.. وكان اتحاد العناصر كاملا لدرجة أن ما ترك.. وهو الهواء المكون من الأوكسجين والنتروجين على الأخص.. لا يزيد على جزء من مليون من كتلة الكرة الأرضية.. فلماذا لم يمتص كله؟ أو لماذا لم يكن بنسبة أكبر كثيرا من تلك النسبة؟ في كلتا الحالتين كان الإنسان لا يمكن أن يوجد على ظهر الأرض.. وإنما كان الوجود ممكنا تحت ضغط آلاف أرطال على البوصة المربعة الواحدة.. فقد كان من المحال أن يتطور الإنسان!!.

□ ومما يدعو إلى الدهشة أن يكون تنظيم الطبيعة على هذا الشكل.. بالغا هذه الدقة الفائقة.. لأنه لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضع أقدام.. لامتص ثاني أوكسيد الكربون والأوكسجين.. ولما أمكن وجود حياة النبات.. وهناك احتمال بأن قشرة الأرض والمحيطات السبعة قد امتصت كل الأوكسجين.. وأن ظهور جميع الحيوانات التي تستنشق الأوكسجين قد تأخر انتظارا لنمو النباتات التي تلفظ الأوكسجين.. وأن الحساب الدقيق قد يجعل هذا المصدر للأوكسجين في

حيز الإمكان.. ولكن مهما كان مصدره.. فإن كميته هي بالضبط مطابقة لاحتياجاتنا!!.

□ قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً﴾ (سورة الفرقان الآية ٥٢) وقال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ● بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ﴾ (سورة الرحمن الآية ١٩ - ٢٠).

□ إن الظاهرة الطبيعية التي يذكرها القرآن الكريم في هذه الآيات معروفة عند الإنسان منذ أقدم العصور.. وهي أنه إذا ما التقى نهران.. في ممر مائي واحد.. فماء أحدهما لا يدخل.. أي لا يذوب.. في الآخر.. وهناك على سبيل المثال نهران يسيران في بنجلاديش إلى مدينة أركان في بورما.. ويمكن مشاهدة النهرين مستقلا أحدهما عن الآخر.. ويبدو أن خيطا يمر بينهما حدا فاصلا.. والماء عذب في جانب.. وملح في جانب آخر.. وهذا هو شأن الأنهار القريبة من السواحل.. فماء البحر يدخل ماء النهر عند حدوث المد البحري.. ولكنهما لا يختلطان.. ويبقى الماء عذبا تحت الماء الأجاج.. وهكذا عند ملتقى نهري الكنج والجامونا في مدينة «إله أباد» في الهند.. فهما رغم التقائهما لم تختلط مياههما.. ويبدو أن خيطا فاصلا يميز أحدهما عن الآخر!!.

□ إن هذه الظاهرة كانت معروفة لدى الإنسان القديم.. ولكننا لم نكتشف قانونها إلا منذ بضع عشرات من السنين.. فقد أكدت المشاهدات والتجارب أن هناك قانونا ضابطا للأشياء السائلة يسمى: «قانون المط السطحي».. وهو يفصل بين السائلين.. لأن تجاذب الجزئيات يختلف من سائل لآخر.. ولذا يحتفظ كل سائل باستقلاله في مجاله.. وقد استفاد العلم الحديث كثيرا من هذا القانون.. الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿بينهما برزخ لا يبغيان﴾

وملاحظة هذا البرزخ لم تخف عن أعين القدماء.. كما لم تتعارض مع المشاهدة الحديثة.. والمراد من البرزخ إنما هو: «المط أو التمدد السطحي» الذي يوجد في المائين.. والذي يفصل أحدهما عن الآخر!!.

□ ويمكن فهم هذا المط السطحي بمثال بسيط.. وهو أنك لو ملأت كوبا بالماء.. فإنه لن يفيض إلا إذا ارتفع عن سطح الكوب قدرا معينا.. والسبب في ذلك أن جزئيات السوائل عندما لا تجد شيئا تتصل به فوق سطح الكوب.. تتحول إلى ما هو تحتها.. وعندئذ توجد «غشاوة مرنة» على سطح الماء.. وهذه الغشاوة هي التي تمنع الماء من الخروج عن الكوب لمسافة معينة.. وهي غشاوة قوية.. لدرجة أنك لو وضعت عليها إبرة من حديد فإنها لن تغوص.. وهذه الظاهرة هي ما يسمى بالمط السطحي.. الذي يحول دون اختلاط الماء والزيت.. والذي يفصل بين الماء العذب والملح!!.

□ وقال الله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فيها من كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ (سورة هود - الآية ٤٠).

□ يقول الدكتور «جون وليام كلوتس» أستاذ علم الأحياء والفسيولوجيا بكلية المعلمين بكونكورديا.. وعضو جمعية الدراسات الوراثية.. ومتخصص في الوراثة وعلم البيئة: من التعقيدات الطريفة في هذا الكون.. ما نشاهد من العلاقات التوافقية الاضطرارية بين الأشياء أحيانا.. ومن أمثلتها العلاقة الموجودة بين فراشة اليوكا ونبات اليوكا.. وهو أحد النباتات الزنبقية.. فزهرة اليوكا تتدلى إلى أسفل.. ويكون عضو التأنيث فيها أكثر انخفاضا عن عضو التذكير أو السداة.. أما الميسم وهو الجزء من الزهرة الذي يتلقى حبوب اللقاح.. فإنه يكون على شكل الكأس.. وهو موضوع بطريقة يستحيل معها أن تسقط فيه حبوب اللقاح.. ولا بد أن تنتقل هذه الحبوب بواسطة فراشة

اليوكا التي تبدأ عملها بعد مغيب الشمس بقليل.. فتجمع كمية من حبوب اللقاح من متك الأزهار التي تزورها.. وتحفظها في فمها الذي بني بطريقة خاصة لأداء هذا العمل.. ثم تطير الفراشة إلى نبات آخر من نفس النوع وتثقب مبيضها بجهاز خاص في مؤخر جسمها.. ينتهي بطرف مدبب يشبه الابرة.. وينزل منه البيض.. وتضع الفراشة بيضة أو أكثر.. ثم تزحف إلى أسفل الزهرة حتى تصل إلى القلم.. وهناك تترك ما جمعته من حبوب اللقاح على صورة كرة فوق ميسم الزهرة.. وينتج النبات عددا كبيرا من الحبوب يستخدم بعضها طعاما ليرقة الفراشة.. وينضج بعضها لكي يواصل دورة الحياة!!.

□ وهناك علاقة مشابهة بين نبات الطين ومجموعة من الزنابير الصغيرة.. وينتج هذا النبات نوعين من مجموعات الأزهار.. يحتوي أحدهما على الأزهار المذكرة والمؤنثة معا.. أما الآخر فجميع أزهاره مؤنثة.. ويقوم بتلقيح الأزهار المؤنثة في كلا النوعين السابقين إناث الزنابير.. وتكون فتحة التخت الذي يحمل مجموعات الأزهار في كلا النوعين ضيقة إلى حد كبير.. بسبب إحاطتها بكثير من الأوراق الحرشفية.. مما يجعل وصول الحشرة إلى الداخل يتم بصعوبة كبيرة ويؤدي إلى تمزق أجنحتها.. وعندما تدخل الحشرة إلى المجموعة التي تشتمل على الأزهار الذكرية والأنثوية تضع الحشرة الأنثى بيضها ثم تموت.. ثم ينقض البيض وتتزاوج الشفافير الصغيرة الناتجة.. ولا يستطيع أن يخرج منها سوى الأنثى.. أما الذكور فتموت.. وقبل أن تخرج الإناث تلتصق هبوات اللقح بأجسامها فتحملها إلى مجموعات جديدة من الأزهار.. فإذا كانت المجموعة الجديدة تشتمل على أزهار ذكور وأخرى إناث فإن العملية تتكرر بالصورة السابقة!!.

□ ومن الحوادث التي تنبأ وأخبر عنها القرآن الكريم.. وصدقتها الوقائع التي حدثت بعد.. يمكن أن نوردها في صدد إثبات أن القرآن

الكريم كتاب منزل من الله سبحانه وتعالى!!.

□ ومن هذه الأخبار والتنبؤات ما يتعلق بغلبة الروم.. قال الله تعالى: ﴿أَلَمٓ، غُلِبَتِ ٱلرُّومُ، فِي أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بِضْعِ سِنِينَ لله الأَمْرُ مِن قَبْلُ ومِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، وَعْدَ اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ، يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (سورة الروم - الآيات من ١ - ٧).

□ وهذه الآيات القرآنية تدل أن الروم ستغلب.. بعد أن غلبت في بضع سنين بالتحديد.. والملابسات والظروف التي كانت قد أحاطت بالمملكة الرومانية.. ما كان لأي قائد محنك.. وزعيم خبير.. وسياسي مضطلع.. أن يحكم بالظفر والنجاح والفوز.. فضلا عن أن يتكهن بشيء يتعلق بغلبة المملكة الرومية على المملكة الإيرانية.. وقد سبق أن التكهنات للقواد المحنكين والساسة الخبراء لم تتحقق في تلك الأيام التي تكهنوا بها.. ولا بعدها في مدة قليلة..

□ ولكن هذا التكهن كان من الله سبحانه وتعالى الذي يعلم ظاهر الأمور وباطنها.. فجاء هذا التكهن والتنبؤ كفلق الصبح في بضع سنوات.. وانتصرت الروم!!.

□ وهكذا يتضح من خلال عرض هذه الحقائق العلمية.. والمعطيات التي أقرها العلم الحديث.. أن القرآن الكريم كتاب منزل من الله سبحانه وتعالى.. وليس من اختراع الرسول ﷺ.. للتدليل على صدق رسالته.. وإخضاع الناس لدعوته.. ومن هنا تسقط كل دعاوى المستشرقين الباطلة الكاذبة التي ادعوا فيها أن القرآن الكريم من عند محمد ﷺ .. قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ الأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ

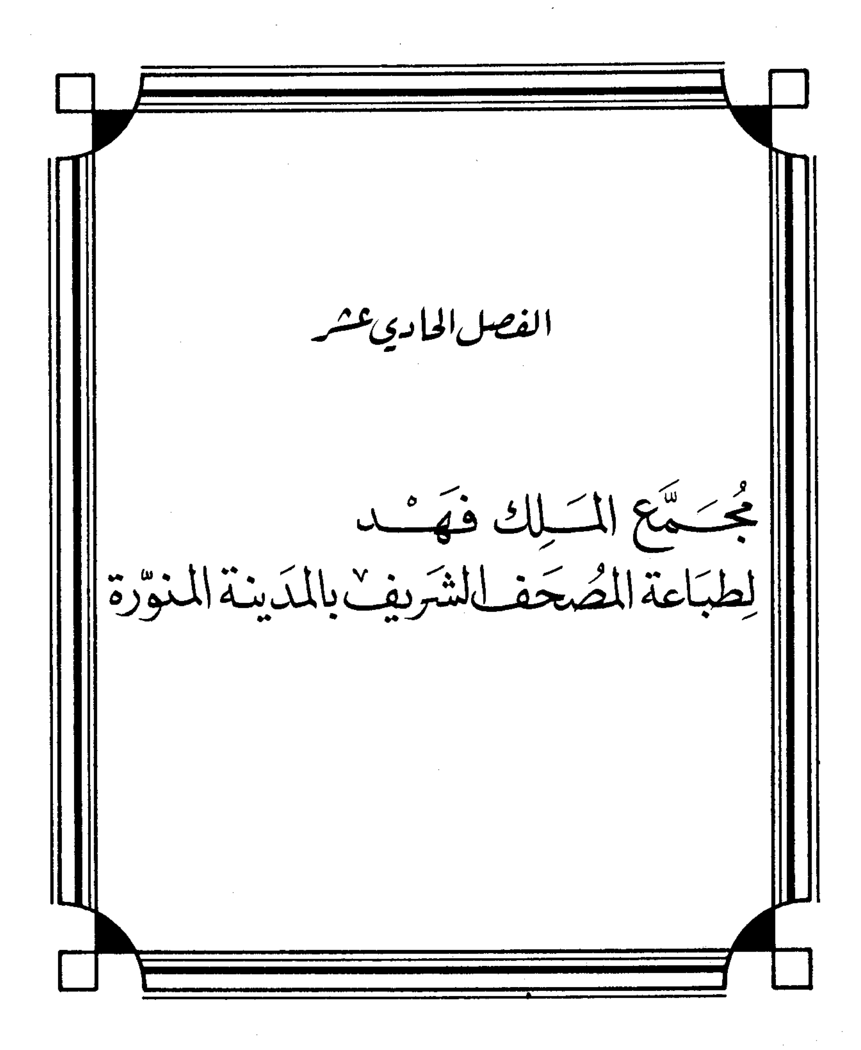
مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَ● بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (سورة الشعراء من الآية ١٩٣ - ١٩٥)!!.

□ إن خصوم الإسلام حاولوا النيل منه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.. ولذلك نجدهم يختلقون الأكاذيب والافتراءات على الإسلام.. ونبي الإسلام محمد ﷺ.. وعلى القرآن الكريم.. وهم مدفوعون إلى ذلك بحقد دفين.. يضمرونه للإسلام والمسلمين.. وإن غلفوا افتراءاتهم بدعاوى البحث العلمي المجرد.. وادعاءاتهم الباطلة الكاذبة ببشرية القرآن الكريم.. وأنه في زعمهم ليس كتابا سماويا نزل به الروح الأمين.. على قلب النبي العربي محمد ﷺ.. ليأخذ بيد الإنسانية الحائرة حتى يخرجها من ظلمات الشرك والوثنية.. إلى أنوار الهداية والتوحيد.. وإنما القرآن في زعمهم الباطل من تأليف محمد ﷺ.. ومن عمل فكره.. وقد تأثر فيه بالبيئة التي عاش فيها بمكة المكرمة أولا.. ثم ببيئة المدينة المنورة التي هاجر إليها بعد ذلك!!.

□ ومن خلال ما عرض من حقائق علمية.. ومعطيات أقرها العلم الحديث.. يظهر افتراء المستشرقين ومن سار في فلكهم.. على النبي ﷺ.. وعلى القرآن الكريم.. ويتضح زيف ما أثاروه من أن القرآن الكريم ليس كتابا سماويا نزل به الروح الأمين على محمد ﷺ.. وإنما هو من تأليف محمد ﷺ.. ومن إعمال فكره.!.

□ وسيظل القرآن الكريم كما أراد الله تعالى له أن يكون.. المعجزة الخالدة الكبرى لمحمد ﷺ.. وسوف يحفظه الله تعالى كما وعد.. حتى يرث الله الأرض وما عليها وصدق الله العظيم القائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر آية ٩)!!.





الفصل الحادي عشر

مُجَمَّع المَلِك فَهْد لِطباعة المُصحَف الشَريف[٧] بالمَدينة المنوّرة

□ قال تعالى في محكم كتابه: ﴿إِنَّا نَحنُ نزلنَا الذِّكر وإنَّا لَه لحَافِظُون﴾.

انها مشيئة القدرة الإلهية، وحكمتها الباهرة.. فحين جاء الإسلام.. جاء خاتما للرسالات السماوية كلها، حيث أخرج الناس من ظلمات الجهل إلى نور الحق، والقرآن هو وحي الله إلى رسوله، وهو كتابه الخالد على مدى الزمان.. وهو دستور المسلمين في عقيدتهم وشريعتهم ومعاملاتهم، بل وفي كل ما يمس حياتهم صغيراً كان أو كبيراً،.. وإن كانت الكتب السماوية السابقة قد اعتورها التشويه، وداخلها ما ليس فيها، وما ليس متلائما مع مضامينها وقواعدها التشريعية الكبرى، والتبس الصادق من الأمر بالمدخول عليه،.. وخالط الأمر كله تحريفات من صنع البشر، حتى توارى المضمون التشريعي السماوي خلف كل قوة التحريفات، مما جعلها - كشريعة - لا تصلح للخلق، ولا تتلاءم مع طبيعة الانسان.. التي جرفتها مادية الحياة، وتكالب البشر عليها كما نلمس في اليهودية، أو أغرقتها صبغة صوفية رومانية مستسلمة، كما نلمس ذلك في المسيحية.

ولم يكن الأمر في هذا اللبس غريبا، ولا السلوك الديني العقائدي في هذه الديانات محتاجاً الى تفسير وتعليل، فالعلة والداء المبين كان في رغبة الانسان في أن يشكل ما يقع تحت يده وفق هواه ومزاجه الخاص، ولما كانت الكتب السماوية القديمة غير مدونة حسب مراحل النزول ومقتضيات الحال - كما حدث في القرآن - أصبحت عرضة للتحريف والتأويل والأخذ والحذف، والتشويه.. مما طمس معالم الديانات، وألقى عليها ظلالاً معتمة تحجب النور الحقيقي الباهر، الذي هو نور الوحدانية الأساس في كل الديانات. ولم يعد غريبا، أن يرجع الباحثون الى القرآن الكريم ليستقرئوه فيما يخص حقيقة الديانة اليهودية والمسيحية على السواء.. ذلك ان فيه تكمن الحقيقة الدينية الثابتة، وهي الدعوة

إلى وحدانية الله وإخلاص العبادة له ونبذ مظاهر الشرك والضلال وأنواع الافك المختلفة. بل وجدناه يحاور ويجادل أصحاب العقائد اليهودية والمسيحية، ويبين لهم في مجال المجادلة حقيقة الدين، وما طرأ عليه من تشويش وتشويه معا.. وسور القرآن الكريم تمتلىء بالآيات الدالة على هذا المعنى.

ولا نستطيع في هذا المجال أن نتناسى، ذلك الثبات في العقيدة الاسلامية، وفي مضامينها العقائدية، بل وفي تفصيلات الحياة التي يعيشها المسلم سلوكاً وأخلاقاً وعبادات.. وأساس ذلك كله هو القرآن الكريم، دستور المسلمين إلى يوم القيامة، حيث نزل منجّما، حسب الحوادث والمناسبات اليومية والتشريعية..

واقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يوحي إلى رسوله بتسجيله آية آية، وأن ينهض الرسول ﷺ، بعد أن راجعه جبريل في القرآن كله، أن ينهض لهذا الأمر العظيم فيأمر بتسجيل القرآن وتجميعه، وتحديد سوره، وكل تلك الأمور انما هي توفيقية، بأمر من الله ورسوله.. ولقد كان للقرآن الكريم كتبته الأساسيون، الذين يكتبون ما ينزل على الرسول يوميا، في الصحائف، وعلى الجلود، وعلى الحجارة العريضة، وعلى سعف النخل. ولم يترك رسول الله أمر القرآن وسوره ومناسباته وأحكامه للظروف، بل - توفاه الله - ﷺ، وقد اكتمل القرآن كتابةً وتنظيماً، وتحديداً للسور، وبين للمسلمين كل ما يختص به كقرآن موحى به من السماء.. حتى لا يكون ثمة خلاف، أو ثمة بادرة يمكن أن تظهر وتحمل معها خلافات تؤدي إلى انقسامات بين المسلمين أو تحريفات في الديانة الاسلامية.

وكأنما الله سبحانه وتعالى قد حدد هذا الأمر منذ البدء، حين أخبر في آياته الكريمة، بأنه أنزل القرآن. وبأنه جل وعلا حافظه إلى يوم

الدين، وأنه لا مجال للخلاف أو الاختلاف، ودستور المسلمين قائم بينهم، حيث تلقاه الرسول عن الوحي وأخذه الكتبة ودونوه.. لفظاً لفظاً، وآية آية..

إن الآية الكريمة تسجل ان القرآن موحى به من الله، وأنه جل وعلا كفل له الخلود والثبات والنقاء، والصفاء، والبعد عن التحريف والتشويه والخلط.

قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَه لَحافِظُونَ﴾ (سورة الحجر - الآية ٩). ولعلنا نلاحظ أدوات التوليد المتكررة في هذه الآية الكريمة، لنؤمن بأن الامر يقيني، وأن الله سبحانه وهو يوحى به، يؤكد على حفظه، فلا مجال لتشويه أو تحريف.

فتكرار أداة التوكيد إن، المصحوبة بلام التوكيد، والمتشابكة في النسق القرآني الكريم بتوكيد الضمير (نا) بإبرازه على صورة (نحن).. يوحي ذلك بحفظ الله للقرآن الكريم على مدى الأزمان، لتبقى الشريعة الإسلامية، نقية صافية مبرأة من كل خلط أو تشويه..

ذلك أن محاولات أعداء الاسلام لتشويهه لم تتوقف يوماً واحداً، بل هي محاولات مسعورة ومستمرة.. محاولات ملفقة.. الغرض منها النيل من الاسلام وتشويه عقيدته، بل والدسّ في آيات قرآنه، ومحاولة إدخال ما ليس فيه،.. وكل تلك المحاولات تتحطم - بإذن الله - على صخرة القرآن الكريم، وتتلاشى أمام ضيائه المتألق، «أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض».

ومن أجل ذلك، من أجل نقاء العقيدة والمحافظة على القرآن الكريم مثلما كان وحيا يوحى به على الرسول، كانت مجهودات خلفاء المسلمين، في خدمة القرآن، وتسجيله وكتابته ورسمه، ونشره على لغة واحدة لا يختلف فيها أحد، ولا يتأولها متأول حرصاً على جماعة المسلمين

وتوحدهم، وقوتهم، وصفاء عقيدتهم، وحتى يظل القرآن الكريم بعيداً عن أيدي العابثين.

والمملكة العربية السعودية وهي تعي دورها كقائدة ورائدة للعالم الاسلامي، قد أولت القرآن الكريم ومباحثه اهتماما بالغاً، انطلاقاً من ارتباطها الوثيق بالتاريخ الاسلامي في جميع مراحله، واستشرافها للأفضل من حيث النظام، فهي تعتبر الدولة الوحيدة في المنطقة العربية بأسرها، التي تلتزم الاسلام أسلوب حياة، ومنهج عقيدة، وأن جميع القوانين العاملة في الدولة هي قوانين اسلامية تُسْتقى من مصادرها الرئيسية، القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة والاجماع. وأن تطبيق المملكة للمبادىء الاسلامية في الحدود والمعاملات وأمور الحياة المختلفة لما يشهد لها به كل مؤمن بتراث الأمة الاسلامية، ومخلص في نظرته إلى مجالات الحكم والسياسة، ومن ثم عمرت المملكة في ظل ملوكها وحكامها منذ بدأ تأسيسها جلالة المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود،ونعمت بأمن وأمان، لم تنعم بها دولة إسلامية أو غير إسلامية مجاورة أو بعيدة.

ولقد جاء الملك عبدالعزيز وأمر الناس فوضى بينهم، تتنازعهم الضغائن، وتسود بينهم الفتن، ويعم أرجاء البلاد ذعر وخوف شديدان، لدرجة أن الانسان لم يكن آمنا على نفسه أو ماله أو عياله، حتى لقد كانت قوافل الحجاج تتعرض للنهب والسلب والاغتصاب.

في هذا الجو المفعم بالاضطراب لجأ جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز إلى تحكيم شرع الله، فأخذ بدستور الاسلام وقوانينه التي جاء بها القرآن وسارت على هديه سنة رسول الله ﷺ، وطبق الشريعة الاسلامية تطبيقا كاملاً، لم تأخذه الرحمة بأحد، ولم يتغاض عن إنزال العقوبة بانسان ما مهما كانت مكانته، وكان شعاره، القرآن، القرآن دستور الاسلام، والتمسك بالقرآن، ونشره، وتلاوته، وعقد مسابقات لحفاظه، وإنشاء

أماكن ومدارس لتحفيظه وفهمه ومدارسته، هي الوسائل الأولى واللبنات الرئيسية التي أرساها جلالة الملك عبد العزيز رحمه الله.. فشاد بذلك بنيانا صلبا قويا، وصرحاً يتيه بالعزة والأمان حتى إذا أخذت المملكة طريقها إلى النهضة، وسار حكامها العظماء على طريق التحضر والرقي، متمسكين بكتاب الله وسنة رسوله، رافعين راية الإسلام.. كانت المكرمة الملكية الرائعة التي تكرم بها خادم الحرمين الشريفين جلالة الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله، لخدمة القرآن الكريم، وحي الله، على رسوله، ودستور المسلمين حتى يوم القيامة.

ولا شك انه عهد زاهر، ذلك العهد الذي تشهده المملكة في رحاب مليكها المفدى جلالة الملك فهد بن عبد العزيز، ولا يختلف اثنان على أن عهد جلالته عهد متحضر وراق بكل المقاييس الحضارية. إنه قائد النهضة الكبرى، ليس في المملكة وحدها، بل هو قائد لجماعة المسلمين في أنحاء المعمورة.

وجلالة الملك المفدى في كل مناسبة تستدعيه القول أو الحديث أو الحوار، دائما ما يدعو إلى العودة إلى دين الله الحنيف والتمسك بكتابه وسنة رسوله ﷺ، وتلك سنة حسنة استتبعها جلالته في كل مناسبة، ويكاد يكون مفتتح كل ندوة، أو جلسة أو حوار أو خطاب، تلك العبارات الكريمة التالية التي تدل على عمق الايمان، وقوة العقيدة، وشدة التمسك بأهداب الدين وكتاب الله الكريم وسنة رسوله يقول جلالته: (إننا نحمد الله سبحانه وتعالى الذي أكرمنا بنعمة الإسلام، ووفقنا إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، والحمد لله على ما شرفنا به من خدمة الحرمين الشريفين وخدمة أبناء وطننا في جميع أنحاء هذه المملكة التي تميزت برابطة قوية بين القيادة والأمة......).. وهكذا تصبح الكلمات النيرات المشرقات مضيئات بنور مأخوذ من كتاب الله، وضوءاً باهراً مُسْتَقى من سنة رسوله الكريم.

ولحرص جلالة الملك فهد بن عبد العزيز على الاهتمام الكامل بالقرآن الكريم دستور المسلمين، وكتابهم الخالد، ذلك الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذي يجمع بين خيري الدنيا والآخرة.. كانت الفكرة النيّرة التي انبعثت من قلب المؤمن. من قلب الرجل القائد المسلم.. للمحافظة على القرآن الكريم والعناية به كي يظل مقروءًا ومنتشراً، ومعمولا به.. ومطبقة أحكامه في القول والعمل والسلوك والحياة جميعها كمنهج متكامل.

إن ذلك كله كان وراء فكرة إنشاء مجمع متخصص لطباعة المصحف الشريف وإخراجه في أبهى حلة وأبدع تنسيق. بعيد عن الأخطاء التي يمكن ان تلحق لبعض طبعات المصاحف في البلدان الأخرى.. إنه المجمع الذي يصدر المصحف الشريف في ثوب أنيق طاهر الملمس جميل الشكل لينطلق عبر الأيدي التي تمتد إليه، والألسنة التي تلهج بالقراءة فيه والتلاوة.. انه مصحف يصدر من البلد الإسلامي الذي انطلقت من رحابه المقدسة الدعوة التي عمت الآفاق، وها هي المملكة.. تستعيد مبادرتها فتجعل من القرآن الكريم مناط عزمها، وشجرة أملها في انطلاقة دينية مكتملة، ولا غرو في ذلك فهذا البلد هو مهبط الوحي نزل به الروح الأمين، في مكة والمدينة.

ومن ثم كان اختيار المدينة كمكان لهذه المدينة القرآنية إن صح التعبير، اختياراً مكانيا صالحا مواتيا للغرض الكريم الذي من أجله كان هذا المجمع.. وكانت فكرته.

ولا شك ان القرآن الكريم قد حظي منذ الأيام الأولى بكل أنواع الاهتمام والرعاية والحفظ والدرس والشرح والتفسير. ولقد ظهرت لنا ثروة كبيرة ومتنوعة من العلوم والمعارف كلها تخدم القرآن وتدور حوله، سواءً كانت مباحث متخصصة أو وسائل كتابية تلتزم الخط اليدوي

بأشكاله الجمالية وسيلة لتسجيل القرآن وتدوينه..

وظل اهتمام المسلمين قائما بالقرآن من حيث مدارسته، وطبعه ونشره وتوزيعه على أوسع نطاق في مختلف بلاد العالم الاسلامي. ومع ذلك فإننا نجزم بالطبع، أن دولة اسلامية ما.. لم تقدم على تلك الخطوة الجبارة، وذلك العمل العظيم الذي أرسى قواعده جلالة الملك المفدى فهد، والذي أتى ثمره يانعاً، مصاحف شريفة يقرؤها الناس ويرطبون بها ألسنتهم، ويطمئنون بها أنفسهم ومشاعرهم.

إن هذا المشروع الكبير عبارة عن مدينة متكاملة الخدمات والمرافق لخدمة الطباعة، ولإخراج المصحف الشريف في تصميم مبدع متقن.

ولقد سادت التصاميم الهندسية العربية الاسلامية جوانب وبنايات المدينة القرآنية. حيث روعي في تصميم مباني المطبعة والإدارة، والمسجد إضفاء روح العمارة العربية والاسلامية، كما صممت البوابة الرئيسية لهذه المدينة على شكل كرسي المصحف وعليه مصحف مفتوح محفور من الرخام الطبيعي على هيئة كتاب.

ويوضح سعادة الاستاذ حسام خاشقجي في تعريفه بالمشروع، (أن المطبعة سيصل إنتاجها إلى أكثر من سبعة ملايين نسخة، ومائة ألف مصحف مسجلة على أشرطة الكاسيت سنويا، ومن بين هذا العدد مليونا نسخة مخصصة لطباعة معاني القرآن الكريم بمختلف اللغات الأجنبية الانجليزية والفرنسية والروسية والألمانية والصينية لتغطية احتيـاجـات العـالم الاسلامي).

ولا شك أن هذا العمل عظيم بكل المقاييس، وإنه عمل عظيم من نتاج رجل عظيم، رجل يسير في حكم الأمة على نهج الإسلام رجل يحيي أمة، ويسير في حق وعدالة سيرة الخلفاء الراشدين الكرام الذين

حافظوا على دينهم وأمتهم، بالتمسك بالحق، والحكم بالعدل والمساواة.. والعمل على صالح الناس.

ولا شك أن هذا العمل العظيم الذي أمر بانجازه جلالته لعمل من أعماله الخالدة، التي تترى يوما بعد يوم لخدمة الاسلام وكتاب الله. يصف معالي الاستاذ عبد الوهاب عبد الواسع هذا العمل، بهذا الوصف الرائع، الذي أصاب حقيقته.. وأبان جوهره ويقول وهو يوجه خطابه إلى جلالة الملك فهد بن عبد العزيز (... ولقد رسمت لهذه الوزارة دورها في انجاز هذا العمل الذي أردت أن تستكمل به الدور الاسلامي القدوة الذي تعيشه مملكتنا الحبيبة والذي تمارسه نحو أمة الاسلام. لأنها تستشعر أنه قدرها بل وواجبها وآمالها وأردت به أن تظل هذه الدعوة وهاجة خالدة تعتمد كتاب الله، وتحكمه في دينها ودنياها لتظل كلمة الله هي العيا، ولكي تقوم المملكة بنشره وتوزيعه على أوسع نطاق في مختلف دول العالم الاسلامي، بل وحيث يوجد مسلم، ولكي تتأكد أن هذا الكتاب المكنون المصون يصدر عن هذا البلد الذي يحكم شريعة الاسلام، ويكتب المصحف فيه بعيداً عن الخطأ في الطبع ومحافظا عليه من دَسّ الدساسين ومن غرض المغرضين.

ويقع مجمع الملك فهد لطباعة القرآن الكريم بالمدينة المنورة في أطرافها وذلك على الطريق المؤدي إلى تبوك، ولأن المجمع يتعامل في كل خطواته مع الورق والأحبار، والطباعة.. فلقد روعي أن يكون المكان من حيث مناخه وطقسه وحرارته ورطوبته صيفا وشتاءً ملائماً، حتى لا يكون للجو بمظاهره وتقلباته آثاره على المصحف.. ورقا، وحبرا، وكتابة، وتصويراً منسقا..

ويتكون المجمع، أو مدينة الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، من

عدة مبانٍ مفصلة مساحاتها وأشكالها وتصميماتها، وتشغل المطبعة - المبنى الرئيسي - في المدينة حيزاً مكانيا واسعا.. بحكم أنها هي الركن الأساسي في المدينة لخدمة وطبع المصحف الشريف، ثم تتوالى مباني المدينة القرآنية المختلفة فتتوزع ما بين الادارة، والمسجد، وسكن العاملين والفنيين. كما روعي أن تكون المدينة متكاملة، فأنشىء بها مطعم ونادٍ اجتماعي وسوق تجاري، ومبنى للضيوف، ومبنى لتحليل المياه العادمة ومحرقة خاصة لموقع المجمع.

- ولقد روعي في تصميم المجمع أن يكون على أعلى المستويات في المواصفات العالمية المعمارية والمدنية، ولقد أُضْفي على جميع المباني روح العمارة العربية والاسلامية وبدت كأنها إحدى المباني الاثرية القديمة.

- إن الاهتمام بالتصميم الجمالي الاسلامي لهو من المميزات التي يفخر بها هذا المجمع الديني الكبير، فلقد تلاءم الشكل الجمالي للمكان مع الشكل الهندسي التصويري والجمالي لاخراج المصحف إخراجاً فنياً متكاملا.. فأصبح المجمع بكل ما فيه عنوانا على الجمال الاسلامي، والفن الاسلامي في عراقته وأصالته...

وبهذا التكوين يصبح مجمع الملك فهد لخدمة المصحف الشريف والتام بالمدينة المنورة من أكبر المجمعات العلمية أو الثقافية أو الدينية في العالم العربي إن لم يكن في العالم اجمع.

- ولأن المجمع ضخم ضخامة الآمال التي حققته، فإن إنتاجه من المصاحف الشريفة سيكون إنتاجاً ضخماً.. بحيث يغطي مساحة كبيرة في العالم الاسلامي، وهو هدف يحرص عليه جلالة الملك المفدى، فهو يحرص على أن يصل مصحف المدينة المنورة إلى كل مسلم حيثما كان، وحيثما وجد.

- وستكون الطاقة الانتاجية للمطبعة حوالي سبعمائة مليون ونصف

المليون نسخة من المصحف الشريف، ذات مقاسات مختلفة وأنواع رائعة ومواصفات عالمية من حيث فخامة الطباعة. فمثلا سيطبع ٥٠٠ خمسمائة نسخة فاخرة وممتازة جداً بمقاس ٢١،٥ × ٣٥،٥سم وتطبع جميعها على ثلاثة ألوان إضافة إلى الذهب المضغوط بالحرارة في جميع الصفحات ما عدا الأربع الأولى والأخيرة فتطبع على ثمانية ألوان مع لون الذهب المضغوط بالحرارة كما تجلد بجلد طبيعي فاخر محلى رقائق الذهب وتوضع كل نسخة في علبة فاخرة.. وهناك بطبيعة الحال طبعات ممتازة وأخرى عادية بمقاسات مختلفة على أرقى المواصفات في الطباعة وأفخر أنواع الورق.

• ومن الأمور الهامة التي يضطلع بها مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف هو إنتاج كميات ضخمة تقدر بمليوني نسخة ذات مقاس ٢٥×١٧,٥ سم، وهي مخصصة لطباعة ترجمات معاني القرآن الكريم بمختلف اللغات الأجنبية كالإنجليزية والفرنسية والروسية والألمانية والصينية ونحوها لتغطية احتياجات العالم الاسلامي.

• كما سيقوم المجمع بتسجيل القرآن الكريم على شرائط الكاسيت وذلك بطاقة انتاجية ١٠٠,٠٠٠ مائة ألف نسخة من القرآن الكريم سنويا.

• وتتكون المطبعة من اقسام عدة، منها قسم التركيب والتحضير، ثم قسم التظهير وهو تصوير المخطوطات فوتوغرافيا، وقسم التجهيز، وقسم عمل الصفائح ثم قسم الطباعة حيث توضع الصفائح بعد ذلك على ماكينة الطبع المخصصة لها ويمكن أن تطبع أربعة ألوان في آنٍ واحد. ثم قسم لمراقبة الجودة وتصحيح الأخطاء.

• ولقد صممت المطبعة على أساس متطلبات الانتاج وتعتبر هذه المطبعة فريدة من نوعها في عالمنا الحديث حيث لا يوجد مكان آخر

ينتج فيه المصحف الشريف بهذه الكميات الهائلة ذات الجودة العالية، مثلما ينتج في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

ولقد جُنِّد في هذا العمل أعلى الكفاءات فنا وإدارة وإخراجاً. كما سيكون هذا المجمع فرصة سانحة للشباب السعودي للافادة من هذا الانجاز الضخم في مجالات العمل المختلفة. وسيكتسبون خبرات واسعة في مجالات مختلفة لجميع الأقسام. ولقد صمم المجمع بحيث يكون مدينة كاملة البناء والخدمات ومن ثم كل دواعي الأمن وضروراته مهيئة ومكفولة بأروع ما يمكن أن يتحقق. ولأن المدينة واسعة، ومتعددة الأبنية والاتجاهات والاقسام، فلقد صممت طرق للمواصلات لسهولة التنقل بين الادارات المختلفة ومستودعات التخزين.. وغيرها من المخازن الأخرى.

- إن مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة ليعد بكل مقاييس الإنتاج وخدمة الاسلام إنجازاً هاماً على المستوى الإسلامي والدولي ومفخرة من مفاخر هذا العهد السعيد، ودليلاً يجسد اهتمام جلالة الملك المفدى فهد بن عبد العزيز وعنايته الفائقة بكتاب الله الكريم ودستور الاسلام المجيد، والذي هو طريقنا إلى السعادة في الدارين، الدنيا والآخرة..

ولا شك أن مجمع الملك فهد لطباعة القرآن الكريم بهذا الشكل التفصيلي، الذي يُخدم فيه القرآن كتاباً وصوتاً وترتيلاً، مع ملحقات المكتبات العامرة بتراث الإسلام وعلوم القرآن المختلفة، لا شك أن المجمع سيكون مصدر إشعاع ديني ومعرفة بأصول الاسلام، ونهراً من النور يتدفق كلما رتل إنسان كلام الله، وكلما مسكت يد إنسان بمصحف المدينة الفخم يتلو آيات بيِّنات من الذكر الحكيم.. إن هذا المجمع لهو خير كله إذ سينشر القرآن الكريم في العالم الإسلامي والدولي.. وإنه لعمل عظيم، أعطى ثماره، ففي موسم حج هذا العام ١٤٠٥ هـ، كانت

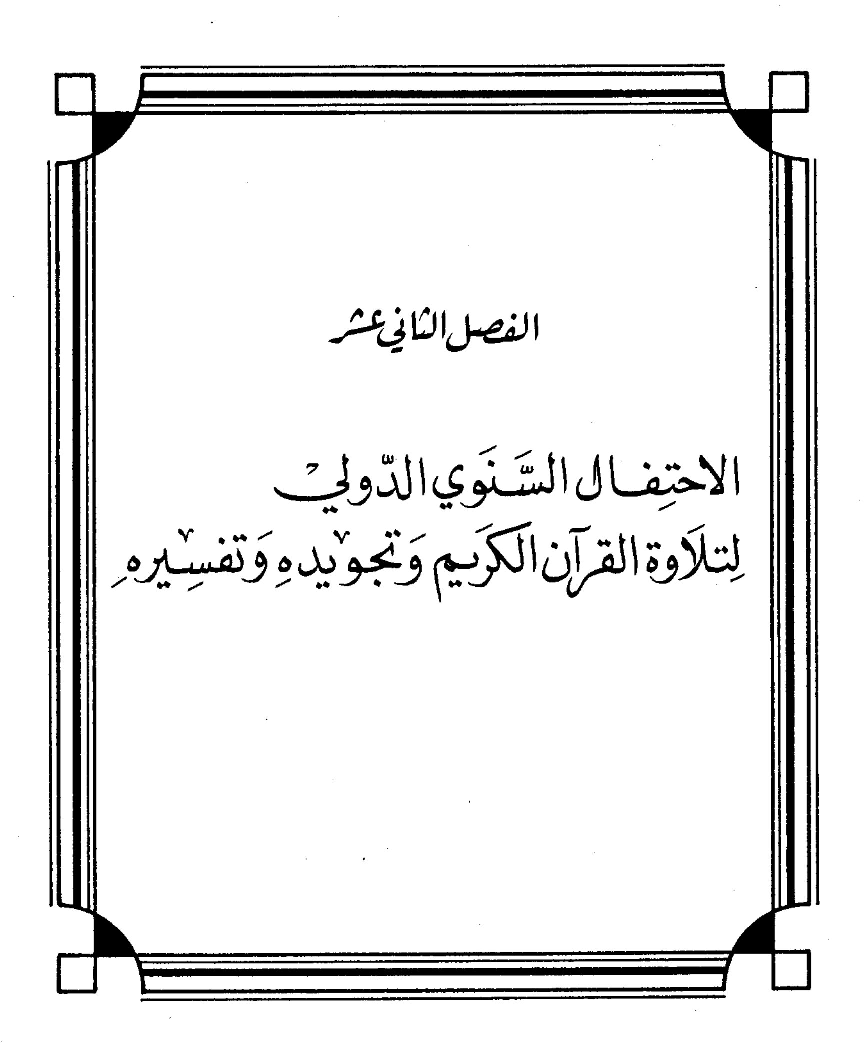
ثمرة هذا المجمع، ملايين من النسخ، وزعت على منافذ المملكة، حيث يتجمع الحجيج.. وكم كان جميلا ورائعاً، أن ترى أيدي حجاج بيت الله المسلمين وقد احتضنت المصحف، وقبلته، ورفعته عاليا، وكم هو عمل عظيم يجلب الفخر لصاحبه، أن يرى ثمرة عمله وشجرة أمله قد أثمرت ملايين من النسخ تتخاطفها الأيدي، وتخشع بتلاوتها النفوس.

وهكذا كما كان القرآن الكريم رطبا نديا منذ نزل، فهو الآن لا يزال نديا رطبا محفوظاً بعناية الله، مكفولا نشره بإرادة الله ثم بفضل العمل الصالح الذي حققه جلالة الملك فهد المعظم، فانتشر المصحف وعم بلاداً وأصقاعا، وحمل معه النور والهدى وضياء الحق، ليغمر القلوب الظمأى إلى الإيمان والعطشى إلى نور الحق.

وبهذا العمل العظيم الذي قدمه جلالة الملك فهد خدمة للاسلام والمسلمين يكون بذلك قد انضم إلى الرجال الأفذاذ الذين وهبوا أنفسهم للجهاد والخير والدعوة لدين الله ونصرة رسوله. وإشاعة مفاهيم وقيم العدل والخير والقدوة الحسنة.

وخير ما نختم به هذا الفصل قول جلالته وهو يزيح الستار عن مجمع الملك فهد لطباعة القرآن الكريم، لما فيه من تلخيص صادق لجوهر النقاء الديني والإخلاص لله، وحب الدعوة ونشرها بين الناس.

يقول جلالته: (بسم الله الرحمن الرحيم،وعلى بركة الله العلي القدير. إننا نرجو ان يكون هذا المشروع مشروع خير وبركة لخدمة القرآن الكريم أولا ولخدمة الاسلام والمسلمين ثانيا، راجيا من الله العون والتوفيق في أمورنا الدينية والدنيوية.. وأن يوفق هذا المشروع الكبير لخدمة ما أنشىء من أجله وهو القرآن،لينتفع به المسلمون وليتدبروا معانيه).



الفصل الثاني عشر

الاحتِفال السَّنَوي الدّولي لِتلَاوة القرآن الكَريم وَتجويدهِ وَتفسيرهِ

منذ أن بدأ جلالة المغفور له الملك عبد العزيز توحيد الجزيرة العربيَة وتحويلها من أطوار البداوة إلى طور الحضارة والرقي، وهو يغير أفكار أهلها وشعبها وطبائع قبائلها إلى الأفضل عاماً بعد عام، متسلحا في هذا الصراع الحضاري والتحدي الثقافي، بقوة الإيمان بالله، وبعقيدته الخالصة الصافية المبرأة من كل ما يشوبها من ارتكاس أو ضلال، وبكتاب الله الذي وضعه نصب عينيه، مدافعاً عنه، وحاميا له، وعاملاً على تثبيت مبادئه كاملة، لا تفريط في مبدأ، ولا تخلٍّ عن شعيرة، ولا تنصل من حدٍّ من حدود الله، ومتسلحا بحب الوطن الذي ناداه إلى توحيده وتخليصه مما يعطله، ويعرقل مسيرته، فلبى النداء وسارع جامعاً بين المصحف والسيف، ولبت معه جموع المؤمنين به والتابعين له، والمنخرطين في ركابه، لبوا النداء جميعا، في حب وتضحية من أجل الله، ومن أجل العقيدة، ومن أجل ان يظل مجتمع الجزيرة مجتمعا مثالياً يحتذيهً المسلمون في كل بقاع العالم.

يقول الملك عبد العزيز حول هذه الجزئية السامقة: (لقد فتحت هذه البلاد ولم يكن عندي من عتاد إلا قوة الايمان وقوة التوحيد والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله، لقد خرجت وأنا لا أملك شيئاً من حطام الدنيا ومن القوة البشرية، وقد تألب الأعداء عليّ ولكن بفضل الله وقوته تغلبت على أعدائي وفتحت كل هذه البلاد).

لقد استطاع هذا الرجل العظيم بقوة إيمانه بالله، وقوة توحيده أن يحقق وحدة الجزيرة لتصبح بلدا سامقا علياً، تتأساه بلاد المسلمين قاطبة، بما له من رسوخ إيماني حيث أنه يعتبر الدولة الوحيدة التي تطبق شريعة الاسلام، حدّاً، ومعاملة، وسلوك حياة، فضلا عن رعايتها للأماكن المقدسة، التي هي قبلة المسلمين في كل بقاع العالم.

ولقد سار الملك عبدالعزيز لتأسيس ملكه سيراً وئيداً حثيثا أثمر ثماراً يانعة، آتت أكلها على الدوام.. إن شاء الله. فبعد ان قام بتحضير القبائل والعشائر، وتخليصها من عاداتها القديمة البالية التي لا تتفق مع نظام، أو قانون، أو شرع الله، التي كانت تلك البلاد مهده ومهبط وحيه، بدأ يبحث في جدية وإصرار للوصول إلى أحسن وأفضل النظم التي يتبعها لتأصيل النظام، وتثبيت الأركان. وهداه التفكير الخصب والذكاء المتوقد، والقلب المؤمن، إلى اختيار الشريعة الاسلامية المنهاج الأوحد في الحكم والنظام. والتمسك بها في كل مجالات الحياة، وإقامة الحدود التي حدَّها الله سبحانه، ومن أجل ذلك كان اهتمامه بالعلم والمعرفة، لتعليم الدين والتعريف بأحكامه.

ومنذ أن ارتادت المملكة هذا المجال اليقيني، والتقدم يسير في ركابها، والاستقرار يمتد فوق ربوعها، والأمن والأمان يظللان كل أرجائها من أقصاها إلى أقصاها. حتى نعم الناس جميعا في ظل هذا الحكم السعودي بالأمان والأمن، وهي نعمة لا يحسها ولا يقدرها إلا من يفتقدها.

ومضت المملكة العربية السعودية جيلا بعد جيل، وهي ترسخ مبادىء العقيدة وتعمل على تأصيلها في النفوس وعلى اجتثاث النباتات السامة الفاسدة التي تزعزع أركان العقيدة، أو تسيء إليها..وهي تدرك أن الاسلام يتعرض لمحاولات دنيئة من أعدائه، وأن هؤلاء الأعداء لا يألون جهداً في النيل منه.. ولكنها الدولة الرائدة التي أرست نظام حكمها على التوحيد الخالص، والأخذ بالقرآن الكريم والسنة الشريفة، عملت جاهدة على نشر التعليم الديني أولاً، حتى يتوفر للمواطن إدراك أمور الدين والالتزام بمفاهيمه الحقيقية.

والمملكة وقد نهضت في هذا المجال نهوضاً لا ينكره إلا حاسد فقد

حباها الله من نعمة الاسلام ما جعلها تتصدر زعامة العالم الاسلامي، لا لثراء، أو مالٍ، أو غنى، وانما لأمور هي أعلى من ذلك وأكبر، ففي المملكة، بقاع مقدسة طاهرة هي أطهر بقعة خلقت على وجه الأرض، حيث تتجه إليها أفئدة المسلمين وقلوبهم يوماً، بعد يوم، وساعة بعد ساعة، بل تظل الوجوه والقلوب متجهة إلى الكعبة المشرفة خمس مرات يوميا..

وليس ذلك فقط، وإنما يقصدها المسلمون من جميع أصقاع العالم الاسلامي وجنباته شرقا وغربا، قريبا وبعيداً، ملبين مهللين، داعين الله ان يتقبل منهم طوافهم، ومناسكهم.. إن المسلمين يعقدون مؤتمرهم الاسلامي السنوي، خلال أداء مناسك الحج، على صعيد مكة، فتتوحد القلوب وتصفو، وتخلص المشاعر وتتجدد، وتتضافر الجهود وتتحد لخدمة الإسلام وإعلاء رايته خفاقة، وهي فرصة للتجمع - وإظهار الوحدة والتجرد من الأنانية، وإخلاص النية لله،. ومن ثم لم يكن غريبا، أن يصبح ذلك الصعيد رمزاً للمسلمين، وأن تصبح المملكة قدوة ومثلاً، وأسوة لغيرها من بلدان العالم الإسلامي يترسمون خطاها في سبيل تأصيل العقيدة وتطبيق حكم الله.

ونعم الله على المملكة لا تعد ولا تحصى، فكما انعم الله عليها بالإسلام وبالأماكن المقدسة، وبتأصيل العقيدة كحكم، فقد أنعم عليها أيضا برجال بررة من دوحة أصيلة كريمة، وبأئمة أجلاء جعلوا خدمة الاسلام وخدمة المسلمين نصب اعينهم. وهدفاً لا يتوانون فى تحقيقه. ولقد خافوا الله فمكّنهم الله، واستخلفهم في أرضه، أئمة أجلاء، وحكاماً عادلين، ودعاة إلى الحق والخير والعدل.

والمملكة على مرّ السنين وتوالي الأعوام تزداد إيماناً ورسوخاً ومهابة، وقدوة وأسوة لغيرها. ولقد تحقق لها ذلك بتحقيق وتطبيق

وتحكيم شرع الله.

ومن أجل ذلك، وبسبب من الله ودينه وقرآنه، أولت المملكة حكاماً وملوكاً، وأئمة ورجالا صادقين في عقيدتهم، أولوا القرآن جُلَّ عنايتهم واهتمامهم، حتى يظل القرآن متداولاً بين الناس وذلك بوسائله المتعددة كالحفظ، والتلاوة، والمدارسة.

وشملت البلاد - في ظل الحكم السعودي - نهضة تعليمية شاملة، فمن أجل هذا الهدف الكريم، هدف نشر القرآن وحفظه وتداوله امتد التعليم حتى وصل إلى القرى والهواجر. وانتشرت مدارس تعليم وتحفيظ القرآن - كما كانت تنتشر الكتاتيب قديما - وأقبل المواطنون على هذه النوعية من التعليم إقبالاً كبيراً.

والحكومة السعودية - وعلى رأسها جلالة الملك المفدى فهد بن عبد العزيز - اعتبرت خدمة الاسلام هدفها الأسمى الذي لا ينازعه هدف، ومقصدها الأول الذي لا يغطيه مقصد آخر. فدعمت ما استطاعت، وساندت بكل ما تستطيع، هذه الغاية الكريمة، وهذا الهدف السامي، فافتتحت مدارس كثيرة لا تحصى، يعتمد المنهج التعليمي فيها على أصول الاسلام، وحظيت العلوم الدينية بأكبر قسط وافر من المنهج الدراسي ككل وفي المراحل جميعها على السواء. وامتد ذلك حتى وصل إلى الجامعة، فأنشئت الكليات والمعاهد المتخصصة في الدراسات الدينية والاسلامية، والحضارة الاسلامية. كما أفردت الحكومة مدارس مميزة، ذات ارتباط وثيق بالعلوم الدينية. وهي مدارس تحفيظ القرآن الكريم، وهي مدارس تنتشر في كثير من البلاد، وهي تنمو وتزداد وتتوسع حتى بلغت حوالي مائة وعشرين مدرسة في مختلف المراحل، شملت وغطت جميع أنحاء المملكة العربية السعودية على اتساعها.

وفي هذا المجال فإننا لا نستطيع إلا ان نذكر ان عدد الجمعيات

الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم قد بلغ حوالي ثلاثمائة وثلاثين مدرسة خيرية، تقوم الدولة مشكورة بتدعيمها بأغلب النفقات، وترعاها رعاية كاملة حتى تبلغ الهدف المنشود، والذي أسست من أجله، وهو نشر القرآن الكريم وحفظه وتلاوته، ومدارسته.

ومن الجهود الجبارة التي تحسب للمملكة في مجال نشر القرآن وحفظه وتلاوته ومدارسته - مسابقة القرآن الكريم الدولية. إن ذلك المهرجان العظيم الذي يقام سنويا لدليل قوي على إخلاص النية لتحقيق الهدف السامي المنشود.

فلقد رأت المملكة - وهي تدرس هذا الموضوع - أن مشكلة العالم الاسلامي الآن هي انصراف المسلمين عن تطبيق احكام الشريعة الاسلامية. يقول جلالة الملك المعظم: (وانطلاقا من إيمان المملكة العربية السعودية ملكا وحكومة وشعبا بضرورة تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية والالتزام بها عقيدة، ومنهجا وسلوكا، فإن تلاوة القرآن الكريم من أفضل العبادات وأعظم القربات وأجل الطاعات)...

ولقد بدأت فكرة مسابقة القرآن الكريم الدولية في مهرجان تونس والذي عقد في ربيع الأول من عام ١٣٩٧ هـ، وكان المهرجان لتلاوة القرآن وحفظه. وفي هذا المهرجان اتفق على اقامة مهرجانات سنوية للقرآن الكريم، على مستوى الدول الاسلامية والجمعيات الاسلامية. ولقد رحبت المملكة ترحيبا قويا ومشجعا واحتضنته على أرضها، وفي مكة المكرمة مهبط الوحي ومدرج الرسول، وبعد دراسات مستفيضة، حول المسابقة الدولية لتلاوة القرآن الكريم رصدت ميزانية ضخمة تغطي كافة التكاليف فضلا عن الجوائز المرصودة للفائزين في المسابقة السنوية في فروعها المختلفة، ولقد اهتم المشروع بعديد من المسائل منها:

١ - اختيار مكة المكرمة مقراً للمهرجان والمسابقة نظراً لمكانتها

الدينية فهي مهبط الوحي وفيها أقدس البقاع ومهوى الأفئدة.

٢ - تحديد الزمان بأن يكون في الشهر السادس للعام الهجري تقريبا.

٣ - اعداد هدايا رمزية، ومكافآت تتلاءم وهذه المناسبة الدينية.

٤ - استضافة المشاركين واستقبالهم مع رعايتهم وترتيب سائر شؤونهم.

٥ - تكوين أمانة عامة للمسابقة وتشكيل لجان لهذا الغرض مع انتخاب هيئة للتحكيم سنويا من أهل الخبرة والعلم من شتى الدول الاسلامية.

ولقد قامت وزارة الحج والأوقاف بأمر من جلالة الملك المفدى وبموافقته السامية، بانشاء جهاز وظيفي مستقل يعرف بالأمانة العامة لمسابقة القرآن الكريم الدولية حيث يكون مقره بمكة المكرمة، ولقد تنوعت اقسام هذا الجهاز الوظيفي إلى اقسام اشتملت على معهد للقراءات، وعلوم القرآن،وصالات للاحتفالات،وأماكن لسكن المشاركين.

ولقد راعى الجهاز المسؤول عن المسابقة الدولية للقرآن الكريم وبتوجيه من جلالة الملك المفدى، الاهتمام بالنشء الصغير وغرس القيم الدينية فيه، وإذكاء روح المنافسة لديه حتى يشب وجذوة الايمان مشتعلة في قلبه وفي ضميره ولقد تم تشجيع الناشئة على تلاوة كتاب الله وحفظه وترتيله وتفسيره.

والمعروف أن المسابقة الأولى قد تمت في عام ١٣٩٩هـ بناء على الأمر السامي الذي جاء بالموافقة على إجراء المسابقة الدولية للقرآن الكريم، وتلك صورة الموافقة السامية. والتي تدل دلالة واضحة وعميقة على أن المملكة لا تدخر وسعا في سبيل خدمة الدين، وخدمة كتاب الله، القرآن الكريم،نشراً وحفظاً وتلاوة ومدارسة، فأجرت هذه المسابقة لتذكي في نفوس المسلمين الحب للقرآن، وحفظه، بل ونشره حيثما كان هناك مسلم يشهد بالشهادتين.

صورة للأمر السامي الكريم
بإقامة مسابقات سنوية دولية لتلاوة القرآن الكريم
وتفسيره وتجويده على أرض المملكة

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية — الرقم ٥/ف/١٥٦٢٦
ديوان رئاسة مجلس الوزراء — التاريخ ١٣٩٧/٧/٤ هـ
إدارة الشؤون السياسية

الموضوع: تنظيم مباريات سنوية لتلاوة القرآن الكريم وتجويده

صاحب المعالي وزير الحج والأوقاف /مكتب الوزير

بعد التحية،

بالإشارة الى خطابكم رقم ١/٢٢٨ وتاريخ ١٣٩٧/٥/٢٩ هـ بشأن المشروع الذي وضعته حكومة الجمهورية التونسية باسم الرابطة الاسلامية للقراء والمجودين والهدف منه هو تنظيم مباريات سنوية لتلاوة القرآن الكريم وتجويده لقاء جوائز ومكافآت على أن تنشأ في كل مدينة من مدن العالم الاسلامي جمعيات لهذا الغرض ثم يعقد في كل سنة مؤتمر عام يضم ممثلين عن هذه الجمعيات... الخ. وطلبكم صدور الموافقة لاتخاذ الخطوات التنفيذية للأعداد لهذا المؤتمر. نخبركم بموافقتنا على ذلك ونرغب إليكم اكمال اللازم بموجبه ودمتم..

نائب رئيس مجلس الوزراء.

ولقد هيئت جميع الظروف الطيبة للمتسابقين، بحيث تكون المسابقة في جو روحاني، وفي أماكن مريحة للنفس وللبدن. فقد تولت وزارة الحج والأوقاف بالمملكة العربية السعودية - وهي تعي الدور الذي انيط بها بحكم أنها المقترحة للمسابقة والمنفذة لها - باستضافة المتسابقين والمرافقين طيلة أيام المسابقة. واسكانهم بالفنادق ذات التجهيزات المريحة، بالإضافة إلى تحمل نفقات سفرهم واركابهم، وتولي جميع ما يتعلق باستقبال وترحيل المشاركين.

وتنتهز الوزارة هذه الفرصة السانحة وتقدم جوائز رمزية لتلك المناسبة، بل وتنظم برامج لزيارة الأماكن والمعالم المقدسة في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وانطلاقا إلى تحقيق الكمال في المسابقة فلقد حرصت الوزارة إلى أن توكل موضوع تحكيم المسابقة إلى لجنة دولية يشترك فيها أهل العلم والفضل من سائر البلدان الاسلامية، وينتخبون سنويا من علماء وفقهاء لهم خبرة بهذا المجال. والوزارة وهي تقدم بذلك كله فهي تتحرى الدقة وتتوخى العدالة في مجال تحكيم المسابقة، الذي هو رمز للعدل وللمساواة فضلا عن محاولتها الدءوب لإخراج المسابقة في إطار إسلامي لائق ومشرف. وفي كل عام يصدر معالي وزير الحج والأوقاف أمراً بتشكيل لجنة عليا برئاسته تتولى الإعداد والإشراف على تنظيم الاحتفال السنوي الدولي لتلاوة القرآن الكريم وتجويده وتفسيره، وينبثق عن هذه اللجنة العليا عدد من اللجان. هي:

١ - لجنة تختص بأعمال السكرتارية والأعمال ذات الارتباط المكتبي.
٢ - لجنة تختص بأمور الاعلام والدعاية والعلاقات العامة.
٣ - اللجنة المختصة بالمسابقات ذاتها، وأنواعها ورصد جوائزها، وشؤون التحكيم بها.

٤ - لجنة تكون مهمتها استقبال الوفود واسكانهم والعمل على راحتهم.

٥ - لجنة الأعمال المالية والميزانية.

وهذه اللجنة تتولى الإعداد لحفل الافتتاح وحفل الافتتاح الذي يُبدأ به المسابقة الدينية الدولية للقرآن الكريم، يشرفه نيابة عن خادم الحرمين الشريفين، جلالة الملك المفدى، سمو أمير منطقة مكة المكرمة، الذي يفتتح الاحتفال القرآني الكبير نيابة عن جلالته، بالإضافة إلى معالي وزير الحج والأوقاف.

وخلاصة القول في هذه النقطة أن وزارة الحج والأوقاف بقيادة الوزير معالي الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع، وبتوجيه من صاحب الجلالة الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله، لم تدخر وسعا في إخراج مسابقة القرآن الدولية، إخراجاً يليق بمكانة القرآن الكريم دستور المسلمين، ووحي الله على رسوله وأصل الإسلام الأول، وكتاب الله المعجز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

كما أن حكومة جلالة الملك المفدى سخية اليد كعادتها في إسباغ كرمها على المسابقة ورصد الميزانية الضخمة والتي تزداد عاماً بعد عام.

وكل تلك المجهودات المبذولة إنما هي في خدمة القرآن الكريم. الذي حفظه الله سبحانه بكتابته في السطور وبنقشه في الصدور. ولم يحظ كتاب سواه بالعناية التي أحيط بها، فقد كثرت العناية بسوره وبآياته وألفاظه وحروفه وقراءاته، ووجوهه ونقطه ورسمه.

كما أحصى العلماء المسلمون كلماته، عددها وحروفها، والفاظه المعجمة والمهملة، ووضحوا علوم القرآن التي تخدم القرآن الكريم، كعلم أسباب النزول يقول شيخ الاسلام ابن تيمية: إن معرفة سبب النزول يعين على

فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب.

وكعلم المكي والمدني، فما نزل بمكة يعتبر مكيا، وما نزل بالمدينة يعتبر مدنيا، ولقد استقصى العلماء ذلك كله وأحصوه إحصاءً دقيقا.

وكذلك علم الناسخ والمنسوخ حتى يكون التفسير واضحاً ودقيقا.

وكذلك علم المحكم والمتشابه، وهو علم يخدم النص القرآني ويساهم في التفسير مساهمة فعَّالة ومؤثرة.

وعلم القراءات من العلوم التي تخدم القرآن مدارسة وصوتا، وهو علم يرتبط ارتباطا وثيقا بالمسابقة، على اعتبار ان القارىء لا يسمى قارئاً اصطلاحاً إلا اذا أحكم قراءته بالسماع والمشافهة وبالتواتر.

ويأتي علم رسم القرآن، فللقرآن رسم خاص في كتابه كلماته فضلا عن علم التفسير الذي كثرت فيه الكتب، والتفسير هو محاولة الكشف عن معنى الآية والمراد منها وهو علم لا يستغنى عنه لأن الله إنما خاطب عباده بما يفهمونه، فلا بد للقارىء من معرفةٍ للمعاني الظاهرة وكذلك الخفية. وسرد هذه العلوم القرآنية ليست غايته مجرد ذكر العلوم التي تخدم القرآن، وإنما جاء ذكره هنا للتأكيد على نقطة ذات أهمية، ذلك أن وزارة الحج والأوقاف تدرس أفضل السبل لمدّ مظلة المسابقة لتشمل تلك العلوم القرآنية بكافة أنواعها، وبطرق أعمق وأدق ولا يتم ذلك بطبيعة الحال إلا عن طريق بحوث تقدم ممن يريد الاشتراك في مسابقة القرآن الكريم الدولية والهدف واضح من نشر مظلة المسابقة على علوم القرآن، فالأمل قوي لدى المملكة العربية السعودية بقيادة مليكها المفدى في أن تنتشر علوم القرآن الكريم، خدمةً للمسلمين، وتبصيراً بخصائص وأسرار دستور الاسلام العظيم، فضلا عن المساهمة الجبارة في دعم المعرفة الدينية بين شباب المسلمين.

وإذا كان ذلك الأمل المنشود تسعى اليه الوزارة سعيا حثيثا، فإنه

تجدر الإشارة إلى مجالات المسابقة وأقسامها وجوائزها. وهي أقسام يطرأ عليها إضافة أو حذف كل عام. بحيث يستحدث فرع جديد في المسابقة، أو يحذف فرع كان موجوداً في المسابقة السابقة وهكذا، فإن مرونة المسابقة وفروعها يغطي مجالات المسابقة وأقسامها ولقد قسمت المسابقة إلى خمسة أقسام كبيرة شبه ثابتة وهي:

١ - حفظ القرآن كاملاً مع التلاوة والتجويد والتفسير وعدد الفائزين في هذا النوع خمسة، تبدأ الجوائز من خمسة وسبعين ألفا إلى ثلاثة وستين الف ريال.

٢ - حفظ القرآن الكريم كاملاً مع التلاوة والتجويد وعدد الفائزين خمسة تتراوح جوائزهم بين خمسة وخمسين الف ريال وثلاثة وأربعين ألف ريال.

٣ - حفظ عشرين جزءاً من القرآن الكريم مع التلاوة والتجويد وعدد الفائزين خمسة وتتراوح الجوائز بين أربعين ألف ريال وثمانية وعشرين ألف ريال.

٤ - حفظ عشرة أجزاء من القرآن الكريم مع التلاوة والتجويد وعدد الفائزين خمسة وتتراوح الجوائز بين خمسة وعشرين الف ريال وثلاثة عشر الف ريال.

٥ - تلاوة القرآن الكريم مجوداً مع حسن التنغيم وعدد الفائزين خمسة وتتراوح جوائزهم بين عشرة آلاف ريال وأربعة آلاف ريال.

والمملكة وهي تنظم هذه المسابقة الدولية للقرآن الكريم فإنها حريصة كل الحرص على خدمة كتاب الله وحفظه ونشره واذكاء روح المنافسة لتلاوته وخدمته وبحث علومه.

والأمة الاسلامية جميعها مدعوة للحكم بكتاب الله وسنة رسوله، ولن يتحقق نصر الله الموعود لهذه الأمة إلا إذا جعلت القرآن الكريم،

عقيدتها ودستورها ونظامها، وقامت على خدمته بكل الوسائل الممكنة، فالقرآن هو ذكر الله (ألا بذكر الله تطمئن القلوب).

الخاتمة

● ليس هناك ما يستحق الرعاية والاهتمام في حياة الأمة الاسلامية.. اكثر مما يستوجبه كتاب الله سبحانه وتعالى.. الذكر الحكيم.. والنور المبين.. وحبل الله المتين.. وصراطه المستقيم.. ودستوره الخالد.. والشفاء لما في الصدر.. والهداية والرحمة والنور لقوم يوقنون!!.

□ انه الكتاب الخالد.. الذي تكفل الله تبارك وتعالى بحفظه على مر العصور والاجيال.. وحتى يرث الله الارض ومن عليها.. قال سبحانه وتعالى: ﴿انَّا نحنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر الآية ٩) وقد استمر هذا الحفظ.. منذ كان النبي ﷺ يتلقى القرآن.. وحيا ينزل به جبريل الأمين.. حتى يبلغه للناس أجمعين!!.

□ وقد اتم الله سبحانه وتعالى على خاتم انبيائه ورسله محمد ﷺ.. وعلى هذه الأمة التي آمنت به، واتبعت النور الذي انزل معه.. نزول القرآن.. وتم ابلاغ الوحي.. قال تعالى: ﴿اليومَ أكملتُ لكُمْ دينَكُمْ.. واتْمَمْتُ عَلَيكُمْ نِعْمَتي.. ورضِيتُ لكُمُ الإِسْلامَ ديناً﴾ (سورة المائدة الآية ٣) وقال تعالى: ﴿وإنَّهُ لَكِتابٌ عزيزٌ لا يأتِيهِ الباطِلُ من بينِ يَدَيهِ ولا من خلفِهِ تَنْزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ﴾ (سورة فصلت الآيتان ٤١ - ٤٢)..

□ وقيض الله سبحانه وتعالى لكتابه الكريم.. اوثق طرق الحفظ والتلقي والتدوين.. والخلود في الحياة كدستور للمسلمين.. فظل محفوظا في الصدور.. كما كان مكتوبا في السطور.. وما هذا الاحتفال السنوي

الدولي لتلاوة القرآن الكريم وتجويده وتفسيره الذي نشهده ونعيشه كل عام في مكة المكرمة بتلاوة القرآن.. إلا دليل أكيد على حفظ القرآن الكريم وخلوده على مر الأجيال والعصور.. وحتى تقوم الساعة!!.

□ وقد اتجهت النفس الانسانية متسامية الى رسول الله ﷺ.. تتعرف سيرته الظاهرة العطرة.. لتقتبس من نور هديه.. وتتنسم نسيم عطره.. وتشاهد ارهاصات النبوة.. بل الاعجاز في حياته الاولى.. كما ايده الله سبحانه وتعالى بالمعجزات في حياته الثانية.. بعد ان بعث رحمة للعالمين.. وقد تابعت الانسانية حياته الأولى ﷺ.. ثم تسامت الى متابعة حياته الثانية.. بعد ان نادى في الجزيرة العربية بصوته القوي العميق.. يدعو الى التوحيد في وسط الوثنية.. وهو يصبر ويصابر.. ويجاهد ويناضل.. ويلاقي الاذى والاضطهاد.. والمؤمنون الصادقون به.. يعذون.. لأنهم آمنوا به.. واتبعوا دعوته.. وقلوبهم مطمئنة بالايمان.. لا ينطقون بالكفر.. ولو مزق الاذى اجسادهم.. وطواغيت الشرك يتمتعون بالتعذيب والايذاء.. بينما اهل الايمان يرضون بالعذاب عن الكفران!!.

□ وقد اخذ النبي ﷺ يعرض نفسه على القبائل.. تمهيدا لبناء دولة الاسلام الفاضلة في غير مكة المكرمة.. واخذ النور يسري في ظلمات الجاهلية.. منبثقا من مكة المكرمة.. وان لم يضيء اهلها بنوره لعمى البصائر.. ﴿فانها لا تَعْمى الابصارُ.. ولكنْ تَعْمَى القلوبُ التي في الصُّدور﴾ (سورة الحج - الآية ٤٦).

□ وكانت المعجزة الكبرى الباقية التي تحدى بها قريشا وسائر العرب هي القرآن الكريم.. ولكن ما ان قاربت الانسانية نوره.. حتى بهرها ضياؤه.. واستغرق نفوسها سناؤه.. واتجهت قاصدة ذاته اصلا.. لا تبعا للسيرة.. ولو كانت سيرة من نزل عليه القرآن وخاطب في ظله

الاجيال.. الهادي البشير النذير.. رسول رب العالمين.

□ وقد حاولت الانسانية منذ فجر الاسلام.. ان تملأ نفوسها من ينابيع الهداية في القرآن الكريم.. وان تشفي امراض قلوبها بما فيه من دواء.. وان تكشف الغمة.. بما فيه من حكم وعبر!!.

□ ولذلك صار القرآن الكريم وعلومه.. وكل ما يتعلق به هدفا مقصودا للانسان المسلم في كل زمان ومكان.. واملا منشودا لا يبغي سواه.. ولا يطلب غيره.. ولا يرضى دونه بديلا!!

□ ان معجزة محمد ﷺ كانت القرآن الكريم.. لان رسالته رسالة خالدة باقية. وهو ﷺ خاتم الانبياء المرسلين.. ولا نبي بعده.. فيجب ان تكون معجزته مناسبة لهذه الرسالة الخالدة الباقية.. التي لا يحدها زمان في المستقبل.. بل تبقى الى يوم القيامة.. ولا تكون معجزته واقعة تنقضي وتنتهي بانتهاء الزمن الذي وجدت فيه.. بل تبقى الحجة ما بقيت الشريعة.. وذلك محقق في القرآن الكريم.. فهو حجة قائمة على العرب والعجم الى يوم الدين.. وهو معجز لكل البشرية.. قال عنه احد جهابذة الشرك والكفر في الجاهلية:

ان له لحلاوة.. وان عليه لطلاوة.. وان أعلاه لمثمر.. وان اسفله لمغدق.. وهو يعلو ولا يعلو عليه.. وما هو من كلام البشر!!.

□ وتلك المعجزة الخالدة الباقية هي القرآن الكريم.. الذي يتحدى الأجيال كلها ان يأتوا بمثله.. ﴿قلنَ لئِنِ اجْتَمَعَتِ الانسُ والجنُّ على أنْ يأْتُوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأْتُونَ بمثلِهِ.. ولوْ كان بعضُهُمْ لبعضٍ ظهيرا﴾ (سورة الاسراء الآية ٨٨).

كما ذكر الله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد!.

□ وهو حجة الله على خلقه.. وحجة النبي في رسالته.. وسجل الشريعة

المحكم في بيانه.. وهو المرجع عند الاختلاف.. والحكم العدل عند الافتراق..وهو الطريق المستقيم المرشد عند الاعوجاج..من سلكه وصل.. ومن اهتدى به فاز.. ومن لجأ اليه اهتدى.. ومن حكم به عدل.. لأنه الدستور الوحيد.. الشامل الكامل الخالد للمجتمع الاسلامي في كل زمان ومكان..

□ روى الترمذي بسنده عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه انه قال: [سمعت الرسول ﷺ يقول: «ستكون فتن كقطع الليل المظلم.. قلت يا رسول الله وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله تبارك وتعالى.. فيه نبأ من قبلكم.. وخبر ما بعدكم.. وحكم ما بينكم.. هو الفصل ليس بالهزل.. من تركه من جبار قصمه الله.. ومن ابتغى الهدى في غيره اضله الله.. هو حبل الله المتين.. ونوره المبين.. والذكر الحكيم.. والصراط المستقيم.. وهو الذي لا تزيغ به الاهواء ولا تلتبس به الالسنة.. ولا تتشعب معه الآراء.. ولا يشبع منه العلماء.. ولا يخلق على كثرة الرد.. ولا تنقضي عجائبه.. وهو الذي لم تنته الجن اذ سمعته ان قالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدي الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا..من علم علمه سبق.. ومن قال به صدق.. ومن حكم به عدل.. ومن عمل به اجر.. ومن دعا اليه هدي الى صراط مستقيم..»].

□ وانه في معنى هذا الحديث ما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه.. اذ جاء فيما روي عنه: [ان هذا القرآن مأدبة الله تعالى فتعلموا من مأدبته ما استطعتم.. ان هذا القرآن هو حبل الله والنور المبين.. والشفاء النافع.. عصمة من تمسك به.. ونجاة من اتبعه.. لا يعوج فيقوم.. ولا يزيغ فيستعتب.. ولا تنقضي عجائبه.. فاتلوه فان الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات..]!!

□ وفي هذا دليل على منزلة القرآن الكريم في الاسلام.. وانه العصمة

من الزيغ.. والنور من الظلام.. والهدي من الضلال.. والحق من الباطل.. وانه المرجع المتبع.. وانه دستور الاسلام الخالد.. لأنه يشتمل على شرائع الاسلام كلها.. وأنه بذلك هو الحكم بين الناس.. الذي لا يضل حكمه.. وانه اذا استقامت الافهام نحوه لم تضل المدارك.. ولا تتشعب الآراء في حقيقته.. من تركه من جبار قصم الله تعالى ظهره.. وأضله وختم على بصيرته!!

□ والعلماء ورجال الفكر الاسلامي يجدونه النبع الصافي الذي لا يجف ماؤه.. والمعين الذي لا تنضب روافده.. والثروة الاسلامية التي فيها الحق والنور والهداية والحياة.. وانه مصلحة الدنيا والآخرة.. ما من خبر الا وله في القرآن الكريم اصل معتمد.. ونص مؤكد.. فلم يترك الله سبحانه الانسان سدى يضرب في ظلمات البر والبحر.. والجو.. قال تعالى: ﴿ما فرَّطْنا في الكتَابِ من شيء﴾ (سورة الأنعام - الآية ٣٨)..!!

□ وفيه عبر الماضين.. واخبار كل الانبياء المرسلين.. فهو كتاب الله الكامل.. وفيه معاني كل الكتب المنزلة على الرسل.. وفيه اخبار اولئك الرسل مع اقوامهم.. وفيه الامثلة المرشدة والعظات البليغة الموجهة.. وفيه اعلى الآداب الانسانية.. واقوم السلوك الكامل للبشرية جمعاء.. وفيه تعليم الانسان الاتجاه الى الكون ومعرفة ما فيه من اسرار وحقائق.. والأخذ بالعلم بكل صنوفه وضروبه.. علم الانسان.. وعلم النفس.. وعلم الكون.. وعلم الحياة.. وعلم النجوم في مسالكها.. والسموات في افلاكها.. والارض في طبقاتها!!

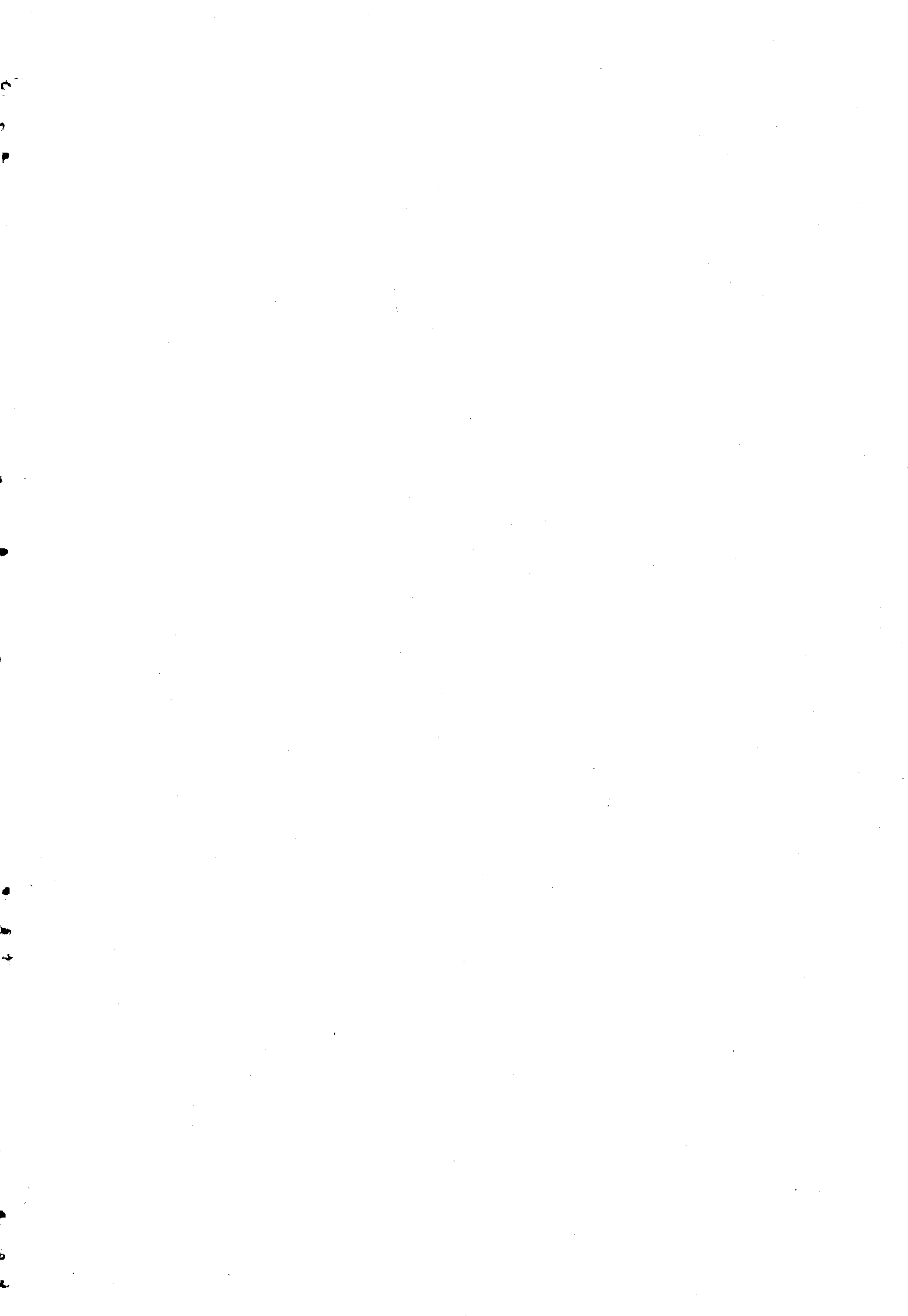
□ خاطب به الله سبحانه وتعالى اولياءه فعرفوه.. واصحاب العقول المستقيمة.. فادركوه.. وكان حقا كما قال الله تعالى: ﴿ولَوْ ان قراناً سُيِّرَتْ بِهِ الجبالُ.. او قُطِّعَتْ به الارضُ.. او كُلِّمَ به المَوْتَى.. بَلْ للهِ

الأمرُ جميعاً﴾ (سورة الرعد - الآية ٣١)..!!

□ ذلك هو القرآن الكريم بما فيه من معان وافكار وتكاليف.. وما كساه الله به من روعة وجلال وتشريف..

المراجع

١ - كتاب «المعجزة الكبرى.. القرآن» الشيخ محمد أبو زهرة.
٢ - كتاب «نحو القرآن» - الدكتور محمد البهي.
٣ - كتاب «الإسلام شريعة الحياة» الأستاذ توفيق علي وهبة.
٤ - كتاب «قرآن الله» الأستاذ عبد الخالق سيد أبو رابية.
٥ - مجلة «رحلة في الفكر والتراث» الدكتور حسام سعيد النعمي.
٦ - مجلة «هدى الإسلام» العدد الخامس والسادس - جمادى الأولى والثانية ١٣٩٩ هـ. دكتور عبد القادر حسين.
٧ - مجلة «حضارة الإسلام» العدد الثالث - جمادى الأولى ١٤٠٠ هـ الدكتور عدنان زرزور.
٨ - مجلة «التربية الإسلامية» العدد الخامس - جمادى الأولى ١٤٠٤ هـ الأستاذ عبد الرحمن الجبوري
٩ - مجلة «رحلة في الفكر والتراث» - الدكتور أحمد مطلوب.
١٠ - مجلة «الوعي الإسلامي» - العدد ٢١٣ رمضان ١٤٠٢ هـ الدكتور أحمد المجذوب.
١١ - مجلة الهداية - عدد ربيع الثاني - وجمادى الثانية ١٤٠٢ هـ الدكتور محمد الخطيب.
١٢ - مجلة الوعي الإسلامي - عدد ربيع الثاني ١٤٠٢ هـ الدكتور محمد علي البار.
١٣ - مجلة البعث الإسلامي - عدد محرم - ربيع الثاني - وجمادى الأولى ١٤٠٣ هـ الأستاذ محمد صدر الحسن الندوي.



المحتويات